



نَاصِرُ الدِّينِ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

تأليف

شهاب الدِّين أَحْمَدُ بْنُ قَاسِمٍ الْحَجَرِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ
المتوفى بعد سنة ١٠٤٨ هـ

وضع حواشيه
أحمد حسن بسج



مكتوبات
مجمع كرامت
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

تأليف: شهاب الدين أحمد بن قاسم

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

© Copyright
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٢٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2661-X

9 0000 >



9 782745 112661 0

<http://www.al-ilmiyah.com.lb/>

e-mail : sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

المؤلف^(١):

هو أحمد بن قاسم بن أحمد بن قاسم، شهاب الدين، الحجري الأندلسي، لُقِّبَ بالحجري نسبة إلى الحجر، وهي إحدى قرى غرناطة، وقد انتقل منها للعيش في إشبيلية في مرحلة مبكرة، حيث تعلَّم اللغة الإسبانية ثم سافر إلى المغرب سنة ١٠٠٧هـ وأقام في مراكش حتى سنة ١٠٤٦ هـ، وفي المغرب عمل كاتبًا وترجمانًا للسلطان زيدان بن أحمد المنصور السعدي، وقد قام أثناء وجوده في المغرب برحلة إلى كلٍّ من فرنسا وهولندا وتنقَّل بين مدن عدة كما ذكر في كتابه «ناصر الدين»، وكان ذلك بين عامي ١٠١٨هـ و١٠٢٠هـ إذ أنجز مهمة كلَّفه بها السلطان إلى قادة تلك البلاد في محاولة لردِّ ما نُهبَ للمسلمين الأندلسيين أثناء خروجهم من الأندلس ثم عاد إلى المغرب بعد إنجاز مهمته، وفي سنة ١٠٤٦هـ غادر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وفي طريق العودة زار مصر ومكث فيها فترة وألَّف كتابه الذي نحن في صدده، ومنها إلى تونس ولا ندري أين حطَّ رحاله بعد ذلك. وهكذا تكون وفاته بعد سنة ١٠٤٨هـ لأنه أرُخ لأحد كتبه بهذا التاريخ.

كتبه:

- «العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع»، فرغ من تأليفه سنة ١٠٤٨هـ، وهو كتاب في فنِّ المدفعية، نقله عن الإسبانية.

- «الزكوطينية»، كتاب في علم الفلك نقله عن الإسبانية وهو لمؤلف أندلسي من أهل سلمنكة اسمه إبراهيم زكوط.

- «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب».

- «ناصر الدين على القوم الكافرين»، وهو الكتاب الذي أشرت إليه سابقاً، وقد أُلّفه بعد إنجاز مهمته الأوروبية، وضمّنه وصفاً لما رآه وسمعه، وما جرى له مع العلماء ورجال الدين من مناظرات.

والطبعة التي اعتمدتها هي الطبعة الإسبانية، وهي طبعة كثيرة الأخطاء الطباعية واللغوية، فأصلحتها، وضبطت الحروف بالشكل، ثم خرّجت الآيات والأحاديث، وفسّرت المُبهم من الألفاظ. وتجدر الإشارة إلى أن الصفحتين الأخيرتين من الكتاب قد سقط منهما بعض الكلمات، أشرت إلى كلٍّ منها بمعقوفتين.

وفي الختام، أرجو أن أكون قد قدّمت ما ينال الرضى والقبول.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أحمد بسج

بيروت في ٢٦ رجب ١٤١٩ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ
وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، وَرَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْ آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ، وَعَنِ التَّابِعِينَ لَهُ فِي دِينِهِ وَبَعْدُ:

فَيَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللهِ تَعَالَى؛ الرَّاجِي عَفْوَهُ وَغُفْرَانَهُ وَرَحْمَتَهُ، بِشَفَاعَةِ
نَبِيِّهِ الْمَذْكُورِ فِي كُتُبِهِ، وَأَفْضَلُهَا كَلَامُهُ الْعَزِيزُ فِي قُرْآنِهِ؛ أَحْمَدُ بْنُ قَاسِمِ بْنِ
أَحْمَدَ ابْنَ الْفَقِيهِ قَاسِمِ بْنِ الشَّيْخِ الْحَجَرِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ:

مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَيَّ أَنْ جَعَلَنِي مُسْلِمًا فِي بِلَادِ الْكُفَّارِ، مُنْذُ أَعْرِفُ
نَفْسِي بِبِرَكَةِ الْوَالِدَيْنِ - رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى - وَإِزْشَادِهِمَا، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ فِي قَلْبِي
مَحَبَّةً لِلْخُرُوجِ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، مِهَاجِرًا إِلَى اللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، وَالْقُدُومِ لِبِلَادِ
الْمُسْلِمِينَ. وَقَضَى اللهُ تَعَالَى الْغَرَضَ وَالْمُرَادَ، وَبَلَّغَنَا إِلَى مَدِينَةِ مَرَاكُشِ
بِالْمَغْرِبِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ بِأَثْنَيْ عَشْرَةَ سَنَةً فَرَّجَ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْمُسْلِمِينَ
الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا، تَحْتَ قَهْرِ النَّصَارَى وَظُلْمِهِمْ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانُ الْبِلَادِ،
الْمُسَمَّى بِفِيلِبِّ الثَّالِثِ مِنْ أَسْمِهِ بِالْخُرُوجِ جَمِيعًا مِنْ بِلَادِهِ.

وَاتَّفَقَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ، عِنْدَ خُرُوجِهِمْ، أَنْ نَهَبَهُمْ فِي
الْبَحْرِ النَّصَارَى، وَأَكْثَرَهُمْ الْفَرَنْجِ الْبَحْرِيَّةَ، الَّذِينَ أَكْثَرُوهُمْ وَدَفَعُوا لَهُمْ أَجْرَتَهُمْ
عَلَى أَنْ يُبَلِّغُوهُمْ فِي عَافِيَةٍ وَأَمَانٍ، إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَخَانُوهُمْ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ

الرَّيَّاسِ فِي سَفِينَتِهِ؛ وَبَعْدَ أَخْذِ كُلِّ مَا^(١) كَانَ لَهُمْ، أَخْرَجُوهُمْ فِي بَغْضِ الْجُزْرِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَرْبَعَةٌ مِنْ تِلْكَ السُّفُنِ الْمَنْهُوِيَةِ خَرَجَتْ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى، فَأَخْسَنَ الْمُسْلِمُونَ الْبَرْزَ بِالْأَنْدَلُسِ وَجَاؤُوا إِلَى مَدِينَةِ مَرَاكُشَ - وَهِيَ دَارُ سَلَاطِينَ الْمَغْرِبِ - وَطَلَبُوا مِنَ السُّلْطَانِ مَوْلَايَ زَيْدَانَ بْنِ السُّلْطَانِ مَوْلَايَ أَحْمَدَ بْنِ السُّلْطَانِ مَوْلَايَ مُحَمَّدَ الشَّيْخِ الشَّرِيفِ الْحَسَنِيِّ، أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ فِي إِزْسَالِ بَغْضٍ مِنْ أَصْحَابِهِمْ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ بِتِلْكَ الْمَدِينَةِ، وَاتَّفَقَ نَظَرُهُمْ أَنْ تَمْشِيَ بِأَصْحَابِهِمْ؛ وَأَعْطَانَا السُّلْطَانُ كِتَابَهُ وَذَهَبَنَا إِلَى أَسْفَى - هِيَ مَدِينَةُ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ - وَفِيهَا رَكِبْنَا وَبَلَّغْنَا إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ، وَوَقَعَ لِي كَلَامٌ كَثِيرٌ مَعَ عُلَمَائِهِمْ مِنَ الْقَسِيسِيِّنَ، وَالرُّهْبَانِ، وَالْقُضَاةِ، فِي شَأْنِ الْأَذْيَانِ، وَاخْتَجْتُ أَقْرَأَ الْإِنْجِيلِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ الْآنَ، وَمِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ مِنْ كُتُبِهِمْ وَجَدْتُ مَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ، وَتُبَّطِلُ حُجَجَهُمْ، وَنُصِّرَنِي اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِرَارًا عَدِيدَةً.

وَذَكَرْتُ بَعْدَ ذَلِكَ، حِينَ وَلَّيْتُ إِلَى مَرَاكُشَ، شَيْئًا مِنَ الْحِكَايَاتِ، وَالْمُنَاطَرَاتِ، وَالْأَجْوِبَةِ مِنِّي إِلَيْهِمْ، لِبَغْضِ الْإِخْوَانِ، وَطَلَبِ مِنِّي غَيْرِ وَاحِدٍ، مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ أَعْمَلَ تَأْلِيلًا بِذَلِكَ. وَلَمْ يَتَّفِقِ الْعَمَلُ إِلَى أَنْ أَمَرَنِي شَيْخُنَا وَبَرَكَتُنَا بِمَضَرِ الْمَخْرُوسَةِ بِاللَّهِ، وَهُوَ الْعَلَامَةُ الشَّهِيرُ عِلْمُهُ وَتَنَاوُهُ فِي الْأَقْطَارِ وَالْبُلْدَانِ: الشَّيْخُ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَدْعُو زَيْنُ ابْنِ الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَجْهَوْرِيِّ^(٢) الْمَالِكِيِّ، فَأَجَبْتُهُ بِأَكْثَرِ مِمَّا طَلَبَهُ، وَجَعَلْتُ التَّأْلِيلَ رِحْلَةً^(٣) سَمَّيْتُهَا بِـ «رِحْلَةِ^(٣) الشَّهَابِ إِلَى لِقَاءِ الْأَخْبَابِ».

وَذَكَرْتُ فِيهَا أَوَّلًا: بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ هِيَ مِنْ مَعْمُورِ الدُّنْيَا، وَالْأَقْطَارِ الْمُجَاوِرَةِ إِلَيْهَا، وَالْعَرْضَ وَالطُّولَ فِي صُفْعَيْهَا، وَعَرْضَ ارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشِّمَالِيِّ عَلَيْهَا، وَدَرَجَ طُولِهَا مِنَ الدُّنْيَا، الَّذِي هُوَ ابْتِدَاؤُهُ مِنَ الْجُزْرِ الْحَالِدَاتِ الْمُسَمَّاتِ الْآنَ بِـ: قَنَارِيَّةٍ^(٤)؛ ثُمَّ ذَكَرْتُ مَنْ سَكَنَهَا مِنَ الْأَجْنَاسِ الْقَدِيمَةِ، قَبْلَ

(١) فِي الْأَصْلِ: كُلُّهَا.

(٢) الْأَجْهَوْرِيُّ (٩٦٧ - ١٠٦٦ هـ)، مُحَدِّثٌ وَفَقِيهٌ مَالِكِيٌّ مَوْلَدُهُ وَوَفَاتَهُ بِمِصْرَ.

(٣) فِي الْأَصْلِ: رَحَلْتُ. (٤) هِيَ مَا يُعْرَفُ الْيَوْمَ بِجُزْرِ الْكَنَّارِيِّ.

دُخُولِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا، وَفِي أَيِّ سَنَةٍ كَانَ افْتِتَاحُهَا، وَمَا اتَّفَقَ فِي أَخْذِهَا؛ ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْضَ الْمُلُوكِ الصَّالِحِينَ الْمُجَاهِدِينَ، وَأَيْضًا بَعْضَ رَسَائِلِ لِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ^(١)؛ ثُمَّ ذَكَرْتُ الزَّمَنَ الَّذِي كَانَتْ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ اخْتَوَتْ النُّصَارَى عَلَى جَمِيعِهَا. ثُمَّ ذَكَرْتُ كَيْفَ كَانَ حَالُ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ النُّصَارَى، بَعْدَ أَنْ أَدْخَلُوهُمْ جَمِيعًا كَرِهًا مِنْهُمْ فِي دِينِهِمْ؛ وَكَانُوا يَغْبُدُونَ دِينَيْنِ: دِينَ النُّصَارَى جَهْرًا، وَدِينَ الْمُسْلِمِينَ فِي خَفَاءٍ مِنَ النَّاسِ؛ وَإِذَا ظَهَرَ عَلَى أَحَدِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِ الْمُسْلِمِينَ يَحْكُمُ^(٢) فِيهِمُ الْكُفَّارُ الْحُكْمَ الْقَوِيَّ وَيَخْرِقُونَ بَعْضَهُمْ؛ كَمَا شَاهَدْتُ حَالَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً قَبْلَ خُرُوجِي مِنْهَا.

وَأَيْضًا ذَكَرْتُ مَا اتَّفَقَ لِي بِمَدِينَةِ غَرْنَاطَةَ، مَعَ الْقَسِيسِ الْكَبِيرِ فِي قِرَاءَةِ الرِّقِّ الْمَكْتُوبِ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْعَجَمِيَّةِ، فِيمَا ذَكَرَ يُوحَنَّا الَّذِي كَتَبَ رُبْعَ الْإِنْجِيلِ فِيمَا يَكُونُ وَيَخْدُثُ فِي الدُّنْيَا، إِلَى أَنْ تَفْتَنَى؛ وَأَيْضًا شَيْئًا مِمَّا كَانَ مَكْتُوبًا فِي الْكُتُبِ الَّتِي وَجَدْتُ تَحْتَ الْأَرْضِ، فِي تَارِيخِ أَلْفٍ وَثَلَاثِ سِنِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، مَكْتُوبَةً فِي وَرَقِ الْآنَكِ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْ عَهْدِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ؛

وَمَا اتَّفَقَ لَنَا فِي الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ النُّصَارَى، وَكَيْفَ لَطَفَ اللَّهُ بِنَا وَفَكَرْنَا مِنْهُمْ سَالِمِينَ بِفَضْلِهِ، وَذَكَرْنَا أَيْضًا الْأَسْبَابَ الَّتِي قَالَ سُلْطَانُ النُّصَارَى إِنَّهَا حَمَلَتْهُ عَلَى إِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بِلَادِهِ؛ وَأَيْضًا مَا رَأَيْتُ فِي أَسْفَارِي، وَرِخْلَتِي الْمَشْرِقِيَّةِ، وَالْمَغْرِبِيَّةِ، وَالْجَوْفِيَّةِ، مِنْ [...] (٣)، وَمَا وَقَعَ لِي مِنَ الْكَلَامِ وَالْمُنَاطَرَاتِ مَعَ النُّصَارَى [...] (٣) وَالْقَسِيسِينَ وَالرُّهْبَانَ، وَأَكَابِرِهِمْ فِي أُمُورِ الدِّينِ بِلَادِ الْفَرَنْجَةِ، وَبِلَادِ فَلَنْصُسْ؛ وَأَيْضًا مَعَ الْيَهُودِ.

وَقَرَأْتُ الرُّخْلَةَ الْمَذْكُورَةَ، عَلَى الشَّيْخِ الْفَاضِلِ الْمَذْكُورِ، الَّذِي أَمَرَنِي بِمَضَرِّ بِعَمَلِ الْكِتَابِ، وَلَمَّا رَأَيْتُ عَازِمًا عَلَى الرُّجُوعِ لِبِلَادِ الْمَغْرِبِ الَّتِي جِئْتُ مِنْهَا

(١) هو ذو الوزارتين، كاتب وزير، شاعر غرناطي أندلسي اسمه محمد بن عبد الله بن سعيد التلمساني (٧١٣ - ٧٧٦ هـ).

(٢) في الأصل: يحكمون. (٣) فراغ في الأصل.

لَأَدَاءِ الْفَرَضِ، وَزِيَارَةِ قَبْرِ أَفْضَلِ مَنْ ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَالْوَقْتُ ضَاقُ،
أَرَدْتُ أَكْتُبَ لَهُ مِنْهَا نَسْخَةً - كَمَا كَانَ فِي غَرَضِي - أَمْرِنِي أَنْ أُخْتَصِرَ مِنْهَا
نُبْذَةً لَطِيفَةً، وَتَذَكُّرُ مَا وَقَعَ لِي مِنَ الْكَلَامِ فِي الدِّينِ مَعَ النَّصَارَى. وَهَا أَنَا
أَسْرِعُ، بِعَوْنِ اللَّهِ، أَكْتُبُ فِي هَذِهِ الْوَرَقَاتِ مَا وَقَعَ لِي مِنَ الْمُنَاطَرَاتِ، وَكُلَّ
مَسْأَلَةٍ^(١) أَلْهَمَنِي اللَّهُ تَعَالَى، بِالْجَوَابِ عَلَيْهَا فِي الْحِجِنِ عَلَى الْبَدِيهَةِ؛ وَأَذْكُرُ
نُصُوصَهَا مِنَ الْكُتُبِ بِزُهَانِهَا؛ وَإِنْ كَانَ لِي وَقْتُ قَبْلِ الرَّجِيلِ مِنْ مِضَرٍ، نَكْتُبُ
مِنَ الرَّحْلةِ أَيْضًا مَا وَقَعَ لِي مَعَ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ، بِالْبِلَادِ الْمَذْكُورَةِ؛ وَبِسَبَبِهِمْ قَرَأْتُ
التَّوْرَةَ^(٢) الَّتِي هِيَ أَزْيَعُ وَعِشْرُونَ كِتَابًا: الْخَمْسَةُ الْأَوَائِلُ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَالْبَاقِي
مِنَ الْكُتُبِ فِي التَّوَارِيخِ؛ وَجَدْتُهَا مُتَرْجَمَةً مِنَ الْعِبْرَانِي إِلَى الْعَجَمِي^(٣) الَّذِي
نَعْرِفُهُ، وَزَادَنِي اللَّهُ تَعَالَى يَقِينًا وَمَحَبَّةً فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ مِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ
تَعَالَى بِهِ عَلَيَّ، نَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ بِجَآءِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يُلْطَفَ بِي فِي الدَّارَيْنِ
وَأَنْ يَخْتَمَ لِي بِالسَّعَادَةِ، وَلِمَنْ يَقْرَأُ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَوْ يَسْمَعُهُ وَأَنْ يَخْصُصَ مِنْ
فَضْلِهِ مَنْ أَمْرِنِي بِكِتَابِهِ بِمَا يَشَاءُ مِنْ فَضْلِهِ وَخَيْرِهِ وَإِحْسَانِهِ وَأَنْ يَنْصُرَ جَمِيعَ
الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

وَقَدْ سَمَّيْتُ الْكِتَابَ بِـ «نَاصِرِ الدِّينِ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» وَهُوَ: «السَّيْفُ
الْأَشْهَرُ عَلَى كُلِّ مَنْ كَفَرَ» وَجَعَلْتُهُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ بَابًا:

البَابُ الْأَوَّلُ: فِي ذِكْرِ مَا وَقَعَ لِي بِمَدِينَةِ غَرْنَاطَةَ، مَعَ الْقَسِيسِ الْكَبِيرِ فِي
شَأْنِ الرُّقِّ الَّذِي وُجِدَ فِي الصُّومَعَةِ الْقَدِيمَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي وَجِدْتُ فِي
خَنْدَقِ الْجَنَّةِ، بِقَرْبِ مَدِينَةِ غَرْنَاطَةَ، مَكْتُوبَةٍ بِالْعَرَبِيَّةِ فِي وَرَقٍ مِنْ رِصَاصٍ، مِنْ
الزَّمَنِ الْقَرِيبِ بَعْدَ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

البَابُ الثَّانِي: فِي قُدُومِنَا إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا اتَّفَقَ لَنَا عِنْدَ خُرُوجِنَا
مِنْ بَيْنِ النَّصَارَى سَالِمِينَ مِنْهُمْ، بَعْدَ أَنْ كُنَّا فِي أَيْدِيهِمْ مُتَعَرِّضِينَ لِلْهَلَاكِ بِلُطْفِ
مِنْ اللَّهِ تَعَالَى.

(٢) فِي الْأَصْلِ: التَّوْرَةُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: مَسْأَلَةٌ.

(٣) يَرِيدُ بِالْعَجَمِي: الْإِسْبَانِيَّةَ.

البَابُ الثَّالِثُ: فِي بُلُوغِنَا إِلَى مَدِينَةِ مَرَّاكُشْ، وَمَا كَانَ السَّبَبُ إِلَى أَنْ مَشِينَتْ إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ، بَعْدَ أَنْ جَلَسْتُ بِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً.

البَابُ الرَّابِعُ: فِي رُكُوبِنَا الْبَحْرَ الْمُحِيطَ وَبُلُوغِنَا إِلَى فَرَنْجَةِ إِلَى مَدِينَةِ مَرْسِ النَّبْرَكَةِ؛ وَتُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِهَبْرْدَغَرَسِي^(١)؛ ثُمَّ إِلَى مَدِينَةِ رُوَانْ وَمَا اتَّفَقَ لَنَا فِيهَا.

البَابُ الْخَامِسُ: فِي قُدُومِنَا إِلَى مَدِينَةِ بَرِيشْ^(٢)؛ وَهِيَ دَارُ سُلْطَنَةِ الْفَرَنْجِ؛ وَذَكَرَ حَالَهَا وَعَظَمِهَا وَمَا اتَّفَقَ لَنَا مَعَ بَعْضِ النَّصَارَى مِنَ الْمُنَاطَرَاتِ.

البَابُ السَّادِسُ: فِي قُدُومِنَا بِكُتُبِ السُّلْطَانِ إِلَى قَاضِي الْأَنْدَلُسِ وَقَاضِي الْقَضَاةِ بِمَدِينَةِ بُرْضِيُوشْ^(٣)، وَذَكَرَ مَا زَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَابَا فِي دِينِ النَّصَارَى؛ وَذَكَرَ الْبَابَا جَوَانَ الَّذِي كَانَ امْرَأَةً^(٤) فَفَضَّحَهُ اللَّهُ بِحَضْرَةِ النَّاسِ.

البَابُ السَّابِعُ: فِي رُجُوعِنَا إِلَى بَرِيشْ، وَمَا اتَّفَقَ لَنَا فِي الْمُنَاطَرَاتِ مَعَ عُلَمَاءِ النَّصَارَى فِي شَأْنِ الدِّينِ.

البَابُ الثَّامِنُ: فِي قُدُومِنَا إِلَى أَلُونَةَ^(٥)، وَمَا اتَّفَقَ لَنَا فِيهَا.

البَابُ التَّاسِعُ: فِي قُدُومِنَا إِلَى مَدِينَةِ بُرْضِيُوشْ، وَمَا وَقَعَ لَنَا فِيهَا مِنَ الْمُنَاطَرَاتِ مَعَ النَّصَارَى الْقَيْسِيَّيْنَ، وَالرُّهْبَانَ، وَالْقَضَاةَ، وَقَضَاءِ شَيْءٍ مِنَ الْغَرَضِ الَّذِي مَشِينَتْ بِسَبَبِهِ.

البَابُ الْعَاشِرُ: فِي مُنَاطَرَاتِ الْيَهُودِ بِفَرَنْجَةِ^(٦) وَفَلَنْضِسْ^(٧).

البَابُ الْحَادِي عَشَرَ: فِي ذِكْرِ قُدُومِنَا إِلَى فُلَنْضِسْ، وَمَا اتَّفَقَ لَنَا فِيهَا.

(١) من موانئ فرنسا على بحر المانش وكان يُعرَف يومذاك بـ Howre de Grace ويُعرَف اليوم بالهامز.

(٢) هي مدينة باريس الفرنسية.

(٣) هي مدينة بورردو الفرنسية Bordeaux، على المحيط الأطلسي.

(٤) امرأة.

(٥) مدينة فرنسية.

(٦) يريد بلاد النذرلاند: Nether lands.

(٧) يريد: فرنسا.

البَابُ الثَّانِي عَشَرَ: فِيمَا اتَّفَقَ لَنَا فِي مِصْرَ مَعَ رَاهِبٍ عَالِمٍ كَانَ بَالِغًا فِي
فُنُونِ الْعِلْمِ مِنْ عُلُومِهِمْ.

البَابُ الثَّالِثُ عَشَرَ: فِي ذِكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيَّ مِنْ فَضْلِهِ فِي بِلَادِ
الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهَا.

الباب الأول

في ذكر ما وَقَعَ لي بمدينة غَرْناطة مَعَ القسيس الكبير في شأن قراءة الرِّقِّ الذي وُجِدَ في الصومعة؛ وأيضاً بَعْضُ مَا صَحَّ عِنْدِي مِنَ الكُتُب المَكْتُوبَةِ بالعَرَبِيَّةِ في وَرَقِ الرِّصَاصِ. وهذا البابُ هُوَ فِي الرُّحْلَةِ فِي البابِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْهَا

اَعْلَمَ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ فِي عَامِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَتِسْعِ مِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ؛ وَفِي حِسَابِ النَّصَارَى عَامِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ وَأَلْفٍ؛ أَمَرَ الْقِسِّيسُ^(١) الْكَبِيرُ بِمَدِينَةِ غَرْناطة بِهَذِمِ صَوْمَعَةٍ قَدِيمَةٍ كَانَتْ فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ، وَكَانَتْ تُسَمَّى مِنَ قَدِيمِ الزَّمَانِ ثُرْبَانَةَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ بَنَوْا صَوْمَعَةً قَرِيبَةً مِنْهَا عَالِيَةً جِدًّا. وَلَمَّا أَنْ هَدَمُوا الْقَدِيمَةَ، وَجَدُوا فِي حَيْطِهَا صُنْدُوقًا مِنْ حَجَرٍ، وَفِي دَاخِلِهِ صُنْدُوقًا مِنْ رِصَاصٍ، وَفِيهِ وَجَدُوا رَقًّا كَبِيرًا مَكْتُوبًا بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْعَجَمِيَّةِ الْمُتَصَرِّفَةِ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَنُصِفَ خِمَارُ الصَّالِحَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ أُمُّ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَظَمًا مِنْ جَسَدِ إِيْشَطْبَانَ^(٢) الصَّالِحِ - عِنْدَهُمْ -.

فَأَمَّا مَا كَانَ فِي الرِّقِّ بِالْأَعْجَمِيَّةِ فَقُرِئَ؛ وَمَا كَانَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَتَنَادَوْا الْأَكْنَحِلَ الْأَنْدَلُسِيَّ - وَكَانَ تُرْجَمَانًا بِالْإِجَازَةِ - وَالشَّيْخَ الصَّالِحَ الْجَبُّسَ، وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْأَنْدَلُسِ الْكِبَارِ السُّنِّ، الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الْقِرَاءَةَ الْعَرَبِيَّةَ؛ وَأَمَرَهُمُ الْقِسِّيسُ بِتَرْجُمَةِ مَا فِي الرِّقِّ مِنَ الْعَرَبِيِّ: كُلُّ وَاحِدٍ وَحْدَهُ؛ وَتَارَةً يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ؛ وَلَمْ يُحِيطُوا بِفَهْمِهِ حَقِيقَةً؛ وَالْقِسِّيسُ الْكَبِيرُ تَعَلَّمَ يَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ.

(١) هُوَ جَوَان مِينْدِيز دِي سَلْفَاتِيرَا، الْمَتَوُفَّى سَنَةَ ١٥٨٨ م.

(٢) هُوَ سَتِيفَان، الْقَدِيسُ عِنْدَهُمْ.

وَبَعْدَ أَنْ وَجَدُوا الرُّقَّ بِسَبْعِ سِنِينَ، جَاءَ رَجُلٌ مِنْ مَدِينَةِ جَيَّانَ بِبَغْضٍ كُتِبَ، بَعَثَهَا لَهُ بَغْضُ الْأَسَارَى مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، فِيهَا ذَكَرُ كُنُوزٍ فِي بَغْضِ الْمَوَاضِعِ. فَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يَقْرُبُ غَرْنَاطَةَ عَلَى بُعْدِ مِيلٍ مِنْهَا أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؛ وَكَانَ الْمَوْضِعُ يُسَمَّى: بِخَنْدَقِ الْجَنَّةِ؛ فَحَرَكَ حَجَرًا وَوَجَدَ تَحْتَهُ غَارًا، وَفِي رُكْنِ الْغَارِ رَمَادًا وَرَصَاصًا مَكْتُوبًا بِاللَّطِينِ يَقُولُ فِيهِ: هَذَا الْمَوْضِعُ أُحْرِقَ فِيهِ الْقَيْسِيُّ سَيْلِيُوهُ. وَهَذَا سَيْلِيُوهُ^(١) كَانَ الَّذِي كَتَبَ الرُّقَّ: وَذَلِكَ أَنَّ النَّصَارَى كَانَتْ عِنْدَهُمْ فِي كُتُبِهِمْ خَبَرٌ بِمَوْتِ سَيْلِيُوهُ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ تَلَامِيذِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُ قُتِلَ عَلَى دِينِهِ، وَأَنَّهُ مِنَ الشُّهَدَاءِ عِنْدَهُمْ وَلَا عَلِمُوا مَوْضِعَهُ.

وَمِنْ عَادَتِهِمْ أَنْ كُلَّ مَنْ يُقْتَلُ عَلَى دِينِهِ مِنَ الْقَيْسِيِّينَ يُثَبِّتُونَ اسْمَهُ مَعَ الصَّالِحِينَ، وَيَذْكُرُونَ مَوْضِعَهُ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ لِيُزَوَّرَهُ^(٢) النَّاسُ. فَأَمَرَ الْقَيْسِيُّ الْكَبِيرُ بِالْدُخُولِ فِي الْغَارِ؛ يَنْظُرُونَ فِيهِ وَيُفْتَشُونَ، لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ كُتُبَهُ الْمَذْكُورَةَ فِي رُومَةٍ، فِي دَارِ دِينِهِمْ وَمَوْضِعِ الْبَابِ، الَّذِي هُوَ كَبِيرُ الْقَيْسِيِّينَ وَالرُّهْبَانِ وَإِمَامُ جَمِيعِهِمْ.

وَالْخَبَرُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ عِنْدَهُمْ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ سَيْلِيُوهُ الْقَيْسِيُّ الْكَبِيرُ - أَغْنِيَ مِنَ الْأَسَاكِفَةِ^(٣) - كَانَ عِنْدَهُ أَسْرَارٌ وَأُمُورٌ رَبَّانِيَّةٌ مِنْ زَمَانِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ؛ وَأَنَّهُ أَوْدَعَهَا مَكْتُوبَةً فِي جَبَلٍ يُسَمَّى بـ: إِبْلِطَانُ؛ وَبَحَثَ وَاحِدٌ مِنَ الْبَابَاوَاتِ عَنْ هَذَا الْجَبَلِ وَقِيلَ لَهُ أَنَّهُ بِإِطَالِيَّةٍ؛ فَأَمَرَ أَنْ يُخْفَرَ كُلُّهُ وَيُغْرَزَلُ ثُرَابُهُ فِي طَلَبِ الْكُتُبِ وَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا. وَسَمِعْتُ هَذَا الْكَلَامَ فِي مَدِينَةِ غَرْنَاطَةَ مِنَ النَّاسِ وَلَا تَحَقَّقْتُ حَتَّى سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ الْقَيْسِيِّ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُهُ؛ وَذَكَرَ لِي الْحِكَايَةَ كَمَا سَمِعْتُهَا مِنْ غَيْرِهِ.

وَلَمَّا فَتَشُوا فِي الْغَارِ، وَجَدُوا بَغْضَ الْحِجَارِ مَغْفُودَةً فَكَسَرُوهَا، وَوَجَدُوا فِي قَلْبِ كُلِّ حَجَرٍ كِتَابًا وَوَرَقَةً رَصَاصًا؛ وَكُلُّ وَرَقَةٍ قَدَرِ كَفِّ الْيَدِ أَوْ أَقَلَّ

(١) من القديسين عند النصارى، وقد مات في السنة الأخيرة من حكم نيرون سنة ٧٠.

(٢) في الأصل: لتزوره.

(٣) في الأصل: الأسكفة.

قَلِيلًا؛ وَهِيَ مَكْتُوبَةٌ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ فَأَمَرَ الْقَسِيسُ الْأَنْدَلُسِيَّ الْمَذْكُورِينَ وَهُمْ الْأَكْنَحِلُ وَالْفَقِيهَ الْجَبَسَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ وَغَيْرَهُمَا بِتَرْجَمَةِ الْكُتُبِ. فَوَجَدُوا فِي أَحَدِهَا ذِكْرَ الرَّقِّ الَّذِي كَانَ بِأَيْدِيهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ الْعَهْدِ يَنْخُو السَّبْعَ سِنِينَ؛ فَاشْتَدَّ حِرْصُهُمْ عَلَى مَا فِي الرَّقِّ.

وَوَاحِدٌ مِنَ الْقَسِيسِينَ الْمُقَرَّبِينَ لِلْقَسِيسِ الْكَبِيرِ كَانَ يَتَعَلَّمُ يَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَبِسَبَبِ ذَلِكَ كَانَ يُلَازِمُ^(١) الْحَكِيمَ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي الْعَاصِي - حَفِيدَ الشَّيْخِ الصَّالِحِ الْجَبَسَ الْمَذْكُورِ؛ أَنَّهُ كَانَ يُتَرْجِمُ الْكُتُبَ؛ وَمِنْ أَجْلِ جَدِّهِ كَانَ يَقْرَأُ بِحَضْرَةِ النَّصَارَى بِالْعَرَبِيَّةِ - وَالْكِتَابَ الَّذِي كَانَ يَقْرَأُهُ لِلْقَسِيسِ يُسَمَّى بـ «نُزْهَةِ الْمُشْتَاكِ فِي اخْتِرَاعِ الْأَفَاقِ» وَكُنْتُ أَخْضَرُ مَعَهُمَا؛ وَلَمْ نُظْهِرْ لِلنَّصْرَانِيِّ أَنَّنَا نَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ، لِمَا كَانُوا يَحْكُمُونَ فِيمَنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ. وَبَيْنَمَا كَانَ يَقْرَأُ فِي الْكِتَابِ، كَانَا يَتَوَقَّانَ فِي بَعْضِ الْكَلِمَاتِ وَفَهِمَ مَعْنَاهَا فَكُنْتُ أَقُولُ لَهُمَا: لَعَلَّهُ كَذَا! فَيَجِدَانِهِ^(٢) كَذَلِكَ. وَنَظَرَنِي الْقَسِيسُ وَقَالَ: أَنْتَ تَعْرِفُ تَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ فَلَا تَخَفْ، لِأَنَّ الْقَسِيسَ الْأَعْظَمَ يَطْلُبُ عَلَى مَنْ يَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ الْقِرَاءَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ، لَعَلَّهُ يَبَيِّنُ شَيْئًا مِمَّا ظَهَرَ مَكْتُوبًا بِذَلِكَ اللَّسَانِ.

وَحَمَلَنِي إِلَى دَارِهِ؛ وَكَانَ عِنْدَهُ كُتُبٌ فِي كُلِّ فَنٍ^(٣) وَلِسَانٍ؛ وَأَخْرَجَ لِي كُتُبًا بِالْعَرَبِيَّةِ؛ فَقَرَأْتُ وَتَرْجَمْتُ لَهُ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي كَانَ يَتَوَقَّفُ فِيهَا. ثُمَّ لَقَانِي يَوْمًا آخَرَ وَقَالَ لِي: الْقَسِيسُ الْكَبِيرُ أَمَرَ أَنْ تَمْشِيَ مَعِيَ إِلَى حَضْرَتِهِ؛ قُلْتُ فِي نَفْسِي: كَيْفَ الْخَلَاصَ وَالنَّصَارَى تَقْتُلُ وَتَحْرِقُ كُلَّ مَنْ يَجِدُونَ عِنْدَهُ كِتَابًا عَرَبِيًّا، أَوْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ يَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ؟ وَأَمَّا مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْمُتَرْجِمِينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ فَكَانُوا شُيُوخًا وَيَسْتَغْذِرُونَ بِأَنَّهُمْ تَعَلَّمُوا الْقِرَاءَةَ الْعَرَبِيَّةَ فِي صَغَرِهِمْ بِقُرْبِ عَهْدِ الْإِسْلَامِ؛ وَأَمَّا الْحَكِيمُ أَبُو الْعَاصِي فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَجْلِ جَدِّهِ، لِأَنَّهُ مُتَرْجِمٌ - كَمَا قُلْنَا -؛ وَمَاذَا أَقُولُ أَنَا إِذَا سَأَلَنِي عَمَّنْ^(٤) عَلَّمَنِي؟ وَفِي الطَّرِيقِ كَانَ يَقُولُ لِي الْقَسِيسُ: قُلْ لِلسَّيِّدِ الْعَظِيمِ إِنَّ الْمُتَرْجِمِينَ مَا

(٢) فِي الْأَصْلِ: فَيَجِدَاهُ.

(٤) فِي الْأَصْلِ: عَنْ مَنْ.

(١) فِي الْأَصْلِ: يُلَازِمُ.

(٣) فِي الْأَصْلِ: فَنَانِ.

عَرَفُوا شَيْئًا؛ قُلْتُ فِي نَفْسِي: عَكْسَ هَذَا أَقُولُ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَ الدَّعَاوِي يَفْتَضِحُونَ.

وَلَمَّا أَنْ دَخَلْنَا إِلَى حَضْرَتِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا وَقَالَ لِي: ذَكَرَ لِي الْقَسِيسُ مَلْضُضُ^(١) أَنَّكَ تُحَسِّنُ الْقِرَاءَةَ الْعَرَبِيَّةَ! قُلْتُ: لَيْسَ أَنَا مِنَ الْبَالِغِينَ فِيهَا. قَالَ: أَيْنَ تَعَلَّمْتَ؟ قُلْتُ: اغْلَمْ أَيُّهَا السَّيِّدُ أَنَّنِي أُنْدَلِسِي مِنَ الْحَجَرِ الْأَخْمَرِ، وَكَلَامُنَا فِيهِ فَهُوَ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ ثُمَّ تَعَلَّمْتُ نَقْرًا بِالْعَجَمِيَّةِ ثُمَّ مَشَيْتُ إِلَى مَذْرِيلِ^(٢) - بَلَدِ السُّلْطَانِ - فَوَجَدْتُ فِيهَا رَجُلًا طَبِيبًا أُنْدَلِسِيًّا مِنْ بِلَادِ بِلْنَسِيَّةِ اسْمُهُ فُلَانٌ، وَعَلَّمَنِي نَقْرًا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَجَاءَنِي^(٣) سَهْلًا لِكُونِي عَرَبِيًّا فِي الْأَصْلِ. ثُمَّ قَالَ لِي: وَأَيْنَ مُعَلِّمُكَ الطَّبِيبُ؟ قُلْتُ: مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَبْلَ هَذَا الْعَهْدِ بِأَخَوِ السُّنْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ - وَكُلِّ مَا^(٤) قُلْتُ لَهُ، فِيمَا سَأَلَنِي عَنِ الطَّبِيبِ، إِنَّهُ كَانَ مِنْ بِلَادِ بِلْنَسِيَّةِ كَذِبٌ؛ وَلَكِنْ كَانَتْ الْقِرَاءَةُ بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ بِلْنَسِيَّةِ مُبَاحَةً فِي غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَمَمْنُوعَةً لِسَائِرِ أَهْلِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَتَسْتَرْتُ بِالْكَذِبِ مِنْ شَرِّهِمْ؛ وَقَدْ ذَكَرَ الْغَزَالِيُّ نَفَعَ اللَّهُ بِهِ - فِي كِتَابِ «الْإِحْيَاءِ»: «إِنْ جَازَ عَلَيْكَ إِنْسَانٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، ثُمَّ جَاءَ فِي طَلَبِهِ رَجُلٌ ظَالِمٌ سَائِلًا عَنْهُ لِيَضُرَّهُ فَقُلْ لَهُ: مَشَى مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ^(٥) بِعَكْسِ مَا مَشَى مِنْهَا لِيَنْجُو الْمَطْلُوبُ مِنْ ظُلْمِ طَالِبِهِ، وَإِنَّ الْكَذِبَ فِي مِثْلِ هَذَا جَائِزٌ بَلْ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ؛ مَعَ أَنَّ الْإِزْشَادَ وَاجِبٌ». وَظَهَرَ لِي أَنَّ الَّذِي مِنْ عَادَتِهِ الصَّدْقُ فِي كَلَامِهِ إِذَا كَذَبَ فِيمَا يَجُوزُ لَهُ الْكَذِبُ مُضْطَرًّا إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ قَوْلُهُ وَيُصَدَّقُ فِيمَا يَقُولُهُ.

ثُمَّ أَمَرَ الْقَسِيسُ بِإِحْضَارِ^(٦) الرُّقِّ - وَكَانَ فِي الطُّرَّةِ^(٧) مَكْتُوبٌ بِالْعَرَبِيَّةِ، بِحُرُوفٍ غَيْرِ مَنْقُوطَةٍ: «يَا طَالِبَ الْبَلْغَرِ أَقْرِنْ، وَإِنْ لَمْ تَقْرِنْ لَمْ تُحِطْ بِفَهْمِ الْجَفْرِ»؛ فَسَأَلَنِي عَنِ الْمَعْنَى بِالْعَجَمِيَّةِ، فَذَكَرْتُهُ لَهُ قَالَ لِي: آتِنَا عَدَا، قُلْتُ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ.

(١) يريد Maldanado.

(٢) في الأصل: وجاني.

(٣) في الأصل: النحية.

(٤) في الأصل: الطورة.

(٥) يريد: مدريد.

(٦) في الأصل: وكلما.

(٧) في الأصل: بإحضار.

وَلَمَّا أَنْ جِئْتُ أَغْطَانِي الرِّقَّ وَقَالَ لِقَيْسٍ عَالِمٍ شَهِيرٍ مَحْمُودٍ عِنْدَهُمْ اسْمُهُ رَايَهُ: أَقْعُدْ مَعَهُ وَاكْتُبْ مَا يَقُولُهُ لَكَ. وَكَانَ فِي أَغْلَاهُ مَكْتُوبٌ: جَفَرُ الْمُنْجِيلِ يُوحَنَّا فِي خَرَابِ الْوُجُودِ؛ ثُمَّ فِي صَدْرِ الْمَكْتُوبِ: بِسْمِ الذَّاتِ الْكَرِيمَةِ الْمُتَلَيَّبَةِ. فَاخْتَجْتُ كِتَابًا فِي اللَّغَةِ إِلَى فَهْمِ مَعْنَى الْمُتَلَيَّبَةِ؛ وَأَغْطَانِي الْقَيْسُ كِتَابَ الْجَوْهَرِيِّ فِي سِفْرَيْنِ؛ وَفَهَمْتُ مِنَ الْمُتَلَيَّبَةِ أَنَّهُ مَاخُذٌ مِنْ لُبِّ الشَّيْءِ مَعْنَاهُ: الذَّاتُ السَّادِجَةُ الْخَالِصَةُ؛ لَا مُرَكَّبَةٌ وَلَا مَمْرُوجَةٌ.

ثُمَّ ذَكَرَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ قَالَ الْقَيْسُ سِسْلِيُّوهُ كَاتِبُهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مَشَى فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَى مَدِينَةِ أُطِينَاش^(١) بِبِلَادِ الْيُونَانِ، حَيْثُ يُقْرَأُ الْعِلْمُ بِكُلِّ لِسَانٍ؛ وَأَنْ بَعْدَ زَمَنِ مَشَى إِلَى زِيَارَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَنْ فِي الطَّرِيقِ بَفْسَادِ الْأُزْمَةِ وَالرِّيَّاحِ، أَصَابَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ زِيَارَتِهِ، بِدَاءِ مَرَضِ الْعَيْنَيْنِ حَتَّى غَشِيَ الْبَصَرَ بِالْبَيَاضِ، وَأَنْ الْمُوَكَّلَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ أَخْرَجَ إِلَيْهِ جَفَرَ الْحُورِيِّ يُوحَنَّا الَّذِي كَتَبَ رُبْعَ الْإِنْجِيلِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ فِيهِ سِرًّا عَظِيمًا، وَنَضَفَ خِمَارَ الصَّالِحَةِ؛ وَاسْتَشْفَى بِهِ وَازْتَدَّ عَلَيْهِ بَصَرُهُ. ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ نُسخَةً بِالْيُونَانِي وَتَرْجَمَهُ بِاللُّسَانِ الْعَجَمِيِّ الْمُتَصَرِّفِ بِإِسْبَانِيَّةٍ - وَهِيَ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ - وَأَذْخَلَهُ فِي جَدُولٍ مِنْ تِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ بَيْتًا، وَوَضَعَ فِي كُلِّ بَيْتٍ حَرْفًا مِنَ الْعَجَمِيِّ، ثُمَّ وَضَعَ تَحْتَ الْجَدُولِ شَرْحًا بِالْعَرَبِيَّةِ.

وَلَمَّا تَرَجَمْتُ الْعَرَبِيَّ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ الشَّرْحُ؛ فَكُنْتُ أَخْذُ مِنَ الْعَجَمِيِّ الَّذِي هُوَ الْمَثَنُ - وَبِالْمَغْرِبِ يُسَمَّى بِالْأُمِّ - إِلَى أَنْ أَجِدَ عَلَامَةَ الْوَقْفِ؛ ثُمَّ أَخْذُ مِنَ الْعَرَبِيِّ - وَهُوَ الشَّرْحُ - مَا يُنَاسِبُهُ؛ فَجَاءَ الْكَلَامُ مُطَابِقًا وَمَفْهُومًا. وَهُوَ كَمَا ذَكَرَ فِي الطَّرَةِ: يَا طَالِبَ اللَّغْزِ أَقْرَنْ؛ وَالْإِفْرَانُ هُوَ لِسَتَيْنِ مُتَبَايِنَتَيْنِ يَجْمَعُهَا.

وَأَمَّا مَا تَرْجَمَ بِهِ كُلٌّ مِنْ سَبَقْنَا - وَكَانَ فِيهِمْ أَغْلَمُ مِنِّي - فَتَرْجَمَ الشَّرْحَ وَخَدَهُ وَلَا فِيهِمْ مَعْنَاهُ. وَذَكَرَ لِي أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ قَرَأَ «الْمُتَلَيَّبَةَ» بِأَنْ قَالَ: بِسْمِ

الذَّاتِ الْكَرِيمَةِ الْمُثَلَّثَةِ؛ وَذَلِكَ كَذِبٌ؛ لِأَنَّ حُرُوفَ «الْمُثَلَّثَةِ» خَمْسَةٌ وَ«الْمُثَلَّثِيَّةُ» سَبْعَةٌ.

فَفَرِحَ الْقَسِيسُ فَرَحًا عَظِيمًا بِمَا تَرَجَمْتُ، وَعَلِمَ أَنَّهُ الْحَقُّ وَأَعْطَانِي ثَلَاثَ مِائَةِ رِيَالٍ^(١) وَأَيْضًا كِتَابًا بِالْإِذْنِ لِلتَّرْجَمَةِ مِنَ الْعَرَبِيِّ إِلَى الْعَجَمِيِّ وَبِالْعَكْسِ؛ وَامْتَدَّ الْخَبَرُ عِنْدَ النَّصَارَى حَتَّى كَانُوا يَشِيرُونَ إِلَيَّ وَيَقُولُونَ: هَذَا هُوَ الَّذِي فَهَمَ الرُّقُّ الَّذِي وُجِدَ فِي الصَّوْمَعَةِ. وَقَدْ مَضَتْ نَحْوَ الْعَشْرِ سِنِينَ بَعْدَ أَنْ وَجِدَ؛ فَأَمَرَنِي الْقَسِيسُ الْكَبِيرُ أَنْ أَكْتُبَ نُسْخَةً مِنَ الرُّقِّ؛ وَبَعَثَهَا لِلْبَابَا لِمَدِينَةِ رُومَةٍ.

وَبَعْضُ مَا تَضَمَّنَ الْجُفْرُ؛ قَالَ فِي الْعَجَمِيِّ الْمَكْتُوبِ فِي الرُّقِّ شَيْئًا مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ كَمَالِ سِتَّةِ قُرُونٍ مِنْ مِيلَادِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ فِي الشَّرْحِ الْعَرَبِيِّ: الْقُرُنُ مِائَةُ سَنَةٍ:

مِنْ عَمَرَاتِ الشَّرْقَيْنِ أَتَى مَلِكٌ جَانِي بِالْإِنْشِرَازِ
عَلَى الْوُجُودِ قَائِمٌ بِتَمَامِ الْقَدْرِ قَدْ انْتَصَرَ
يَا مَالِكَا دَائِمًا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ أَيْنَ الْفِرَازِ

وَمَلِكٌ يَتَحَكَّمُ عَلَى الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَى الْغُرُوبِ
وَدَيْنٌ يَتَقَدَّمُ عَلَى مَنْ قَدْ أَمْلَأَهُ^(٢) مِنَ الْغُيُوبِ
وَالسُّرُّ يَتَفَهَّمُ بِمَا الْقَدَرُ أَعْطَاهُ^(٣) عَلَى الدُّنُوبِ

فَتَرَجَمْتُ مَعْنَى هَذِهِ الْأَبْيَاتِ. وَالْمَفْهُومُ مِنْهَا عِنْدَهُمْ أَنَّ الْمَلِكَ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ وَلِدٌ لِإِخْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً وَسِتُّ مِائَةٍ مِنْ مِيلَادِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَعِنْدِي أَنَّهُ وَلِدٌ قَبْلَ ذَلِكَ ﷺ فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَاشْتَهَرَ دِينُهُ فِي السَّادِسَةِ. وَقَدْ رَأَيْتُ نُسْخَةً وَلَادَتِهِ مُعَدَّلَةً فِي كِتَابِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي

(٢) فِي الْأَصْلِ: أَمْلَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: رِيَالًا.

(٣) فِي الْأَصْلِ: أَعْطَاهُ.

الرَّجَالِ^(١) بِتَارِيخٍ وَلَا دَتِهِ مُحَقَّقَةً ﷺ، وَفِي مَعْنَى «الْجَانِي» وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ الْمُتَرْجِمِينَ، لِأَنَّ الْأِسْمَ لَهُ مَعْنَيَانِ؛ فَأَمَّا الشَّيْخُ الصَّالِحُ الْجَبَسُ وَمَا تَرْجَمْتُ أَنَا؛ فَقُلْنَا: هُوَ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ «جَنَى»؛ وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَيَّ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾^(٢).

وَلَمَّا تَرْجَمْتُ أَنَّ «دِينَهُ يَتَقَدَّمُ عَلَى مَنْ قَدْ أَمْلَأَهُ»^(٣) مِنَ الْعُيُوبِ، فَقَالَ الْقَسِيسُ: كَيْفَ هَذِهِ التَّرْجَمَةُ؟ قُلْتُ: أَنْتَ تَعْرِفُ أَنْ تَقْرَأَ؛ وَأَتَرْجِمُ لَكَ كُلَّ كَلِمَةٍ وَخَدَهَا حَتَّى مَا أَصَابَ مَا يَقُولُهُ؛ وَقَدْ كَرِهَ ذَلِكَ كَثِيرًا؛ لِأَنَّ الْكُفَّارَ هُمُ الَّذِينَ أَمْلَوْهُ مِنَ الْعُيُوبِ وَتَقَدَّمَ دِينَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لآيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٤) وَهُوَ مَعْنَى - وَاللهُ أَعْلَمُ -: أَنَّ دِينَ النَّبِيِّ ﷺ يَتَقَدَّمُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَمْلَوْهُ مِنَ الْعُيُوبِ.

وَكَانَ فِي أَسْفَلِ الرَّقِّ مَكْتُوبٌ بِالْعَرَبِيَّةِ أَوَّلُ مَا صَدَرَ يُوحَنَّا فِي الْإِنْجِيلِ - كَتَبَهُ بَطْرِيسِي؛ قَسِيسٌ خَدِيمٌ سِسْلِيُوه - وَقَالَ: إِنَّهُ أَمَرَهُ أَنْ يَضَعَهُ فِي مَوْضِعٍ خَفِيٍّ، حَتَّى يُرِيدَ اللهُ أَنْ يُظْهِرَهُ؛ وَأَنَّهُ وَضَعَ الصَّنْدُوقَ فِي حَيْطِ الصَّوْمَعَةِ خَوْفًا مِنَ السُّلْطَانِ نَيْرُون. وَلَمَّا تَرْجَمْتُ ابْتِدَاءَ الْإِنْجِيلِ وَمَا ذَكَرَ فِيمَا كَتَبَ؛ قَالَ لِي الْقَسِيسُ: انْظُرْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ! هَلْ لَهَا مَعْنَى غَيْرُ هَذَا؟ قُلْتُ: لَيْسَ لَهَا إِلَّا هَذَا الْمَعْنَى؛ قَالَ: فَاتْرُكْ مَوْضِعَ الْكَلِمَةِ أبيض^(٥) لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْإِنْجِيلِ الَّذِي بَايَدْنَا. قُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذَا الَّذِي كُتِبَ فِي زَمَنِ سَيِّدِنَا عِيسَى أَوْ بَأَثَرِهِ فَهُوَ عِنْدِي أَصْحُ مِنَ الَّذِي عِنْدَهُمُ الْآنَ.

وَأَيْضًا كَانَ فِي الْجَفْرِ مَكْتُوبٌ؛ يَقُولُ: «مِنْ أَقْصَى الْمَغْرِبِ، عَلَى مَاءِ الْبَحْرِ، يَأْتِي سَرِيعًا»^(٦)، أَقْوَامٌ إِلَى بِلَادِ النَّصَارَى وَتَصِلُ الْحَمْلَةُ^(٧) إِلَى رُومَةٍ.

(١) هو أحمد بن صالح أبي الرجال اليميني، صفى الدين، مؤرخ، أديب زيدي، مات سنة ١٠٩٢هـ.

(٢) سورة الرحمن، آية: ٥٤.

(٣) في الأصل: أمله.

(٤) سورة التوبة، آية: ٣٣.

(٥) في الأصل: أبيضًا.

(٦) في الأصل: سريع.

(٧) في الأصل: الهملى.

وَذَكَرَ مِمَّا يَنْزِلُ بِالنَّصَارَى مِنَ الشَّرِّ وَالْخُسْرَانِ شَيْئًا كَثِيرًا، وَقَالَ عَنْ ذَلِكَ وَعَلَامَتَهَا - أَغْنِي: مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْعَلْبِ - إِذَا يَأْتِي الْوَقْتُ بِالْإِنْفِصَالِ، مَدِينَةُ الْبَحْرِ يَمْلِكُهَا الشَّرْقِيُّ بِلَا مُحَالٍ؛ وَلَمْ يَشْكُ أَحَدٌ مِمَّنْ سَمِعَ ذَلِكَ أَنَّ الشَّرْقِيَّ هُوَ سُلْطَانُ الْمَشْرِقِ وَأَنَّهُ سُلْطَانُ الثَّرَكِ نَصَرَهُ اللَّهُ.

وَقَالَ لِي الْقَسِيسُ: أَيُّ مَدِينَةٍ تُسَمَّى بِالْعَرَبِيَّةِ «مَدِينَةُ الْبَحْرِ»؟ قُلْتُ: لَا أَذْرِي! وَلَكِنْ يَظْهَرُ لِي أَنَّهَا الْبُنْدُاقِيَّةُ، لِأَنَّهَا فِي الْبَحْرِ مَبْنِيَّةٌ. فَأَعْطَانِي كِتَابَ الْجُغَرَأْفِيَّةِ بِالْعَرَبِيَّةِ - وَهُوَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي تَعْمَلُ النَّصَارَى بِالْقَالِبِ - الْمُسَمَّى بِـ «نُزْهَةِ الْمُشْتَقَاتِ فِي اخْتِرَاعِ الْأَفَاقِ»؛ وَقَالَ: انْظُرْ هَلْ تَجِدُ هَذَا الْأِسْمَ فِيهِ؟ فَقَرَأْتُهُ كُلَّهُ، فَلَمْ أَجِدْهُ.

وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَطَالِعُ الْكِتَابَ إِذْ جَاءَ بَعْضُ الْمُسَافِرِينَ مِنْ بِلَادِي إِلَى مَدِينَةِ غَرْنَاطَةِ، وَعَلِمْتُ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْفَنَادِقِ كَانُوا، فَمَشَيْتُ إِلَيْهِمْ وَالْكِتَابُ عِنْدِي، وَبَعْدَ السَّلَامِ وَالْكَلَامِ، فَتَحْتُ الْكِتَابَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ مَكْتُوبًا بِالْعَرَبِيَّةِ، دَخَلَهُمُ الْخَوْفُ الْعَظِيمُ مِنَ النَّصَارَى؛ فَقُلْتُ لَهُمْ: لَا تَخَافُوا لِأَنَّ النَّصَارَى يَكْرَهُونَنِي وَيُعْظَمُونَنِي عَلَى الْقِرَاءَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ. وَكَانَ أَهْلُ بَلَدِي جَمِيعًا يَظُنُّونَ أَنَّ الْحَرَّاقِينَ مِنَ النَّصَارَى - الَّذِينَ كَانُوا يَحْكُمُونَ وَيَخْرِقُونَ كُلَّ مَنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ، أَوْ يَقْرَأُ كُتُبَ الْمُسْلِمِينَ - يَحْكُمُونَ فِيَّ؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْخَوْفُ الْعَظِيمُ، كَانَ الْأَنْدَلُسُ يَخَافُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَلَا يَتَكَلَّمُونَ فِي أُمُورِ الدِّينِ إِلَّا مَعَ مَنْ كَانَ ذِمَّةً؛ مَعْنَاهُ: ذُو أَمْنَةٍ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ كَانُوا يَخَافُونَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ؛ وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يُحِبُّ يَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنْ دِينِ اللَّهِ، وَلَا يَجِدُونَ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ. وَلَمَّا كُنْتُ عَازِمًا عَلَى الْإِتِّقَالِ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ كُنْتُ أَعْلَمُ جَمِيعَ مَنْ أَرَادَ يَتَعَلَّمُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ فِي بَلَدِي وَغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي دَخَلْتُهَا. وَلَمَّا رَأَى الْأَنْدَلُسُ الْحَالَةَ الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا كَانُوا يَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ: لَا بُدَّ لِهَذَا مِنَ الْوُقُوعِ فِي أَيْدِي الْحَرَّاقِينَ. وَبَلَغَ الْحَالُ بِي حَتَّى إِذَا وَقَفْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ لِلْكَلَامِ، نَرَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَنْسَلُ حَتَّى نَبْقَى وَحْدِي مُنْفَرِدًا. وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَصَدْتُهُمْ وَفَتَحْتُ الْكِتَابَ إِلَيْهِمْ لِثَرِيهِمْ مَا أَنْعَمَ

الله تَعَالَى عَلَيَّ بِهِ إِذْ بَدَّلَ لِي الْخَوْفَ بِأَمْنٍ، وَالْعُقُوبَةَ وَالْإِهَانَةَ وَالذُّلَّ بِعِزَّةٍ وَكَرَامَةٍ^(١):

وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ تُضَرِّثَهُ إِنْ تَلَقَاهُ الْأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ
وَأَمَّا مَا ذَكَرَ فِي الرَّقِّ: أَنَّ عَلَامَةَ النَّحْسِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى النَّصَارَى يَكُونُ
إِذَا أَخَذَ الْمَشْرِقِيُّ مَدِينَةَ الْبَحْرِ؛ فَكُنْتُ قَدْ أَظْهَرْتُ نُسخَةَ مِنْ الرَّقِّ الْمَذْكُورِ
لِمَوْلَايَ أَحْمَدَ^(٢) - سُلْطَانِ مَرَّاكُشَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ وَاحِدٌ مِنْ قَوَادِهِ: لَوْ كُنْتُ
تُبْدِلُ الْقَافَ بِفَا لَيَقُولَ: إِنَّ مَدِينَةَ الْبَحْرِ يَمْلِكُهَا الشَّرِيفُ فَيَفْرَحُ بِذَلِكَ السُّلْطَانُ؛
قُلْتُ: لَا أَبْدِلُ شَيْئًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

تَنْبِيْهِ:

هَذَا الرَّقُّ الْقَدِيمُ كَانَ مِنْ زَمَانِ سَيِّدِنَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامَ - أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ
جِدًّا لِأَنَّ سِيسْلِيُوهُ - الَّذِي كَتَبَهُ وَوَضَعَهُ فِي الصُّومَعَةِ خَوْفًا مِنْ سُلْطَانِ زِرُونْ -
كَمَا قَالَ هُوَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ النَّصَارَى. وَجَدْتُ تَارِيخَ تَوَلِّيَّتِهِ لِلْمُلْكِ فِي سَنَةِ
عِشْرِينَ بَعْدَ سَيِّدِنَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامَ - . وَأَيْضًا كَانَ كَاتِبًا سِيسْلِيُوهُ هُوَ وَأَخُوهُ
الِلْكُتُبِ الَّتِي ظَهَرَتْ تَحْتَ الْأَرْضِ؛ وَالْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ
حَسْبَمَا كَانَتْ فِي الرَّقِّ؛ فَحَزَفُ الْقَافِ كَانَ بِنُقْطَتَيْنِ، وَهَذَا بُرْهَانٌ أَنَّ الْمَشَارِقَةَ
فِي ذَلِكَ هُمْ عَلَى الْعَهْدِ الْقَدِيمِ بِخِلَافِ الْمَغَارِبَةِ إِذْ لَا يَجْعَلُونَ لِلْقَافِ إِلَّا نُقْطَةً
وَاحِدَةً.

وَمَدِينَةُ الْبَحْرِ الْمَذْكُورَةُ؛ رَجَوْتُ أَنَّ تَعَالَى أَنْ تَكُونَ الْبُنْدُاقِيَّةُ أَوْ مَالِطَةُ لِأَنَّهَا
فِي الْبَحْرِ؛ وَلَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَضَرٌّ مِنْهَا. وَقَالَ لِي الْحَاجُّ يُوْسُفُ الْحَكِيمُ
الْأَنْدَلُسِيُّ: إِنَّ نِهَايَةَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ فِيهَا أَسَارَى خَمْسَةُ آلَافٍ وَخَمْسِمِائَةٍ؛
مِنْهُمْ خَفْسُونَ أَنْدَلُسِيًّا وَالْبَاقِي تُرْكٌ وَأَوْلَادُ عَرَبٍ.

وَكَانَ فِي الرَّقِّ أَيْضًا يَقُولُ: مِنَ الْقِبْلَةِ يَخْرُجُ الْحَاكِمُ الْعَدْلُ وَلَا يَعُودُ
انْتَهَى. انْظُرْ هَلْ يَدُلُّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؟ لِأَنَّهُ بَعْدَ افْتِتَاحِ مَكَّةَ الْمُسَرَّفَةَ - وَهِيَ
الْقِبْلَةُ -؛ فَبَعْدَ حَاجَّةِ الْوَدَاعِ خَرَجَ مِنْهَا وَلَا عَادَ إِلَيْهَا.

وَأَمَّا الْكُتُبُ الَّتِي وُجِدَتْ فِي الْعَارِ، فِي خَنْدَقِ الْجَنَّةِ فَكَانَتْ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ كِتَابًا؛ وَالْوَرَقُ - كَمَا قُلْنَا - مِنَ الْأَسْرِبِ، أَغْنَى: مِنْ رِصَاصٍ. وَنَادَى^(١)، الْقَسِيسُ الْكَبِيرُ الصُّيَاغَ وَالْمَذُوبِينَ لَعَلَّهُمْ يَصْنَعُونَ مِثْلَهَا، فَلَمْ يَفْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ بَوَجْهِ وَلَا بِحَالٍ وَلَا تَذْبِيرٍ، وَعَلِمُوا بِذَلِكَ أَنَّ الرِّصَاصَ مُزَجَّ مَعَهُ مَعْدَنٌ آخَرٌ وَلَا عَرَفُوهُ.

وَفِي وَاحِدٍ مِنَ الْكُتُبِ مِنْهَا كِتَابُ «الْحِكْمِ» لِلصَّالِحَةِ مَرْيَمَ؛ كَمَا نُقِلَ مِنْ نُسخَةِ الْفَقِيهِ الْأَكْنَحَلِ، الْمُتَرْجِمُ الْأَنْدَلُسِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَأيضًا ذَكَرَ الْكَلَامَ بِنَفْسِهِ قَائِدٌ بِمَدِينَةِ مَرَاكُشٍ يُسَمَّى فَارِسُ بْنُ الْعِلْجِ - وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ، وَكَانَ عِنْدَهُ الْكَلَامُ مَحْفُوظًا وَمَكْتُوبًا - قَالَ: كُنْتُ أَسِيرًا بِمَدِينَةِ غَرْنَاطَةَ، وَنَادُونِي إِلَى حَضْرَةِ الْقَسِيسِ الْكَبِيرِ، وَأَعْطُونِي كِتَابًا فِي وَرَقٍ مِنْ رِصَاصٍ، مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي وُجِدَتْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَقَرَأْتُهُ. وَالَّذِي قَالَ لِي، كَانَ مِثْلَ مَا كَانَ مَكْتُوبًا فِي كِتَابِ الْأَكْنَحَلِ.

وَقِيلَ: فِي الْكِتَابِ مِائَةُ حِكْمَةٍ وَوَاحِدَةٌ؛ وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ مِنْهَا؛ وَهَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ: يَأْتِي فِي الْوُجُودِ مِنْ بَعْدِ رُوحِ اللَّهِ يَصُوعُ، نُورٌ مِنَ اللَّهِ اسْمُهُ الْمَاجِي الْمُنُورُ، وَبِالْمُعْجَمِ الْبَارَقْلَيْطُسُ؛ خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ تَأْيِيدًا، وَخَاتَمُ الدِّينِ وَنُورُ الْأَنْبِيَاءِ؛ لَا نُورَ لَهُمْ دُونَهُ؛ وَلَا لِأَحَدٍ^(٢) مِنَ الْعَالَمِينَ؛ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ بَعْدِ يَسْعُدُونَ حَقَّ السَّعَادَةِ وَيَنُورُونَ حَقَّ التَّنْوِيرِ بِالتَّنْوِيرِ الْمُبِينِ مِنَ اللَّهِ؛ وَمَنْ كَفَرَ بِهِ لَا حَظَّ لَهُ فِي الْجَنَّةِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ كَافِرُونَ؛ انْتَهَى.

وَقَدْ قَالَ لِي بِثُونُسَ - حَرَسَهَا اللَّهُ - الْفَقِيرُ الْإِمَامُ الْفَقِيهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّفِيعِ الْأَنْدَلُسِيِّ^(٣): أَنَّ فِي الْحِكْمَةِ الْمَذْكُورَةِ سَبْعَةَ أَسْمَاءَ مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ:

١ - نُورٌ مِنَ اللَّهِ.

٢ - الْمَاجِي.

(٢) فِي الْأَصْلِ: لِلْأَحَدِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: وَنَادَى.

(٣) مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْسَابِ الْأَفَاضِلِ، مَرْسِي أَنْدَلُسِي مِنْ سَكَانِ تُونِسَ تُوْفِيَ سَنَةَ ١٠٥٢ هـ.

٣ - المُنُور .

٤ - البارَقْلِيْطُس .

٥ - خَاتَمُ الْمُرْسَلِيْنَ .

٦ - خَاتَمُ الدِّين .

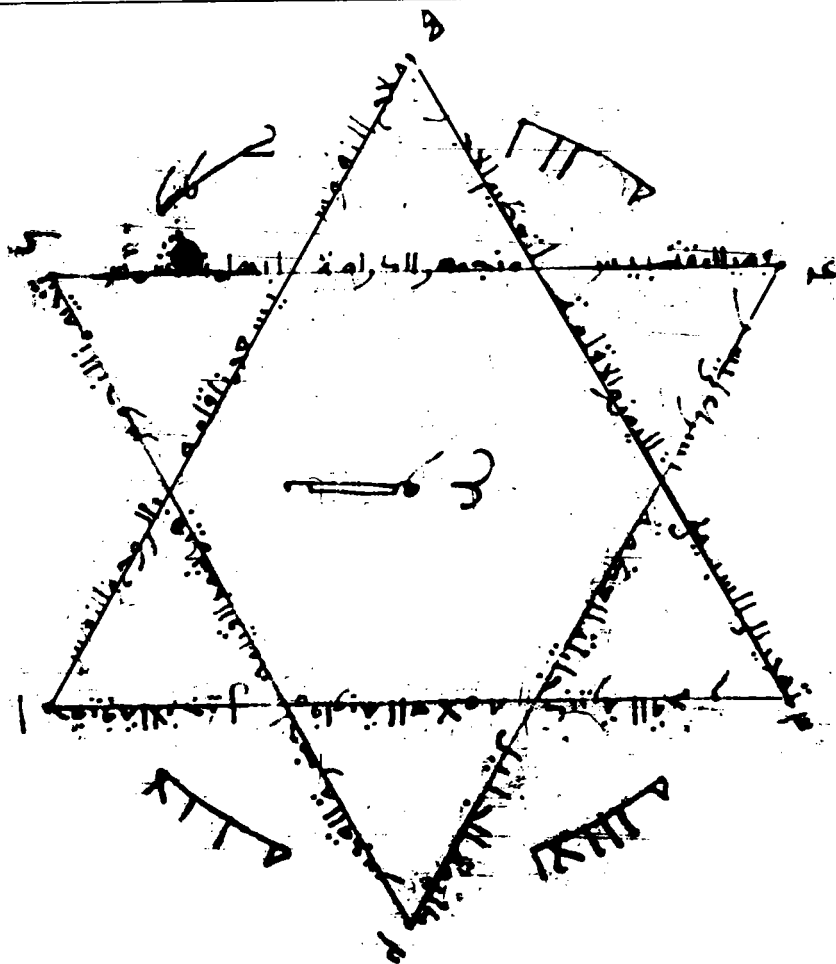
٧ - نُورُ الْأَنْبِيَاء .

وفي كِتَابٍ آخَرَ حِكْمَةٌ ذَكَرَهَا لِي الْأَكْنَحَل - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - تَدُلُّ عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُ بُزْهَانٌ عَقْلِيٌّ وَهِيَ هَذِهِ: إِنَّ مَاتَ الظَّالِمُونَ مِنْ غَيْرِ حُكْمٍ، وَعَاشَ الصَّالِحُونَ مِنْ دُونِ أَجْرِ فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَنَّ اللَّهَ حَاكِمٌ عَدْلٌ وَلَا يَظْلِمُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا.

وَأَمَّا الْكِتَابُ الَّذِي يُزَجَى فِيهِ الْخَيْرُ، حَسَبَمَا قَالَ فِي كِتَابِ «مَوَاهِبِ الثُّوَابِ» لِلصَّالِحَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَنَضَعُهُ فِي آخِرِ كِتَابِنَا هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ قَالَتْ: يَكُونُ^(١) النَّاسُ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ؛ وَهُوَ مَكْتُوبٌ «كِتَابُ حَقِيقَةِ الْإِنْجِيلِ» فِي سَبْعِ وَرَقَاتٍ^(٢) مِنْ رَصَاصٍ، بِحُرُوفٍ لَمْ تُعَرَفْ فِي زَمَانِنَا؛ وَأُخْضِرَ لِلْقَسِيسِ جَمِيعُ حُرُوفِ الْهَجَاءِ الَّتِي هِيَ الْآنَ عِنْدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا؛ وَتِلْكَ الْحُرُوفُ الَّتِي فِي الْكِتَابِ مُخْتَلِفَةٌ لِجَمِيعِ الْحُرُوفِ. وَأَمَّا الْمُتَرْجِمُونَ فَسَمَّوْهُ بِالْكِتَابِ الْأَبْكَمِ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ قِرَاءَتِهِ. وَكَانَ فِي أَوَّلِهِ خَاتَمٌ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكْتُوبًا بِالْعَرَبِيَّةِ وَمَا عَدَا الْخَاتَمَ مَكْتُوبًا بِالْحُرُوفِ الَّتِي لَمْ تُقْرَأْ إِلَى آخِرِ الزَّمَنِ فِي جَزِيرَةِ السُّبْرِ فِي الْبَحْرِ الصَّغِيرِ بِمَشْرِقِ الْبُنْدُوقِيَّةِ؛ وَالْجَذُولُ وَضَعْتُهُ بِمُحَاوَلَةٍ:

(١) فِي الْأَصْلِ: تَكُونُ.

(٢) فِي الْأَصْلِ وَرَقٍ.



- ١ - حَقِيقَةُ الْإِنْجِيلِ مَقْلُوبَةُ الْعَلَامَةِ كَبِيرَةِ الْقَدْرِ.
- ٢ - كَلِمَةُ الْجَلِيلِ جَلِيلَةُ الْعِظَامَةِ يُسْرًا عَلَى يُسْرٍ.
- ٣ - تَهْدِي إِلَى السَّبِيلِ لِلْيُمْنَى وَالْإِقَامَةِ لِتَعْظِيمِ الْآخِرِ.
- ٤ - فَهِيَ لِلْمُقْتَبِسِ مِنْ جُمْهُرِ الْكَرَامَةِ أَبْهَى مِنَ الشَّمْسِ.
- ٥ - فَلَاخٌ لِلنُّفُوسِ يَسْعُدُ مَنْ أَقَامَهُ بِالرُّوحِ وَالنَّفْسِ.
- ٦ - تُنْجِيهِ مِنَ النُّحُوسِ فِي مَشْهَدِ الْقِيَامَةِ لِحَضْرَةِ الْقُدْسِ.

وَأَيْضًا يُقْرَأُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ: مِثْلُ أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّطْرِ الْأَوَّلِ ثُمَّ بِالْخَامِسِ ثُمَّ
بِالثَّالِثِ ثُمَّ بِالرَّابِعِ ثُمَّ بِالثَّانِي ثُمَّ بِالسَّادِسِ. وَجَهٌ آخَرُ فِي الْقِرَاءَةِ: يُقْرَأُ الْأَوَّلُ ثُمَّ
الثَّانِي مِنَ الْأَسْطَارِ ثُمَّ الثَّالِثُ ثُمَّ السَّادِسُ ثُمَّ الْخَامِسُ ثُمَّ الرَّابِعُ؛ وَجَهٌ ثَالِثٌ: يُقْرَأُ

السَّطْرُ الْأَوَّلُ ثُمَّ الثَّالِثُ ثُمَّ الْخَامِسُ ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الرَّابِعُ ثُمَّ السَّادِسُ؛ ثُمَّ وَجْهٌ رَابِعٌ: يُقْرَأُ الْأَوَّلُ ثُمَّ الثَّالِثُ ثُمَّ الْخَامِسُ ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الرَّابِعُ ثُمَّ السَّادِسُ، وَهُوَ مِنْ الْعَجَبِ.

وَقَدْ قُلْتُ لِلْقَسِيسِ: نُحِبُّ نُطَالِعَ الْكِتَابَ الَّذِي لَمْ يُقْرَأْ^(١) الْمُسَمَّى بِـ «حَقِيقَةِ الْإِنْجِيلِ» لَعَلِّي نَسْتَخْرِجُ مِنْهُ شَيْئًا؛ قَالَ لِي: لَمْ يَبْلُغِ الزَّمَنُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ؛ وَعَلِمَ ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ الْمُسَمَّى بِـ «كِتَابِ مَوَاهِبِ الثَّوَابِ» لِلصَّالِحَةِ مَرْيَمَ، وَقَدْ وَجَدْتُ فِي ثَوْنِ حَرَسِهَا اللَّهُ نُسخَةً مِنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَأُخْرَى بِالْأَعْجَمِيَّةِ - أَتَى بِالنُّسخَتَيْنِ وَاحِدٌ مِنَ الْأَنْدَلُسِ كَانَ يُتَرْجَمُ - وَوَجَدْتُ فِي الْأَعْجَمِيَّةِ الْبَاطِلَ وَالْكَذِبَ مَا لَا كَانَ فِي النُّسخَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَهَذِهِ عَقِيدَةٌ فِي تَوْحِيدِ^(٢) اللَّهِ تَعَالَى؛ مِنْ وَاحِدٍ مِنَ الْكُتُبِ الْمَذْكُورَةِ؛ وَهِيَ مِنْ كِتَابِ تَصْفِيُونِ بْنِ الْعَطَّارِ فِي الذَّاتِ الْكَرِيمَةِ؛ قَالَ: الدَّوَامُ لَا يَزَالُ هُوَ فِي اللَّهِ؛ أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ؛ الَّذِي لَيْسَ لِبِدَائِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ وَلَا لِفَضِيلَتِهِ انْقِضَاءٌ؛ لَا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَاتِهِ الْوَاصِفُونَ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَائَةِ ذَاتِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ؛ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ رَأَاهُ عَيْنَ النَّظَرِ؛ مُلْكُهُ لَا يَزَالُ لِأَنَّهُ إِنْ زَالَ مُلْكُهُ مَا كَانَ اللَّهُ.

وَلَهُ صِفَاتٌ لَا تَبْدَلُ^{بِهِ}، لِأَنَّ إِنْ تَبَدَّلَتْ صِفَاتُهُ مَا كَانَ اللَّهُ. لَهُ جَلَالَةٌ لَا تُذَرُّ، لِأَنَّهَا إِنْ أَذَرَكْتَ كَانَ نُفْصَانًا بِهِ؛ لَهُ عَظَمَةٌ لَا تُنْفَكُ، لِأَنَّهَا إِنْ انْفَكَّتْ عَظَمَتُهُ أَتَاهُ النُّفْصَانُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ وَاسِعٌ فِيهِ أَبَدًا.

هُوَ ذُو عِلْمٍ ذُو جَهْلِ؛ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ. وَهُوَ ذُو قُوَّةٍ ذُو نُفْصَانٍ. وَهُوَ ذُو رَحْمَةٍ وَفَضْلِ ذُو امْتِنَانٍ. هُوَ ذُو عِلْمٍ قُسْطٍ لَا يَفْنَى أَبَدًا. لَيْسَ لَهُ اخْتِيجَاجٌ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، لِيَزْدَادَ سُلْطَانُهُ وَلَيْسَ دُونُهُمْ لَهُ نُفْصَانٌ فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي مُلْكِهِ. وَكُلُّ مَا خَلَقَ خَلَقَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ذُو اخْتِيجَاجٍ.

الْمَوْجُودَاتُ كَوْنٌ وَهُوَ الْمُكُونُ؛ لَوْ أَمَرَ الدُّنْيَا بِالْعَرَقِ^(٣) بِمَنْ عَلَيْهَا لَدَامَتْ فِي غَرَقٍ مَا دَامَ مُلْكُهُ، وَلَا يَزَالُ وَلَا تُصِيبُ مُسْتَقَرًّا لَهَا فِي مَوْضِعٍ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: تَوْحِدَ.

(١) فِي الْأَصْلِ يَقْرَأُ.

(٣) فِي الْأَصْلِ: الْغَرَقُ.

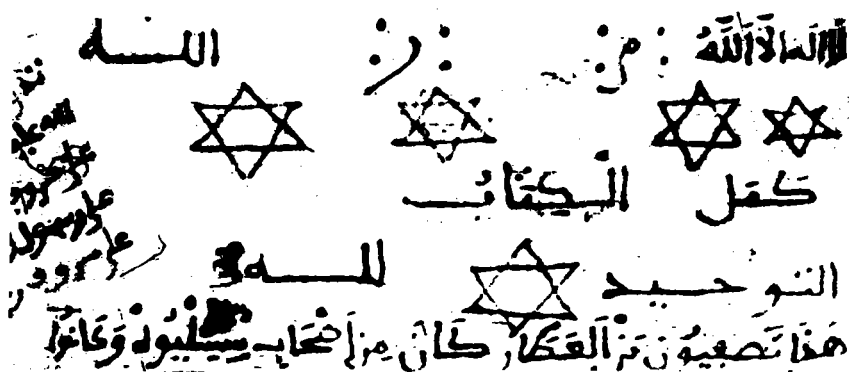
هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ. هُوَ مُؤَانِسٌ وَلَيْسَ مُؤَانَسَ لَهُ. هُوَ دُونَ عِلْمٍ مَا دُونَ اخْتِيجَاجٍ مِنْ غَيْرِهِ. هُوَ دُونَ رَحْمَةٍ مَا دُونَ نُقْصَانٍ. هُوَ أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ: لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، إِلَهٌ لَيْسَ شَيْءٌ مِثْلَهُ.

لَيْسَ هُوَ كَمِ وَلَا عَدَدٌ، وَلَا فَضْلٌ، وَلَا فَوْقَ وَلَا تَحْتَ، وَلَا وَهْمٌ وَلَا خَيَالٌ، وَلَا كَلَامٌ وَلَا لُغَةٌ، وَلَا صُنْعٌ مِثْلَ خَيَالِنَا.

هُوَ فَوْقَ الْعُقُولِ لَيْسَ يوصَفُ؛ لَهُ الْجَلَالُ وَالْكَمَالُ؛ وَذَلِكَ هُوَ فِي وَحْدَانِيَّتِهِ، لَا يَفْهَمُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ. لَهُ الْعَظَمَةُ وَالْعِبَادَةُ وَالشُّكْرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ وَالْإِيمَانُ مَا دُونَ ذَلِكَ خُسْرَانٌ؛ انْتَهَى.

وَكَانَ فِي الْكِتَابِ هَذِهِ الْحُرُوفُ وَالْخَوَاتِمُ:

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: م: ر: الله.



هَذَا تَصْفِيُوتُ بْنُ الْعَطَّارِ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ سَيْسَلِيُوتِ وَكَانُوا - كَمَا قُلْنَا عَلَى أَثَرِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَيُظْهَرُ مِنْ كَلَامِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الشَّرِكِ الَّذِي تَعْتَقِدُهُ النَّصَارَى فِي هَذَا الزَّمَنِ، لِأَنَّهُمْ يُصَدِّرُونَ فِي ذِكْرِ الْأُلُوهِيَّةِ بِالثَّلَاثِ، وَأَيْضًا سَيْسَلِيُوتُ مَا قَالَ فِي أَوَّلِ كِتَابِهِ إِلَّا بِاسْمِ الذَّاتِ الْكَرِيمَةِ الْمُتَلَسِّبَةِ؛ وَالْآنَ يَقُولُونَ: بِسْمِ الْأَبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ إِلَهٌ وَاحِدٌ؛ تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا.

وَلَمَّا أَرَدْتُ الْقُدُومَ إِلَى مَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةِ، لِنَمْشِي إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، مَشَيْتُ إِلَى الْقَسْبِيسِ وَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي عَزَمْتُ عَلَى الْقُدُومِ إِلَى بَلَدِي؛ وَأَنْ أَبِي كَتَبَ لِي أَنْ نَمْشِيَ إِلَيْهِ وَأَنْ طَاعَةَ الْوَالِدَيْنِ وَاجِبَةٌ.

قَالَ لِي: فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ وَاجِبَةٌ وَفِي بَعْضِهَا لَا تَجِبُ.

قُلْتُ: لَا بُدَّ لِي مِنَ الْقُدُومِ، وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ سَنَدًا لِلْأَنْدَلُسِ لِأَنَّهُمْ دُلَالٌ عِنْدَ النَّصَارَى الْقَدَمَاءِ.

قَالَ لِي: اَعْلَمْ أَنَّنِي مِنْ جَانِبِهِمْ فِي كُلِّ زَمَنٍ، وَحِينَ قَامُوا عَلَى السُّلْطَانِ كُنْتُ أَنَا قَاضِي الْقَضَا بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ، وَجَاءَ إِلَيْهَا أَخُو السُّلْطَانِ وَقَبَضَ مِنْ أَعْيَانِ^(١) الْأَنْدَلُسِ بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ مَائَةً وَأَرْبَعِينَ رَجُلًا وَقَتْلَهُمْ؛ كُلُّ ذَلِكَ لِيَأْخُذَ أَمْوَالَهُمْ؛ وَكَانَ الْحَقُّ أَنْ يَتْرَكَهُمْ لِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا مِنَ الْقَوَامِ. وَأَصْحَابُ الْمَالِ وَالنِّعْمَةِ لَا يَسْعَوْنَ إِلَّا فِي أُمُورِ الْعَافِيَةِ لِيَتَنَعَّمُوا فِيمَا عِنْدَهُمْ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ؛ وَلَكِنْ أَنْتُمْ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَيَكُنْ عَادَةٌ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ!.

قُلْتُ: مَا هِيَ؟

قَالَ: إِنَّكُمْ لَا تَمْشُونَ إِلَّا بِغَضِّكُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَلَا تُغْطُونَ بَنَاتِكُمْ لِلنَّصَارَى الْقَدَمَاءِ، وَلَا تَتَزَوَّجُونَ مَعَ النَّصْرَانِيَّاتِ الْقَدِيمَاتِ^(٢).

قُلْتُ لَهُ: لِمَاذَا تَتَزَوَّجُ النَّصْرَانِيَّاتِ الْقَدِيمَاتِ^(٢)؟ وَكَانَ بِمَدِينَةِ إِنْتَقَرِ رَجُلٌ مِنْ قَرَابَتِي عَشِقَ بَنَاتًا نَصْرَانِيَّةً؛ فَفِي الْيَوْمِ الَّذِي مَشَوْا فِيهِ بِالْعَرُوسَةِ إِلَى الْكَنِيسَةِ لِيَتِمَّ النِّكَاحُ اخْتَجَّ يُلْبِسُ الْعُرُوسَ الزَّردَ الْمُهَنْدَ مِنْ تَحْتِ الْحَوَائِجِ، وَأَخَذَ عَنْدَهُ سَيْفًا لِأَنَّ قَرَابَتَهَا حَلَفُوا أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُ فِي الطَّرِيقِ؛ وَبَعْدَ أَنْ تَزَوَّجَهَا بِسِنِينَ، لَمْ يَدْخُلْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ قَرَابَتِهَا بَلْ يَتَمَنُونَ مَوْتَهُ وَمَوْتَهَا؛ وَالنِّكَاحُ لَا يَكُونُ لِيَتَّخِذَ بِهِ الْإِنْسَانُ أَغْدَاءَ بَلْ أَحْبَابًا وَقَرَابَةً!.

قَالَ لِي: وَاللَّهِ إِنَّكَ قُلْتَ الْحَقَّ.

وَتَوَدَّعْنَا بِالْخَيْرِ وَدَهَبْتُ. وَمَا ذَكَرْتُ لَهُ عَنِ الْأَنْدَلُسِيِّ وَالنَّصْرَانِيَّةِ كَانَتْ صَحِيحًا؛ وَأَسْلَمْتُ عَلَى يَدِهِ وَحَسُنَ إِسْلَامُهَا غَايَةَ الْحُسْنِ، وَأَسْلَمْتُ عَلَى يَدِهَا أُمُّهَا عَجُوزَةً.

(١) فِي الْأَصْلِ: أَعْيَنَ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: الْقَدَمَا.

البَابُ الثَّانِي

فِي قُدُومِنَا إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا اتَّفَقَ لَنَا
عِنْدَ خُرُوجِنَا مِنْ عِنْدِ النَّصَارَى

اَعْلَمَ - رَحِمَكَ اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّ الْبِلَادَ الَّتِي هِيَ عَلَى حَاشِيَةِ الْبَحْرِ مِنْ بِلَادِ
الْأَنْدَلُسِ، وَأَيْضًا فِيمَا لَهُمْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ لِلنَّصَارَى فِيهَا مِنَ الْحِزْصِ
وَالْبَحْثِ، فِي مَنْ يَرِدُ عَلَيْهَا مِنَ الْغُرَبَاءِ شَيْئًا كَثِيرًا، كُلُّ ذَلِكَ لِئَلَّا يَذْهَبَ أَحَدٌ أَوْ
يَجُوزَ عَلَيْهِمْ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَهَمَّ نِي الْأَمْرُ كَثِيرًا فِي كَيْفِيَّةِ الْخُرُوجِ مِنْ
بَيْنِهِمْ. وَرَكِبْتُ الْبَحْرَ فِي بَلَدٍ يُسَمَّى بِمَرْسَى شَتِّ مَرِيَا^(١)؛ وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنْ
بَلَدِي مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْدِّينِ، وَمَشَى مَعِيَ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَسَبَّلَ
نَفْسَهُ، وَأَهْلُ الْقَارِبِ لَا يَشْكُونَ فِينَا بِأَنَّا مِنْهُمْ؛ فَقَطَعْنَا الْبَحْرَ فِي يَوْمَيْنِ، وَنَزَلْنَا
فِي بَلَدٍ يُسَمَّى بِالْبُرَيْجَةِ - هُوَ لِلنَّصَارَى - وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَدِينَةِ مَرَاكُشَ إِلَّا نَحْوُ
الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ لِلْمَاشِيِ الْمُتَوَسِّطِ.

وَتَعَجَّبْتُ مِنَ الْمَنْعِ الَّذِي فِي بُنْيَانِ سُورِهَا؛ هُوَ أَسَاسُهُ عَلَى حَجَرٍ صَلْدٍ
وَسِعَتْهُ ثَلَاثَةُ عَشَرَ ذِرَاعًا؛ وَلَا يُبَالِي بِكُورِ الْمَدَافِعِ مِنْ إِنْقَانِهِ وَغُلْظِهِ؛ حَتَّى
شَاهَدْتُ ثَلَاثَةَ مِنَ الْفُرْسَانِ بِخَيْلِهِمْ يَذْفَعُونَ خَيْلَهُمْ جُمْلَةً عَلَى السُّورِ، وَلَا
يَخَافُونَ الْوُقُوعَ مِنْهُ.

وَلَمَّا دَخَلْنَا؛ سَأَلْنَا الْقُبْطَانُ: مَا سَبَبُ قُدُومِكُمْ؟

قُلْتُ لَهُ: وَقَعَ لَنَا شَيْءٌ مِنَ التَّغْيِيرِ مَعَ أَنَّاسٍ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَجِئْنَا إِلَى حُرْمَتِكُمْ؛

قَالَ: مَرْحَبًا بِكُمْ.

قُلْتُ: أَحِبُّ مِنْكَ أَنْ تَأْذَنَ لَنَا فِي رُجُوعِنَا إِلَى بِلَادِنَا مَهْمَا أَرَدْنَا؛

قَالَ: أَذْنْتُ لَكُمْ.

وَنَزَلْنَا عِنْدَهُمْ وَاشْتَرَيْتُ حِصَانًا مِنْ أَحْسَنِ الْخَيْلِ، وَصِرْتُ مِنْ فُرْسَانِهِمْ. وَكُنْتُ أَحِبُّ أَشْتَرِي آخَرَ لِصَاحِبِي وَلَمْ يَتَيَسَّرْ.

وَتِلْكَ «الْبُرَيْجَةُ» فِي رُكْنٍ مِنَ الْأَرْضِ؛ وَالْبَحْرُ دَائِرٌ بِهَا مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنَ الْبَلَدِ حَتَّى تَتَقَدَّمَ الْفُرْسَانُ وَيَقْتَسِمُونَ وَيَجُوزُونَ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ الْبَسَاتِينَ مَعَ «الْبُرَيْجَةِ»؛ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّصَارَى أَنْ يَجُوزَ الْحَدَّ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الْفُرْسَانُ أَصْحَابُ التَّوْبَةِ لِلْحُرْسِ؛ وَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْنَا: نَخْرُجُ مِنْ «الْبُرَيْجَةِ»، وَنَجْلِسُ بَيْنَ الْبَسَاتِينَ، وَنَسْتَخْفِي فِيهِ إِلَى اللَّيْلِ، وَنَذْهَبُ إِلَى مَدِينَةِ «أَزْمُور» هِيَ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى ثَلَاثَةِ فَرَاسِخٍ مِنْ «الْبُرَيْجَةِ» - وَقُلْتُ لِصَاحِبِي: إِذَا قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْنَا أَنَّ النَّصَارَى يَتَّصِلُونَ بِنَا، فَوَاحِدٌ مِنَّا يَسْتَغْمِلُ نَفْسَهُ أَنْ الْجِنَّ أَصْرَعَهُ، وَيُخْرِجُ مِنْ فَمِهِ بِحَلِيدٍ شَيْنًا مِنَ الدَّمِ، لَعَلَّنَا نَنْجُو إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْكَيْدِ.

فَخَرَجْنَا إِلَى بَيْنِ الْبَسَاتِينَ وَاخْتَفَيْنَا هُنَالِكَ؛ ثُمَّ إِنَّ صَاحِبِي مَشَى إِلَى بُسْتَانٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ، وَبَقِيَ هُنَالِكَ إِلَى قَبْلِ غُرُوبِ الشَّمْسِ بِقَلِيلٍ؛ وَأَنَا فِي أَشَدِّ تَغْيِيرٍ؛ وَالْفُرْسَانُ تَأْتِي إِلَى الْبَلَدِ؛ ثُمَّ جَاءَ صَاحِبِي قُلْتُ لَهُ: مَا السَّبَبُ حَتَّى قَعَدْتَ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: كُنْتُ أَتَكَلَّمُ مَعَ صَاحِبِ بُسْتَانٍ، حَتَّى عَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ جِئْتُ مِنْ عِنْدِهِ؛ فَبَيْنَمَا كُنْتُ بِالْغَيْطِ أُدْبِرُ كَيْفَ الْعَمَلُ إِذْ سَمِعْتُ الْبَوَابَ يَزْمُرُ^(١) مِزْمَارًا لَهُ يُنَادِي النَّاسَ قَبْلَ سَدِّ الْبَابِ. فَاشْتَغَلْتُ أَقْرَأَ

(١) فِي الْأَصْلِ: يَزْمُور.

سُورَةَ يَسْ؛ وَالزَّمْرَ فِي زِيَادَةٍ. قُلْتُ لِصَاحِبِي هَذَا الزَّمْرُ هُوَ عَلَيْنَا، قَالَ لِي اْعْمَلْ حِيلَةً لِإِضْرَاعِ لَأَنَّ النَّاسَ جَاؤُوا^(١) إِلَيْنَا. قُلْتُ لَهُ: لَا اْعْمَلْ ذَلِكَ؛ مِمَّا كَانَ عِنْدِي مِنَ الْغَيْظِ وَالتَّغْيِيرِ عَلَيْهِ؛ قَالَ: أَنَا اْعْمَلْ؛ قُلْتُ: افْعَلْ؛ وَأَنَا أَتَكَلَّمُ عَلَيْكَ مَعَهُمْ، فَأَخْرَجَ شَيْئًا مِنَ الدَّمِ وَرَمَى بِنَفْسِهِ فِي الْأَرْضِ.

فَخَرَجْتُ إِلَى جِهَةِ الرُّجَالِ وَأَنَا أُشِيرُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَأْتُوا إِلَيَّ؛ فَلَمَّا وَصَلُوا قَالُوا مَا السَّبَبُ فِي جُلُوسِكُمْ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ؟ وَالْبَوَابُ يُنَادِي عَلَيْكُمْ؛ أَمَا تَخَافُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَأْخُذُوكُمْ أَسَارَى؟

قُلْتُ فِي نَفْسِي مَا نُفْتَشُ إِلَّا هُمْ. قُلْتُ لَهُمْ: كُنْتُ بَعَثْتُ صَاحِبِي يَشْتَرِي خِيَارًا، وَلَمَّا تَعَطَّلَ جِثْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى وَجَدْتُهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، مَا اسْتَطَعْتُ حَمْلَهُ وَخِذِي لِأَنَّهُ يَضْطَرُّ فِي الْأَرْضِ.

فَوَصَلُوا إِلَى نَاحِيَّتِهِ وَرَأَوْهُ بِالدَّمِ فِي وَجْهِهِ وَعُنُقِهِ وَهُوَ يَضْطَرُّ بِيَدَيْهِ. قَالُوا: هَذَا يَمُوتُ؛ وَكَانَ وَاحِدًا مِنَ الَّذِينَ جَاؤُوا صَاحِبَ الْبُسْتَانِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ صَاحِبِي فِي الْكَلَامِ.

وَوَصَلَ الْخَبَرُ لِلْقُبْطَانِ بِأَمْرِنَا وَظَنُوا وَقَالُوا إِنَّنَا هَارِبُونَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ؛ وَأَمَرَ أَنْ يَنْظُرُوا هَلْ الْحِصَانُ فِي الدَّارِ؟ قَالُوا: هُوَ فِيهِ وَخَوَائِجُهُمْ أَيْضًا. قَالَ: لَوْ كَانَا يَهْرَبَانِ لَمْ يَتْرُكَا الْحِصَانَ وَهَذَا أَمْرٌ نَزَلَ بِهِمَا.

وَالْتَمَّ^(٢) جَمِيعُ النَّاسِ بِحَضْرَةِ الْقُبْطَانِ، وَالرُّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَنَا قَالُوا: إِنَّ هَذَا يَمُوتُ؛ وَاتَّفَقُوا أَنْ يَمْشِيَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يُنَادِي الْقَسِيسَ لِيُثَبِّتَهُ وَيَسْتَفْرِزَهُ مِنَ الدُّنُوبِ، لِيَمْشِيَ مَغْفُورًا مِنْهُ إِلَى الْجَنَّةِ؛ فَمَشَى وَاحِدٌ وَأَعْلَمَ الْقُبْطَانُ بِالْأَمْرِ، فَجَاءَ الْقَسِيسُ وَهُوَ عَلَى بُعْدٍ مِنْهُ يُثَبِّتُهُ.

قُلْتُ لِلْقَسِيسِ أَظُنُّ أَنَّهُ مَضْرُوعٌ مِنَ الْجِنِّ؛ فَاقْرَأْ عَلَيْهِ أَوَّلَ مَا ذَكَرَ يُوحَنَّا فِي الْإِنْجِيلِ لِيَذْهَبَ عَنْهُ الْجِنُّ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: وَالتَمَت.

(١) فِي الْأَصْلِ: جَاءَتْ.

فَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِنْجِيلِ، وَذَهَبَ الْجِنُّ وَالشَّيْطَانُ، وَظَهَرَتْ لِلْقِرَاءَةِ الْبَرَكَهَ
وَالْبُرْهَانَ، وَشَهَرَتْ هُنَالِكَ وَلَايَةُ الْقَسِيسِ؛ وَضَحِكَ مِنْهُ الْجِنُّ مَعَ إِبْلِيسَ، وَبَرَأَ
الْمَرِيضُ فِي الْحِينِ.

وَأَخَذَهُ اثْنَانِ مِنْهُمْ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ تَحْتِ إِبْطِهِ، وَصَارَ يَمْشِي مَعَهُمْ، حَتَّى
صَعَدَ عَلَى حَايِطٍ نَازِلٍ، وَهُمَا مَعَهُ فَأَطْرَحَ نَفْسَهُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا عِنْدَ هُبُوطِهِ مِنْهُ
كَأَدَّ أَنْ يُوقِعَهُ.

وَدَخَلْنَا الْبَلَدَ وَجَمِيعُ النَّاسِ مَعَ الْقُبْطَانِ وَحَكُوا لَهُ كُلُّ مَا طَرَأَ، وَأَنَّ
الْمَرِيضَ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَمُوتُ بَرَأَ بِبَرَكَهَ مَا قَرَأَ عَلَيْهِ الْقَسِيسُ. وَمَشِينَا إِلَى
الدَّارِ، وَجَاءَ مِنْ أَكَابِرِهِمْ يَنْصُحُونَنِي أَنْ لَا تَتْرُكُهُ يَزْكُبُ الْحِصَانَ، وَلَا يَطْلُعَ
عَلَى السُّورِ، لِئَلَّا يَضْرِعُهُ الْجِنُّ. ثُمَّ جَاءَ الطَّبِيبُ - وَكَانَتْ لَهُ صَنَائِعُ غَيْرُ
الطَّبِّ كَثِيرَةً؛ فَكَانَ يَصْقِلُ السَّكَائِينَ، وَيُرْكَبُ الرِّمَاحَ، وَأُظْنَهُ يَخْلُقُ، وَيَبْطَارُ
الْخَيْلِ.

فَقَالَ الْحَكِيمُ: مَا هَذَا الَّذِي أَصَابَهُ؟ فَحَكَيْنَا لَهُ؛ وَبَقِيَ مُتَحِيرًا مَاذَا يَأْمُرُنَا بِهِ
مِنَ الْعَمَلِ لِلْعَلِيلِ.

فَقَالَ: اجْعَلْ عَلَيْهِ حَوَايِجَ لَعَلَّهُ يَغْرَقُ.

فَشَكَرْتُهُ عَلَى حِكْمَتِهِ وَوَضَعْنَا الْحَوَايِجَ عَلَيْهِ. فَلَمَّا ذَهَبُوا جَمِيعًا، وَلَمْ
يَسْمَعْ الْمَرِيضُ أَحَدًا أَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنْ تَحْتِ الْحَوَايِجِ، وَقَالَ: كَيْفَ حَالُنَا يَا
سَيِّدِي؟

قُلْتُ لَهُ: غَطَّ رَأْسَكَ مَا عِنْدَنَا إِلَّا الْخَيْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ وَذَهَبَ التَّوْمُ عَنَّا فِي
الْلَيْلَةِ كُلِّهَا.

وَيَوْمَ آخَرٍ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَطَفَ بِنَا، وَبَقِيَ الْمَرِيضُ سَالِمًا، وَنَحْنُ
نَتَذَبَّرُ كَيْفَ الْعَمَلُ لِتَقْضِي الْغَرَضَ، حَتَّى نَخْرُجَ مِنْ بَيْنِ الْكُفَّارِ. قُلْنَا: لَوْ كَانَ
وَاحِدٌ مِنَّا وَحْدَهُ، كَانَ يُمَكِّنُ الْهُرُوبَ وَالْخُرُوجَ، بَأَن يَخْتَفِيَ وَيَهْرُبُ، وَالْحَالُ
لِلْإِثْنَيْنِ صَعْبٌ.

وَكَاثَتْ سَفِينَةُ عَازِمَةً عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ؛ قُلْنَا: نَزِمِي الْقُرْعَةَ
مَنْ يَزِجُ مَنَا فِي هَذِهِ السَّفِينَةِ؟ فَرَمَيْنَاهَا وَجَاءَتْ فِيَّ، وَكَانَ النَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ^(١)
بَنَا، وَيَقُولُونَ إِنَّا كُنَّا نُرِيدُ الْهُرُوبَ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ.

فَمَشَيْتُ إِلَى الْقُبْطَانِ وَقُلْتُ لَهُ: أَحِبُّ أَزْجَعَ إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ فِي هَذِهِ
السَّفِينَةِ، وَإِذَا اسْتَعْرَضْتَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ، فَأَعْطِنِي زِمَامًا بِهِ أَبْعَثُهُ إِلَيْكَ.

قَالَ: وَصَاحِبُكَ يَمْشِي مَعَكَ؟

قُلْتُ لَهُ: أَرَادَ الْفُؤُودُ هُنَا وَأَنْتَ تَرُدُّ بِأَلْكَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ. فَخَرَجْتُ عَشِيَّةً
وَأَوْجَدْتُ مَا يُخْتِاجُ مِنَ الطَّعَامِ فِي السَّفَرِ، فَوَجَدْتُ بِقُرْبِ بَابِ الْبَلَدِ قَارِبًا
صَغِيرًا؛ فَقَالَ: ازْكَبْ فَأَعْطِيَهُ الطَّعَامَ وَالْحَوَاجِ وَقُلْتُ لَهُ: إِذَا خَرَجَ التَّاجِرُ الَّذِي
كَانَ يَمْشِي مِنْ «الْبَرْنَجَةِ»؛ نَزْكَبُ الْقَارِبَ الصَّغِيرَ لِيُبَلِّغَنَا إِلَى السَّفِينَةِ الْكَبِيرَةِ.
فَجَلَسْنَا هُنَاكَ نَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتَعَطَّلَ التَّاجِرُ حَتَّى يَنْسَدَّ الْبَابُ.

ثُمَّ قَالُوا لِصَاحِبِي: ادْخُلْ عِنْدَ سَدِّ الْبَابِ.

قُلْتُ لَهُمْ: دَعُوهُ مَعِيَ حَتَّى يَخْرُجَ التَّاجِرُ.

قَالُوا: نَعَمْ يَقْعُدُ.

فَاطْلَمَ اللَّيْلُ إِلَى أَنْ صَلَّيْنَا الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، ثُمَّ دَعَوْنَا اللَّهَ أَنْ يُرْشِدَنَا وَيَسْتُرَنَا
مِنْ أَعْدَائِنَا. قُلْنَا: هَذَا وَقْتُ الْخَيْرِ فَتَذَهَبُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِلَى «أَزْمُور».

قُلْتُ لِصَاحِبِي: مَا ظَهَرَ لَكَ أَنْ نَضْعَ فِي ذِهَابِنَا.

قَالَ: كَيْفَ مَا ظَهَرَ لَكَ.

قُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبِي الطَّرِيقُ الْقَرِيبُ هُوَ مِنْ هُنَا إِلَى «أَزْمُور». قُلْتُ: وَمِنْ
الْمُمْكِنِ إِنَّا إِذَا شَرَعْنَا فِي الطَّرِيقِ، رُبَّمَا يَخْرُجُ التَّاجِرُ الَّذِي يَمْشِي فِي السَّفِينَةِ،
وَإِذَا طَلَبُوا عَلَيْنَا لَمْ يَجِدُونَا وَيَتَّبِعُونَا كَمَا هِيَ مِنْ عَادَتِهِمْ وَيَذَرُكُونَنَا بِالْخَيْلِ.

قَالَ: كَيْفَ الْعَمَلُ؟

(١) فِي الْأَصْلِ: وَكَانَتِ النَّاسُ تَتَكَلَّمُ بَنَا وَتَقُولُ.

قُلْتُ: هَذَا طَرِيقُ «أَزْمُوز» هُوَ هَذَا الشَّمَالِي عَلَى حَاشِيَةِ الْبَحْرِ؟
قَالَ: نَعَمْ.

قُلْتُ: نَمْشِي^(١) عَلَى حَاشِيَةِ الْبَحْرِ الْيُمْنَى إِلَى غَدٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى،
نَمْشِي إِلَى «أَزْمُور».
قَالَ: عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ!.

فَمَشِينَا وَبَعْدَ سَاعَةٍ أَوْ أَقَلِّ، سَمِعْنَا مَكْحَلَةً لَعَلَّنَا نَفِيقُ مِنَ الثُّومِ إِنْ كُنَّا
نَائِمِينَ. فَمَشِينَا اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي بِلَادِ الْأَسَدِ إِلَى انْشِقَاقِ الْفَجْرِ أَخْلَوْا
الْمَدْفَعِ الْكَبِيرِ، وَهِيَ عَلَامَةٌ عِنْدَهُمْ إِذَا أَخْلَوْا ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ عَنِ
الْخُرُوجِ مِنَ الْبِلَادِ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُمْ مَا خَرَجُوا إِلَّا فِي طَلَبِنَا. فَاتَّفَقْنَا أَنْ نَدْخُلَ^(٢)
فِي وَسْطِ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَنَجْلِسَ هُنَالِكَ إِلَى اللَّيْلِ؛ وَكُنَّا نَسْمَعُ حِسَّ الْبَارُودِ
الْكَثِيرِ. ثُمَّ يَسُوءُ مِنَّا وَوَلَّوْا خَائِبِينَ.

وَسَبَبَ رُجُوعَهُمْ أَنْ قَايَدَ «أَزْمُوز»، لَمَّا سَمِعَ حِسَّ الْمَدْفَعِ الْكَبِيرِ عِنْدَ
الصُّبْحِ، عَلِمَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّصَارَى هَرَبَ مِنْ عِنْدِهِمْ؛ فَأَمَرَ فِي الْحِينِ لِلْفَكَاكِ
أَنْ يَمْشِيَ إِلَى «الْبُرَيْجَةِ» لِيَتَكَلَّمَ مَعَ الْقُبْطَانِ فِي شَأْنِ أُسِيرٍ كَانَ عِنْدَهُ وَيَأْتِي
بِالْخَبَرِ. فَلَمَّا مَشَى التَّقَى بِالنَّصَارَى فِي الْفَخَصِ وَسَأَلَهُ تُرْجُمَانُ الْقُبْطَانِ عَنْ
نَصْرَانِيَيْنِ هَلْ رَأَاهُمَا؟ قَالَ لَهُ: نَعَمْ هُمَا عِنْدَنَا مِنَ الصُّبْحِ. فَلَمَّا بَلَغَ الْخَبَرُ
لِلْقُبْطَانِ، وَهُوَ مَعَ جُنْدِهِ، فَكَانَ يَقْبِضُ بِيَدِهِ شَعْرَ لِحْيَتِهِ وَيَنْتَفُفُّهَا وَيَزِمِي فِي
الْأَرْضِ. وَالْفَكَاكُ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ لِيَنَاسُوا وَيَزْجِعُوا. فَفَقَنْطُوا وَوَلَّوْا خَائِبِينَ وَنَحْنُ
جَلَسْنَا بَيْنَ الْأَشْجَارِ إِلَى اللَّيْلِ.

وَكَانَ الْحَرُّ الشَّدِيدُ وَنَحْنُ بِالْعَطَشِ سَائِرِينَ، فَوَجَدْنَا عَيْنًا مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ
فَشَرَبْنَا وَبَشْنَا إِلَى الصُّبْحِ. وَكُنَّا سِرْنَا فِي اللَّيْلِ كَثِيرًا قَبْلَ وُجُودِ الْمَاءِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ
يَزِمُنِ التَّقَى بِمَرَائِشِ بَرَجٍ مِنْ أَوْلَادِ الْوَلِيِّ سَيِّدِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي الْقَاسِمِ؛ وَسَأَلْنَا
عَنْ حَالِنَا وَهَرُوبِنَا مِنَ «الْبُرَيْجَةِ» إِلَى جِهَةِ «طَيْطِ»؛ وَهُوَ بَلَدٌ خَالٍ كَانَ

(١) فِي الْأَصْلِ: نَمَشُوا.

(٢) فِي الْأَصْلِ: نَدَخَلَا.

لِلْمُسْلِمِينَ؛ وَذَكَرْنَا لَهُ عَيْنَ الْمَاءِ الَّتِي^(١) وَجَدْنَاهَا فِي اللَّيْلِ فَقَالَ لِلنَّاسِ الْحَاضِرِينَ: تِلْكَ الْبِلَادُ نَعْرِفُهَا كُلَّهَا وَلَيْسَ فِيهَا مَاءٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا فِي الْآبَارِ الْغَارِقَةِ.

وَبَعْدَ أَنْ تَتَعَمَّنَا بِالْمَاءِ وَصَلَيْنَا الصُّبْحَ مَشِينَا فِي طَلَبِ «أَزْمُوز»؛ وَبَسَبَ الصَّحْبُ لَمْ نَرَ الشَّمْسَ حَتَّى كَانَتْ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ ثُمَّ سِرْنَا نَطْلُبُ الْمَاءَ^(٢) وَنَجِدُ آبَارًا غَارِقَةً يَابِسَةً؛ ثُمَّ اسْتَظَلَلْنَا^(٣) بِشَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، وَسَمِعْنَا حِسَّ الْبَحْرِ وَوَلَّيْنَا إِلَيْهِ لَعَلَّنَا نَجِدُ مَاءً فَلَمْ نَجِدْ شَيْئًا فِي حَاشِيَةِ الْبَحْرِ لِلشُّرْبِ. ثُمَّ مَشِينَا عَلَى طَرِيقٍ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ مَاشٍ إِلَى «أَزْمُوز»؛ وَبَعْدَ نِصْفِ اللَّيْلِ بَلَّغْنَا إِلَى بَسَاتِينِ «الْبُرْنِجَةِ». ثُمَّ جُزْنَا وَتَرَكْنَاهَا مِنْ وَرَائِنَا، وَسِرْنَا عَلَى حَاشِيَةِ الْبَحْرِ، إِلَى أَنْ أَصْبَحَ عَلَيْنَا، وَنَحْنُ فِي الْأَمَانِ مِنْ «الْبُرْنِجَةِ».

ثُمَّ صَعَدْنَا عَلَى جَبَلٍ وَرَأَيْنَا الْمُسْلِمِينَ يَخْصُدُونَ الزَّرْعَ؛ وَلَمَّا قَرُبْنَا مِنْهُمْ، جَاؤُوا إِلَيْنَا بِأَسْلِحَتِهِمْ وَخَيْلِهِمْ؛ فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْنَا قُلْنَا لَهُمْ: نَحْنُ مُسْلِمُونَ فَأَمْسِكُوا عَنِ الْحَرْبِ، وَفَرِّحُوا بِنَا فَرَحًا عَظِيمًا وَأَعْطُونَا الْخُبْزَ وَالطَّعَامَ الَّذِي لَمْ نَرَهُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ الزَّوَالِ إِلَى يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ عِنْدَ الضُّحَى.

ثُمَّ بَلَّغْنَا إِلَى «أَزْمُوز» فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا قَائِدُهَا وَيَحْتُنَا كَثِيرًا فِي أُمُورِ دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ لِي: أَتَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ؟ قُلْتُ لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: اكْتُبْ فِي هَذِهِ الْوَرَقَةِ؛ قُلْتُ لَهُ: مَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: الَّذِي تُحِبُّ؛ فَكَتَبْتُ مَا أَلْهَمَنِي اللَّهُ تَعَالَى، وَشَكَرْتُهُ عَلَى قَضَاءِ الْحَاجَةِ وَخَلَاصِنَا مِنَ الْكُفَّارِ، وَدَعَوْتُ بِالْخَيْرِ لِلْقَائِدِ مُحَمَّدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ السُّفْيَانِي عَلَى مَا أَحْسَنَ إِلَيْنَا؛ وَقَبَضَ الْوَرَقَةَ. وَأَظُنُّ أَنَّهُ بَعَثَهَا لِلسُّلْطَانِ مَوْلَايَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَتَبَ لَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَمْشِيَ لِحَضْرَتِهِ فِي عِيدِ الْأَضْحَى وَأَنْ يَخِمَلَنَا مَعَهُ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: الْمَا.

(١) فِي الْأَصْلِ: الَّذِي وَجَدْنَاهُ.

(٣) فِي الْأَصْلِ: اسْتَظَلَّيْنَا.

فَلَمَّا أَنْ بَلَّغْنَا فِي ذِكَاةٍ إِلَى سُوقٍ كَبِيرٍ أَمَرَ الْقَائِدَ لِخَدِيمِهِ أَنْ يَرْكَبَ مَعِيَ إِلَى السُّوقِ؛ فَلَمَّا دَخَلْنَا فِيهِ جَاءَ الْمُسْلِمُونَ يَسْأَلُونَ الْخَدِيمَ عَنِّي؟ قَالَ لَهُمْ: هُوَ مُسْلِمٌ فَجَاؤُونِي مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَهُمْ يَقُولُونَ لِي: «شَهَدْ شَهَدْ» وَأَنَا سَاكِتٌ؛ حَتَّى أَلْحَا عَلَيَّ وَكَثُرُوا فِي ذَلِكَ قُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. قَالُوا: وَاللَّهِ إِنَّهُ قَالَهَا خَيْرًا مِنَّا. ثُمَّ مَشَوْا وَأَتَوْنِي بِتَمَرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا يَبِيعُونَهُ وَفِضَّةَ دَرَاهِمٍ. قُلْتُ لَهُمْ: لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.

فَلَمَّا وَلَّيْنَا عِنْدَ الْقَائِدِ، قَالَ لِي: مَا ظَهَرَ لَكُمَا؟ قُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ نَرَ عَدُوًّا فِي هَؤُلَاءِ النَّاسِ^(١) لِأَنَّ فِي بِلَادِ النَّصَارَى لَمْ نَرَ فِيهَا فِي الْأَسْوَاقِ إِلَّا أَعْدَاءَ لَنَا يَمْنَعُونَنَا مِنَ الشَّهَادَتَيْنِ جَهْرًا، وَالْمُسْلِمُونَ يُحَرِّضُونَنِي عَلَيْهَا وَفَرِحُوا جَمِيعًا حِينَ سَمِعُوا مِنِّي ذَلِكَ. وَقَدْ شَبَّهْتُ مَا أَصَابَنَا مِنْ خَوْفِ النَّصَارَى، وَمَا رَأَيْنَا مِنَ التَّعَبِ فِي الطَّرِيقِ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَوُصُولِنَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ لِلدُّخُولِ فِي الْجَنَّةِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ لَا يَحْرِمَنَا مِنْهَا، وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، بِبَرَكَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: هَذِهِ النَّاسِ.

البَابُ الثَّالِثُ

فِي بُلُوغِنَا إِلَى مَدِينَةِ مَرَّاكُشَ وَمَا كَانَ السَّبَبُ
حَتَّى مَشَيْتُ إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ

وَلَمَّا أَنْ بَلَّغْنَا إِلَى مَحَلَّةِ السُّلْطَانِ، مَوْلَانَا أَحْمَدُ بْنُ مَوْلَايَ مُحَمَّدَ الشَّيْخِ
الشَّرِيفِ الْحَسَنِيِّ؛ وَكَانَ يَقْرُبُ الْمَدِينَةَ بِنَحْوِ السَّتَّةِ أَمْيَالٍ، بِسَبَبِ الْوَبَاءِ الْعَظِيمِ
الَّذِي نَزَلَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ؛ وَكَانَ عِيدُ الْأَضْحَى فِي الْيَوْمِ الْآتِي مِنْ بُلُوغِنَا. وَخَرَجَ
السُّلْطَانُ فِي جُنُودٍ لَمْ نَظُنْ ذَلِكَ؛ وَأَعْجَبَنِي حَالُ الرُّمَاءِ، فَجَزَأَهُمْ هُوَ أَفْضَلُ
وَأَحْسَنُ وَأَزِينُ مِنْ جِزَامِ النَّصَارَى بِكَثِيرٍ؛ وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ جَاءُوا وَحَضَرُوا مَعَ
قَوَادِمِهِمْ، فَكَانُوا تِسْعًا وَعِشْرِينَ^(١) أَلْفَ فَارِسٍ وَكَذَا مِائَةً مَا عَدَا السُّبُحِيحَةَ،
وَقُرَّسَانَ الْمَدِينَةِ، وَالْفَرَادَةَ وَالْجُنْدَ كَثِيرًا.

وَبَعْدَ ذَلِكَ دَخَلْنَا مَرَّاكُشَ، وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ، وَقَوَاكِبُهَا كَثِيرَةٌ، وَعَنْبُهَا
لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِثْلُهُ؛ عَرْضُهَا إِخْدَى وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً وَنِصْفَ، وَطُولُهَا تِسْعَ
دَرَجَاتٍ^(٢) لَأَنَّهَا قَرِيبَةٌ مِنَ الْجُزْرِ الْخَالِدَاتِ الْمُسَمَّاةِ الْآنَ بِقَنَارِيَّةٍ^(٣)، وَمِنْهَا ابْتَدَأَ
الطُّولَ. وَبَعْدَ أَنْ دَخَلَ السُّلْطَانُ مِنَ الْمَحَلَّةِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَامَ سَبْعٍ وَأَلْفٍ، وَأَنْعَمَ
عَلَيْنَا وَأَذِنَ لَنَا فِي الدُّخُولِ إِلَى حَضْرَتِهِ فِي يَوْمِ الدِّيْوَانِ؛ وَلَمَّا ابْتَدَأَتْ بِالْكَلامِ
الَّذِي اخْتَرْتُ^(٤) أَنْ أَقُولَهُ بِحَضْرَتِهِ الْعَلِيَّةِ بِصَوْتٍ جَهِيرٍ؛ سَكَتَ جَمِيعُ النَّاسِ
الْحَاضِرُونَ كَأَنَّهَا خُطْبَةٌ؛ فَفَرِحَ السُّلْطَانُ وَقَالَ: كَيْفَ يَكُونُ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَنْ

(١) فِي الْأَصْلِ: دَرَجَاتٍ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: دَرَجَاتٍ.

(٣) فِي الْأَصْلِ: عِشْرُونَ.

(٤) أَيُّ: جِزْرِ الْكَنَارِيِّ الْيَوْمِ.

يَقُولُ بِالْعَرَبِيَّةِ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ لِأَنَّهُ كَلَامُ الْفُقَهَاءِ؟! وَفَرِحَ بِذَلِكَ كَأَفَّةِ الْأَنْدَلُسِ الْقَدَمَاءِ.

وَرَأَيْنَا الْعَافِيَّةَ وَالرَّخَاءَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، إِلَى أَنْ مَاتَ مَوْلَايَ أَحْمَدُ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَأَلْفَ؛ وَقَامَتِ الْقَوَامُ وَالْهَرَجُ فِي الْمَغْرِبِ كُلِّهِ، ثُمَّ ثَبَّتَ فِي الْمَمْلَكَةِ مَوْلَانَا زَيْدَانُ ابْنُ السُّلْطَانِ مَوْلَايَ أَحْمَدَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى.

وَفِي أَيَّامِهِ أَمَرَ السُّلْطَانُ النَّصْرَانِي بِلَادَ إِسْبَانِيَّةَ؛ - أَغْنَى بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ - الْمُسَمَّى بِـ فِلِبِ الثَّلَاثِ مِنْ أَسْمِهِ، بِإِخْرَاجِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بِلَادِهِ. وَابْتِدَاءَ ذَلِكَ كَانَ لِسَنَةِ ثَمَانِ عَشْرَةَ وَأَلْفَ؛ وَآخِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ كَانَ عَامَ عِشْرِينَ وَأَلْفَ.

وَكَانَ الْأَنْدَلُسُ يَقْطَعُونَ الْبَحْرَ فِي سُفُنِ النَّصَارَى بِالْكَرَاءِ؛ وَدَخَلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي سُفُنِ الْفَرَنْجِ وَنَهَبُوهُمْ فِي الْبَحْرِ؛ وَجَاءَ إِلَى مَرَاكُشِ أَنْدَلُسِ مَنْهُوبِينَ مِنَ الْفَرَنْجِ، فِي أَرْبَعِ سُفُنَ، وَبَعَثَ رَجُلٌ أَنْدَلُسِيٍّ مِنْ بِلَادِ فَرَنْجَةِ يَطْلُبُ مِنْهُمْ وَكَالَةً لِيَطْلُبَ بِالشَّرْعِ عَنْهُمْ بِلَادَ الْفَرَنْجِ؛ وَاتَّفَقَ نَظَرُهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا خَمْسَةَ رِجَالٍ مِنَ الْمَنْهُوبِينَ وَيَمْشِي بِهِمْ وَاحِدٌ مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ سَبْقُوهُمْ بِالْخُرُوجِ؛ وَاتَّفَقُوا أَنِّي نَمْشِي بِهِمْ، وَأَعْطَانِي السُّلْطَانُ كِتَابَهُ، وَرَكَبْنَا الْبَحْرَ الْمُحِيطَ بِمَدِينَةِ «أُسْفِي».

البَابُ الرَّابِعُ

في قُدُومِنَا إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ^(١)

وَلَمَّا أَنْ دَخَلْنَا الْبَحْرَ سَافَرْنَا؛ إِلَى أَنْ تَرَكْنَا بِلَادَ الْمَغْرِبِ عَنْ يَمِينِنَا، ثُمَّ عَبَرْنَا فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى جِهَةِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ؛ وَتَرَكْنَا أَيْضًا بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ عَنْ يَمِينِنَا وَبَلَّغْنَا إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ إِلَى مَرْسِي هَبْرْدَاغَرَسِي^(٢) - وَمَعْنَى ذَلِكَ الْأَسْمِ مَرْسَى الْبَرْكَةِ - بَعْدَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا مِنْ خُرُوجِنَا؛ وَبِثْنَا فِي السَّفِينَةِ بَنِيَّةِ الْخُرُوجِ فِي الْبَرِّ فِي عَدٍ. وَتِلْكَ اللَّيْلَةَ - عَلَى طُولِهَا - رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَنِّي كُنْتُ تَتْلُو سُورَةَ الْإِخْلَاصِ؛ وَبَعْدَ أَنْ نَزَلْنَا فِي الْبَرِّ بَانَ لِي أَنَّ قِرَاءَةَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣) كَانَ لِي تَثْبِيثًا عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْأَمْرُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ، إِذْ كُنَّا نَازِلِينَ بِبِلَادِ الشُّرُكِ.

ثُمَّ مَشِينَا إِلَى مَدِينَةِ رُوَانْ، وَجَاءَ إِلَيْنَا تَاجِرٌ كُنْتُ عَرَفْتُهُ فِي مَرَاكَشِ اسْمُهُ قَرْطُ^(٤)؛ وَلَطَوَّلَ مُكْثِهِ بِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ غَايَةً؛ وَبَدَأَ يَتَكَلَّمُ فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَيَشْكُرُ دِينَهُ؛ وَقَالَ: الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ مُبَاحُ الزِّنَا وَالسَّرَقَةِ.

قُلْتُ: هَذَا بَاطِلٌ.

(١) يريد ببلاد الفرنج: فرنسا.

(٢) يريد ببلاد الفرنج: فرنسا.

(٣) سورة الإخلاص، آية: ١.

(٤) من المحتمل أن قرط، هو جاك جانكارت وهو تاجر فرنسي كان مقرَّبًا من مولاي زيدان ما بين

قَالَ: بَلْ صَحِيحٌ لِأَنِّي سَمِعْتُ عُلَمَاءَكُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ بَغْضًا سَأَلَ نَبِيَّكُمْ
قَالَ: الْمُؤْمِنُ يَزْنِي؟ قَالَ لَهُ: يَزْنِي. قَالَ: وَالْمُؤْمِنُ يَسْرِقُ؟ قَالَ: يَسْرِقُ. قَالَ
أَيْضًا: الْمُؤْمِنُ يَكْذِبُ؟ قَالَ لَهُ: الْمُؤْمِنُ مَا يَكْذِبُ.

قُلْتُ لَهُ: الْمُؤْمِنُ الَّذِي مَا يَكْذِبُ فَلَا يَسْرِقُ وَلَا يَزْنِي؛ وَكَيْفَ تَقُولُ ذَلِكَ
وَعِنْدَنَا أَنَّ مَنْ سَرَقَ مَا يُسَاوِي رُبْعَ دِينَارٍ تَقْطَعُ يَدُهُ شَرْعًا؛ وَإِذَا رَزَا الْمُخْصَنُ
يُرْجَمُ إِلَى أَنْ يَمُوتَ!.

ثُمَّ زَادَ فِي مَدْحِ دِينِهِ إِلَى أَنْ قَالَ: سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ ابْنُ اللَّهِ
وَابْنُ إِنْسَانٍ؛ وَإِنَّهُ مَاتَ لِيُخْلَصَ الذَّنْبُ الْأَوَّلَ عَنْ سَيِّدِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قُلْتُ: أَقُولُ لَكَ فِي الْجَوَابِ شِغْرًا نَسَبَهُ بَعْضُ اللَّقَاضِي عِيَاضُ، وَهُوَ
هَذَا:

عَجَبًا لِلنَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ	وَأَلَى أَيِّ وَالِدٍ نَسَبُوهُ
أَسْلَمُوهُ إِلَى الْيَهُودِ وَقَالُوا	إِنَّهُمْ بَعْدَ صَلْبِهِ قَتَلُوهُ
فَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا	فَأَسْأَلُوهُمْ أَيْنَ كَانَ أَبُوهُ
فَإِنْ كَانَ رَاضِيًا لَأَذَاهُمْ	فَأَشْكُرُوهُمْ لِأَجْلِ مَا عَذَّبُوهُ
وَإِنْ كَانَ سَاخِطًا لَأَذَاهُمْ	فَاعْبُدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ غَلَبُوهُ

فَبِهِتِ التَّاجِرُ وَلَمْ يَعْرِفْ مَا يَقُولُهُ!.

وَكَانَ قَدْ دُكِرَ لِي رَجُلٌ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى فِي مَدِينَةِ مَرَاكُشْ؛ وَكَانَ رَاهِبًا
ثُمَّ أَسْلَمَ وَسُمِّيَ بِرَمَضَانَ؛ ثُمَّ مَشَى إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ وَمَاتَ بِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَقَالَ لِي إِنَّ السُّلْطَانَ مَوْلَايَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَمَرَ بِإِخْضَارِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَعْدَ
أَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى، وَقَالَ لَهُ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ؟

قَالَ: إِنَّهُ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ فِي الْأَلُوْهِيَّةِ، أَوْ كَمَا قَالَ: وَإِنَّهُ مَاتَ لِيُخْلَصَ الْعَالَمُ
مِنَ الذَّنْبِ الْأَوَّلِ الَّذِي عَمَلَهُ آدَمُ.

قَالَ لَهُ السُّلْطَانُ: أَنَا أَضْرِبُ لَكَ مَثَلًا حَتَّى تَرَى الْعَلَطَ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، فَقَدَّرْتُ أَنْبِيَّ أَمَرْتُ أَنْ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبُسْتَانِ الَّذِي بِدَارِنَا السَّعِيدَةِ نَقُتْلُهُ؛ وَاتَّفَقَ أَنْ وَاحِدًا مِمَّنْ عَلِمَ بِالْمَنْعِ دَخَلَ الْبُسْتَانَ وَعَصَانِي؛ فَلَمَّا صَحَّ ذَلِكَ عِنْدِي أَمَرْتُ الْخُدَّامَ أَنْ يَأْتُونِي بِأَنْبِيٍّ فَلَمَّا أَخْضَرُوهُ قُلْتُ لَهُمْ: افْتُلُوهُ لِأَجْلِ دُخُولِ فُلَانٍ فِي الْجَنَّةِ الَّذِي نَهَيْتُ النَّاسَ عَنِ الدُّخُولِ فِيهِ. قَالَ لِلرَّاهِبِ: هَذِهِ مَسْأَلَتُكُمْ عَلَى رَغْمِكُمْ أَنْ عِيسَى هُوَ ابْنُ اللَّهِ وَقُتِلَ؛ وَهَلْ يَقُولُ عَاقِلٌ بِمِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ؟ فَخَرَسَ الرَّاهِبُ وَبُهِتَ وَلَمْ يَجِدْ مَا يُجَاوِبُ بِهِ.

قُلْتُ لِلرَّاهِبِ: هَذَا الْكَلَامُ لَمْ يَبْقَ لَكُمْ مَا تُجَاوِبُونَ.

قَالَ لِي الرَّاهِبُ: بَقِيَ لِي جَوَابٌ.

قُلْتُ لَهُ: مَا هُوَ؟

قَالَ: بَعْدَ أَنْ مَشَيْتُ إِلَى الدَّارِ أَصَبْتُهُ؛ وَذَكَرَهُ لِي؛ وَكَانَ كَلَامًا لَيْسَ فِيهِ مَا يُقَالُ وَلَا مَا يُكْتَبُ فَمَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ.

وَقَدْ وَقَعَ لِي كَلَامٌ، فِي مَدِينَةِ رُوانَ، مَعَ قَاضِي الْقَضَاةِ، بَعْدَ أَنْ رُزِنْتُ، وَكَانَ يَعْرِفُ اللِّسَانَ الْعَجَمِيَّ الْأَنْدَلُسِيَّ، فَسَأَلَنِي عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي دِينِنَا، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ^(١) فِيهَا؛ أَغْنَى أَصْحَابَ الْبَابِ، وَكَانَ الْقَاضِي عَلَى مَذْهَبِهِ، وَبَيْنَ النَّصَارَى الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِهِ، وَبِكُلِّ مَا يَقُولُ مَا عَدَا التَّثْلِيثَ، لِأَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ لِي: إِذَا مَاتَ الْمَرْءُ هَلْ تَصِلُ إِلَيْهِ حَسَنَةٌ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ؟

قُلْتُ لَهُ: قَالَ نَبِيُّنَا ﷺ^(٢): «إِذَا مَاتَ الْمَرْءُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَّةٌ، أَوْ عِلْمٌ يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ». فَفَرِحَ وَانْشَرَحَ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِأَعْيَادِهِمْ. وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْبَابِ مِنَ النَّصَارَى يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يَصِلُ لِلْمَيِّتِ دَعَاءٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَا شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا بَعْدَ مَوْتِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: مُخْتَلِفُونَ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ: وَصِيَّةُ ١٤. وَالتِّرْمِذِيُّ: أَحْكَامُ ٣٦، وَالنَّسَائِيُّ: وَصَايَا ٨ وَابْنُ حَنْبَلٍ: ٣١٦/٢، ٣٥٠.

ثُمَّ قَالَ لِي الْقَاضِي: أَنْتُمْ التَّرَكِيُّونَ تَضَعُونَ فِعْلاً قَبِيحًا يَقْتُلُكُمْ جَمِيعَ أَوْلَادِ السَّلَاطِينِ إِلَّا وَاحِدًا أَوْ اثْنَيْنِ.

قُلْتُ: ذَلِكَ لِصَلَاحِ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ هُوَ ابْنُ سُلْطَانٍ يُحِبُّ مَمْلَكَةَ أَبِيهِ؛ فَإِذَا أَصَابَ الْهَرْوَبَ - وَالْمَمْلَكَةُ عَظِيمَةٌ وَمُتَّسِعَةٌ -، فَيَقُومُ مَعَهُ كَثِيرٌ، وَيَكُونُ^(١) بِسَبَبِ ذَلِكَ تَفْرِيقُ الْكَلِمَةِ، وَتَكُونُ الْفِتْنَةُ. وَقَدْ يُشَاهَدُ فِي النَّحْلِ أَمْرٌ عَجِيبٌ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَفْرَخَ وَكَثُرَ فَتَخْرُجَ النَّحْلُ مِنَ الْجُنْحِ^(٢)، وَتَدْخُلُ فِي جُنْحٍ آخَرَ فَارِغٍ^(٣)، وَعِنْدَهُمْ فِيمَا بَيْنَ النَّحْلِ سُلَالَةٌ سَلَاطِينٍ مِنْهَا؛ وَهُمْ نَحْلٌ أَطْوَلُ جَرَمًا مِنْ سَائِرِ النَّحْلِ، وَتَتْرُكُ النَّحْلُ وَاحِدًا مِنْ جِنْسِ السَّلَاطِينِ لِيَكُونَ سُلْطَانَهَا، وَتَقْتُلُ جَمِيعَ مَنْ هُوَ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ. وَهَذَا مُشَاهَدٌ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّ مَنْ يُخَالِطُ النَّحْلَ؛ وَهَذَا إِلَهَامٌ رَبَّانِي. فَفَرِحَ الْقَاضِي وَأَظْهَرَ لِي صُخْبَةً وَمَوَدَّةً وَتَفَعَّلَنِي نَفْعًا جَيِّدًا فِي الْأَحْكَامِ.

(٢) الجيح: خلية العسل.

(١) في الأصل: وتكون.

(٣) في الأصل: فارغاً.

البَابُ الْخَامِسُ

في قُدُومِنَا إِلَى بَرِيشْ^(١)

هِيَ دَارُ سُلْطَنَةِ الْفَرَنْجِ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ مَدِينَةِ رُوانَ نَحْوُ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ؛ وَطُولُهَا خَمْسَةُ آلَافٍ وَخَمْسُمِائَةِ خَطْوَةٍ؛ وَعَرْضُهَا أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَخَمْسُمِائَةِ خَطْوَةٍ؛ وَبُيُوتُهَا عَالِيَةٌ أَكْثَرُهَا مِنْ أَرْبَعِ طَبَقَاتٍ، وَأَكْثَرُ وَأَقْلُ، وَكُلُّهَا عَامِرَةٌ بِالنَّاسِ؛ وَدِيَارِ الْأَكَابِرِ مَبْنِيَّةٌ بِالْحَجَرِ الْمَنْجُورِ إِلَّا أَنَّهُ بِطُولِ الزَّمَنِ يَسْوَدُ لَوْنُ الْحَجَرِ. تَقُولُ النَّصَارَى: إِنَّ أَعْظَمَ مُدُنِ الدُّنْيَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، ثُمَّ هَذِهِ مَدِينَةُ بَرِيشْ، ثُمَّ مَدِينَةُ إشبونة^(٢) بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ. وَكَانَ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَذْكُرُوا مِضْرَ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَهَا الْقَاهِرَةَ الْكَبِيرَةَ؛ وَإِذَا جَمَعْنَا مَعَ مِضْرَ الْعَتِيقِ وَبُولَاقَ وَقَايَةَ بَايٍ، لَمْ نَذَرِ أَيُّهُمَا^(٣) أَعْظَمَ: بَرِيشْ، أَوْ مِضْرَ بِمَا ذَكَرْنَا.

وَقَدْ رَفَعْنَا أَمْرَنَا الَّذِي جِئْنَا بِسَبَبِهِ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ إِلَى الدِّيَّانِ السُّلْطَانِيِّ، وَأَعْطَوْا كُتُبَ السُّلْطَانِ لِلْقَضَاةِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا لَهُمْ، وَأَيْضًا لِقَاضِي الْأَنْدَلُسِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ فِي دِيَوَانِهِمْ وَجَّهًا قَاضِيًا نَصْرَانِيًّا مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، يَقْضِي بَيْنَهُمْ وَيَأْخُذُ خُمْسَ الْمَالِ لِلْأَغْنِيَاءِ، مِنَ الْوَارِدِينَ عَلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَيُقِيمُ بِذَلِكَ فَقَرَاؤُهُمْ.

وَلَمَّا صَحَّ عِنْدَ سُلْطَانِ إِسْطَنْبُولَ، بِخُرُوجِ الْأَنْدَلُسِ، الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمْ بِبِلَادِ التُّرْكِ بِمَدْجَلِينَ، كَتَبَ كِتَابَهُ السَّنِيَّ إِلَى سُلْطَانِ فَرَنْجَةِ بِالْوَصِيَّةِ عَلَيْهِمْ، وَنَفَعَ

(٢) هي مدينة لشبونة Lisbon .

(١) يريد مدينة باريس .

(٣) في الأصل: من هي .

ذَلِكَ الْكِتَابُ الْأَنْدَلُسُ نَفْعًا عَظِيمًا؛ تَقَبَّلَ اللَّهُ مِنْهُ وَجَعَلَهُ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، بِبَرَكَهٖ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

وَلَمَّا أَعْطَوْنِي كُتُبَ السُّلْطَانِ، قُلْتُ لِبَعْضِ مَنْ كَانَ يَغْتَفِدُنِي مِنْهُمْ أَنْ يُتْرَجِمَ لِي الْكُتُبَ. وَبَعْدَ الْكَلَامِ الَّذِي مِنْ عَادَتِهِمْ يُصَدِّرُونَهُ؛ قَالُوا لِلْقَضَاءِ: نَأْمُرُكُمْ أَنْ تَقْفُوا مَعَ حَامِلِ هَذَا؛ الَّذِي يَتَكَلَّمُ عَلَى الْأَنْدَلُسِ، لِأَنَّ السَّيِّدَ الْكَبِيرَ كَتَبَ لَنَا فِي شَأْنِهِمْ. وَهَذَا الْاسْمُ لَا يُسَمُّونَ بِهِ أَحَدًا مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا وَذَلِكَ بِبَرَكَهٖ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ هُوَ أَعْظَمُ سَلَاطِينِهَا.

وَالْتَقَيْتُ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ، بِرَجُلٍ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، كَانَ يَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ وَيَبْغُضُ النَّصَارَى يَقْرَأُونَ عَلَيْهِ. وَكَانَ يُسَمَّى بِأُبْرَت^(١). وَقَالَ لِي: أَنَا أَخْدِمُكَ فِيمَا تَحْتَاجُنِي لِأَكُلَمَ لَكَ مِنْ كُبرَاءِ النَّاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ وَمَا نُحِبُّ مِنْكَ إِلَّا نَقْرَأَ عَلَيْكَ فِي الْكُتُبِ الَّتِي عِنْدِي بِالْعَرَبِيَّةِ، وَتُبَيِّنَ لِي فِيهَا شَيْئًا مِمَّا فِيهَا. قُلْتُ لَهُ: آتِنِي بِهَا؛ وَمِنْ جُمْلَةِ الْكُتُبِ جَاءَ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

فَسَأَلْتُهُ: أَيْنَ اتَّصَلْتَ بِهِذَا الْقُرْآنَ؟

قَالَ: كُنْتُ بِمَدِينَةِ مَرَّاكُشَ، وَهُنَالِكَ تَعَلَّمْتُ نَقْرًا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَ جُلُوسِي هُنَالِكَ عَلَى أَمْرِ سُلْطَانٍ فَرَنْجِي لِنَعْلِمَهُ بِحُرُوفِ الرَّمْزِ، كُلَّمَا نَعْلَمُ أَنَّهُ يَقَعُ لِسُلْطَانِ مَرَّاكُشَ فِي دِيَوَانِهِ وَحَرَكَاتِهِ.

فَتَغَيَّرْتُ حِينَ رَأَيْتُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى بِيَدِ كَافِرٍ نَجِسٍ؛ ثُمَّ سَاقَ قَائُونُ ابْنِ سِينَا فِي الطَّبِّ، وَكِتَابُ إِقْلِيدِسَ فِي الْهَنْدَسَةِ، وَكُتُبًا فِي النَّحْوِ مِثْلُ: الْأَجْرُومِيَّةِ، وَالْكَافِيَّةِ، وَكِتَابًا بِالْعَرَبِيَّةِ فِيهِ مُنَاطَرَاتُ بَيْنِ مُسْلِمٍ وَنَصْرَانِي فِي الْأَذْيَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْكُتُبِ. وَكُنَّا نَبْتَدِءُ بِالْكَلامِ فِي الْعِلْمِ، ثُمَّ تَقَعُ الْمُنَازَعَةُ بَيْنَنَا عَلَى الْأَذْيَانِ.

(١) أوبرت: هو إتيان هيوبرت، مولده في أورليانز سنة ١٥٦٨م وكان عالمًا بالفيزياء، قام بمهمة إلى مراکش سنة ١٥٩٨ للسلطان أحمد المنصور الذهبي، وقد جمع الكثير من الكتب العربية، وتعلم العربية، ثم عمل أستاذًا في الكلية الفرنسية بعد عودته من المغرب ما بين ١٦٠٠ -

وَقَرَأْتُ يَوْمًا فِي الْقُرْآنِ الَّذِي كَانَ لَهُ، وَوَجَدْتُ بِالْفَرَنْجِ مَكْتُوبًا بِطَرَّةِ الْكِتَابِ: مِنْ هُنَا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ إِبَاحَةَ اللُّوَاطِ!.

قُلْتُ لَهُ: مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّهُ مُبَاحٌ عِنْدَنَا؟

قَالَ: ظَاهِرٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾^(١).

قُلْتُ: نَحْنُ عِنْدَنَا أَنَّ اللُّوَاطَ أَشَدُّ ذَنْبًا مِنَ الزَّانَا، لِأَنَّهُ إِذَا زَنَا مُخَصِّنٌ يُرْجَمُ إِلَى أَنْ يَمُوتَ، وَإِذَا كَانَ غَيْرَ مُخَصِّنٍ يُجْلَدُ مِائَةً جَلْدَةٍ وَيُعْرَبُ عَنْ بَلَدِهِ وَيُسَجَّنُ فِيهِ عَامًا؛ وَإِذَا فَعَلَ فِعْلَ قَوْمِ لُوطٍ سِوَاءَ كَانَ مُخَصِّنًا أَوْ غَيْرَ مُخَصِّنٍ يَمُوتُ مَرْجُومًا شَرْعًا. وَكَيْفَ تُفَسِّرُ أَنَّتَ فِي الْقُرْآنِ وَالْمُفَسِّرُونَ لَهُ يَحْتَاجُونَ عُلُومًا شَتَّى، وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ اللُّغَةَ^(٢) الْعَرَبِيَّةَ، وَلَا النُّحُوَ فَضْلًا عَنْ غَيْرِ ذَلِكَ!.

قُلْتُ لَهُ: امْنَحِ الَّذِي كَتَبْتَ! وَأَبَى أَنْ يَمْحُو مَا فِي الطَّرَّةِ.

وَكَانَ هُوَ ذَكَرَ لِي أَنَّ كَنِيْسَةَ كَذَا فِيهَا كُتِبَ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ قُلْتُ لَهُ أَجِبْ أَطَالِعُهَا؛ وَمَشِينَا فَوَجَدْنَا قُبَّةً كَبِيرَةً، وَالْكَتُبَ صُفُوفًا عَلَى الْأَوَاحِ وَكَرَاسِي؛ وَكُلُّ كِتَابٍ فِي أَسْفَلِهِ حَلَقَتَا^(٣) حَدِيدٍ، وَسِلْسِلَةٌ حَدِيدٍ تَجُوزُ عَلَى جَمِيعِ الْكُتُبِ؛ كُلُّ ذَلِكَ لِئَلَّا تَذْهَبَ وَتُسْرِقَ؛ وَكَانَتْ فِي كُلِّ لُغَةٍ. فَقَشَّشْنَا حَتَّى وَجَدْنَا كِتَابًا عَرَبِيًّا وَفَتَحْنَاهُ لِنَقْرَأَ فِيهِ وَالْمَوْضِعُ الَّذِي وَجَدْتُ كَانَ تَفْسِيرَ الْآيَةِ الَّتِي ذَكَرْتُ أَنَّهُ كُتِبَ فِي الطَّرَّةِ عَلَيْهَا، وَهِيَ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنِّي لِلآيَةِ إِلَّا هِدَايَةً مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبُرْهَانًا لِمَا قُلْتُ لِلنُّصْرَانِيِّ. وَمِنْ جُمْلَةٍ مَا ذَكَرَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَبْيَاتَ شِعْرِ؛ فَأَخَذْتُ الْقَلَمَ وَكَتَبْتُهَا وَالنُّصْرَانِيُّ حَاضِرٌ؛ وَهَذَا الَّذِي كَتَبْتُ مِنَ الْكِتَابِ وَنَظَرْتُ إِلَى أَوَّلِهِ لِنَذْكُرَ مُؤَلِّفَهُ وَخَصَّتْ وَرَقٌ فِي أَوَّلِهِ؛ وَهَذَا هُوَ الشُّعْرُ وَلَكِنْ أَضْلَحَ فِيهِ الشَّيْخُ الْعَلَامَةُ الْأَجْهَوْرِيُّ عِنْدَ قِرَاءَتِي الْكِتَابِ عَلَيْهِ:

حَبَّذَا مَنْ وَهَبَ النِّسَاءَ الصَّالِحَاتِ

هُنَّ لِلنَّسْلِ وَهُنَّ لِلدِّينِ ثَبَاتِ

(٢) فِي الْأَصْلِ: لَغَتْ.

(١) سُورَةُ الْبَقَرَةِ، آيَةُ: ٢٢٣.

(٣) فِي الْأَصْلِ: حَلَقَتَيْنِ.

يَهَبُ اللهُ لِمَن يَشَاءُ النِّسَاءَ الْحَيَّرَاتِ
إِنَّمَا الْأَرْحَامُ لَنَا مُحْتَزَّاتٌ
فَعَلَيْنَا بِالزَّرْعِ فِيهَا وَعَلَى اللَّهِ النَّبَاتُ

وَلَمْ يَسْغِنِي الْحَالُ أَنْ تُتِمَّ الْقِرَاءَةُ عَلَى مَعْنَى مَا بَقِيَ؛ وَقَالَ: النَّضْرَانِي مَا هَذَا الَّذِي كَتَبْتَ؟

قُلْتُ: شَيْءٌ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي كَتَبْتَ أَنْتَ عَلَيْهَا فِي الطَّرَةِ بِإِبَاحَةِ النِّكَاحِ فِي الدُّبْرِ؛ وَقُلْتُ لَهُ مَعْنَى الشَّعْرِ بِالْأَعْجَمِيَّةِ.

قُلْتُ لَهُ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾^(١)؟
قَالَ: نَعَمْ!.

قُلْتُ: مَعْنَى الشَّعْرِ إِنَّ الْأَرْحَامَ مَوْضِعُ الْحَرْثِ وَعَلَى اللَّهِ النَّبَاتُ.
قُلْتُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ أَنَّ أَحَدًا يَحْرُثُ فِي حَجَرٍ؟
قَالَ: لَا!.

قُلْتُ: لَمْ يَحْرُثْ أَحَدٌ إِلَّا فِي مَوْضِعِ النَّبَاتِ أَوْ الزَّرْعِ وَالنِّسَاءُ هُنَّ حَرْثُ الرِّجَالِ فِي مَحَلِّ النَّبَاتِ، كَأَنَّ بَوَاجِهَهَا إِلَيْهِ أَوْ بَظَهْرَهَا، وَحِينَئِذٍ أَخَذَ الْقَلَمَ وَمَحَا مَا كَانَ كَتَبَهُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ.

وَقَالَ الشَّيْخُ الْأَجْهَوْرِيُّ عَنْ سَيِّدِنَا مَالِكٍ، أَنَّ بَعْضًا نَسَبَ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ بِجَوَازِ النِّكَاحِ فِي الدُّبْرِ، فَقَالَ لَهُمْ: «أَمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ عُزْبٌ هَلْ يَكُونُ الْحَرْثُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ الزَّرْعِ»!.

وَأَمَّا هَذَا الْفِعْلُ الْقَبِيحُ، فَقَدْ اشتهَرَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَوَهَّمَ النَّضْرَانِي أَنَّ ذَلِكَ مُبَاحٌ فِي دِينِنَا، وَذَلِكَ لِشَهْرَتِهِ وَلِعَدَمِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ بَعْضًا يَكُونُ عِنْدَهُ أَوْلَادٌ مَخْجُوبُونَ لِلْفِعْلِ بِهِمْ، وَلَمْ يَتَذَكَّرُوا أَنَّهُ مَمْنُوعٌ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ؛ وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى غَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ، حَتَّى

خَسَفَ بِأَرْبَعَةِ بُلْدَانٍ بِجَمِيعٍ مَّنْ كَانَ فِيهَا. وَهَذَا الَّذِي يَنْزُكُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ، وَفِي جَمَاعِهِنَّ تَفْرِيحٌ لَهُنَّ الَّذِي يَخْصُلُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ أَجْرٌ وَحَسَنَةٌ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ مَنْ يُجَامِعُ الذَّكَرَانَ يَخْصُلُ لَهُ ذَنْبٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَجُوهٍ: الْأَوَّلُ تَضْيِيعُ حَقِّ النِّسَاءِ اللَّائِي تَحْتَ حُكْمِهِ؛ وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَإِفْسَادِ الذَّكَرِ الَّذِي فَعَلَ؛ لِأَنَّهُ يَنْزُكُهُ نَاقِصًا عَنْ دَرَجَةِ الذُّكُورِ، لِلشَّجَاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قُوَّةِ الرِّجَالِ؛ وَأَيْضًا وَضَعُ مَنِيِّهِ فِي مَحَلٍّ لَا يُزْجَى مِنْهُ نَسْلٌ؛ وَمَنْ يَرْضَى لِنَفْسِهِ مِنَ الْمَفْعُولِينَ بِذَلِكَ؛ لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنْ ذَنْبٍ مِنْ أَنْوَاعِ الذُّنُوبِ وَلِلنَّائِجِ فِي الْحَلَالِ حَسَنَةٌ عَلَى الْفِعْلِ، وَحَسَنَةٌ عَلَى تَفْرِيحِ مَنْ هِيَ تَحْتَ حُكْمِهِ مُنْتَظَرَةٌ مِنْهُ، وَحَسَنَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى قَضَائِهِ: أَنَّ يَرْزُقَهُ اللَّهُ مَنْ يَذْكُرُهُ وَيَعْبُدُهُ.

وَالَّذِي رَأَيْتُهُ فِي مُنَاطَرَةِ النَّصَارَى، أَنِّي إِذَا قَوَيْتُ نَفْسِي فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيَّ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ إِجْلَالٌ وَتَعْظِيمٌ، وَنَعْظُمٌ فِي أَعْيُنِهِمْ بِذِكْرِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرِ فَضْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَبُطْلَانِ تَثْلِيثِهِمْ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾^(١). وَمَهْمَا قَصُرْتُ مِنَ الْخَوْفِ أَوْ الْجَزَعِ فَكَانَ يَنْزِلُ عَلَيَّ الدَّلُّ عِنْدَهُمْ؛ وَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ وَتَحَقَّقْتُ وَفَهِمْتُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ مِنِّي أَنْ تُجَاهِدَ مَعَهُمْ بِقُوَّةٍ. فَكُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ مَا لَا سَمِيعُوهُ مِنْ مُسْلِمٍ قَطُّ؛ وَيَنْصُرُنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيَقُولُونَ لِي: إِنْ اخْتَجْتَ مِنَّا شَيْئًا نَقْضِهِ لَكَ؛ حَتَّى أَنْ بَغَضَهُمْ يَقُولُ لِي عِنْدَ مَذْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: وَهَذَاكَ السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ نَبِيُّكُمْ، عَمِلَ كَذَا أَوْ قَالَ كَذَا، وَأَجَابَهُمْ بِمَا يُلْهِمُنِي اللَّهُ الْمُعِينِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ.

وَقَدْ ذَكَرْتُ يَوْمًا لِأُبْرَتَ^(٢) الَّذِي كَانَ يَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ أَنْ يُرِينِي الْمَوْضِعَ الَّذِي فِيهِ الْجِبَالُ، حَيْثُ يَجْذُبُونَ بِِ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ الْمُسَمَّى عِنْدَهُمْ بَيْنَبَهَ^(٣)؛ قَالَ: هُوَ فِي دَارِ الْمُتْرَهَبِينَ.

(٢) هو إتيان هيوبرت، تاجر وفيزيائي فرنسي.

(١) سورة المائدة، آية: ٧٣.

(٣) يريد بالفرنسية: Pompe.

وَمَسِينَا وَبَلَعْنَا إِلَى الْبَابِ؛ وَكَانَ مَغْلُوقًا؛ وَيدَّ مِنْ عُودٍ مُعَلَّقٍ مِنْ حَبْلِ؛ فَجَذَبَهُ وَحَرَّكَ الْحَبْلَ دَاخِلًا نَاقُوصًا صَغِيرًا، فَسَمِعَ ضَرْبَهُ الْمُوَكَّلَ بِالْبَابِ؛ وَجَاءَ رَاهِبٌ إِلَى الْبَابِ وَتَكَلَّمَ مِنْ طَاقَةِ صَغِيرَةٍ فِي دَفْعَةِ الْبَابِ، بَعْدَ أَنْ أَزَاحَ مِنْهَا لَوْحًا صَغِيرًا؛ وَطَلَبَ مِنْهُ أُبْرُثُ الدُّخُولِ. وَلَمَّا دَخَلْنَا رَأَيْنَا الْحِبَالَ وَالْمُتْرَهَبِينَ يَجْذُبُونَ الْمَاءَ بِهِ.

وَرَأَيْتُ الرُّهْبَانَ بِاللِّحَا غَيْرِ مَقْصُوصَةٍ، مَا لَيْسَ مِنْ عَادَةِ الْمُتْرَهَبِينَ. قُلْتُ لِأُبْرُثَ: هَؤُلَاءِ ^(١) الرُّهْبَانُ عِنْدَهُمْ أَوْلَادٌ؟

قَالَ - وَهُوَ مُتَعَجِّبٌ -: كَيْفَ تَسْأَلُ عَنْ أَوْلَادِهِمْ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الرُّهْبَانَ لَا يَتَزَوَّجُونَ!.

قُلْتُ: رَأَيْتُهُمْ يَلِاحًا طَوَالَ فَاسْتَدَلْتُ ^(٢) أَنَّهُ يَكُونُ لَهُمْ أَوْلَادٌ؛ وَأَنَا عَارِفٌ بِأَمْرِهِمْ.

قَالَ لِي: الدَّرَاوِشُ عَلَى أَنْوَاعٍ.

وَسَأَلَهُ الرَّاهِبُ عَنِّي؛ فَقَالَ لَهُ: مُسْلِمٌ مِنْ مَرَّاكُشٍ.

فَتَعَجَّبَ وَقَالَ: بَلَّغَنِي أَنَّ أَخِي فَلَاتًا شَقِيقِي كَانَ بِإِصْطِنْبُولٍ وَدَخَلَ فِي دِينِ التُّرْكِيِّينَ، وَنَفْسِي تُحَدِّثُنِي أَنَّ أُمِّسِي إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ نَلْتَقِي بِأَخِي.

قَالَ لَهُ أُبْرُثُ: مَاذَا تُرِيدُ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؟

قُلْتُ لِلرَّاهِبِ: هَلْ هُوَ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَعِنْدَكُمْ تَرْكُ الزَّوَاجِ؟

قَالَ الرَّاهِبُ: كَثِيرٌ يَتَزَوَّجُونَ!.

قُلْتُ لَهُ: قَدَّرَ أَنَّ السُّلْطَانَ نَادَى رَجُلَيْنِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمَا، فَالوَاحِدُ قَبِلَ نِعْمَةَ السُّلْطَانَ وَشَكَرَهُ عَلَيْهَا شُكْرًا دَائِمًا، وَالثَّانِي لَمْ يَقْبَلْهَا وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ زَيَّنَ هَذَا الْعَالَمَ مِنْ أَجْلِ بَنِي آدَمَ، فَالَّذِي يَعْمَلُ قَدْرَ جُهِدِهِ، لِيَكُونَ لَهُ أَوْلَادٌ، لِيَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى بَعْدَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ، فَهُوَ شَاكِرٌ، وَالَّذِي لَمْ يَقْصُدْهُمْ وَلَا يُرِيدُهُمْ فَلَيْسَ بِشَاكِرٍ.

(١) في الأصل: هذا.

(٢) في الأصل: فاستدليت.

قَالَ: كَثِيرٌ مَن يَتَزَوَّجُ!

قُلْتُ: الزَّوْاجُ سَبَبٌ فِي الْأَوْلَادِ لِعِمَارَةِ الْعَالَمِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَالشُّكْرِ عَلَيْهَا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ فَإِنْ. ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: هَلْ فِي دِينِكُمْ أَنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ إِذَا سُئِلَ إِنْسَانٌ عَنْ عَمَلٍ صَالِحٍ تَرَكَهُ وَلَا عَمَلَهُ هَلْ يَنْجُو بِقَوْلِهِ: أَنَا مَا عَمِلْتُهُ وَلَكِنْ عَمَلَهُ غَيْرِي؟

فَتَوَقَّفَ الرَّاهِبُ عَنْ الْجَوَابِ؛ وَقَالَ لَنَا: ادْخُلُوا مَعِيَ فَدَخَلْنَا بُسْتَانًا.

وَبَيْنَمَا كُنَّا سَائِرِينَ فِي الطَّرِيقِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ رَأَيْتُ شَجَرَةً لَمْ تُثْمِرْ؛ قُلْتُ لَهُ: لِمَاذَا عَرَسْتُمْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ؟

قَالَ: لِثُثْمِرِ وَتَعْمَلَ فَائِكِهَةً.

قُلْتُ: وَإِذَا لَمْ تَعْمَلَ فَائِكِهَةً مَا يُضْنَعُ بِهَا؟ فَتَبَسَّمَ وَعَلِمَ أَنَّ الْمِثَالَ كَانَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ جُزْنَا إِلَى قُدَامِ، إِلَى بَيْنِ أَشْجَارٍ غِلَاطٍ وَطُوَالٍ جِدًّا، وَظَهَرَ لِي أَنَّ مِنْ مِثْلِهَا يَعْمَلُونَ صَوَارِي السُّفُنِ؛ وَلَمَّا كُنَّا فِي الْمَوْضِعِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ الْكِبَارِ وَلَمْ يَظْهَرْ أَحَدٌ قَالَا لِي: تَعَجَّبْنَا مِنْكَ! تَحْفَظُ الْأَلْسُنَ، وَتَقْرَأُ الْكُتُبَ، وَسِرْتَ فِي الْمَدُنِ وَأَقْطَارِ الدُّنْيَا، وَمَعَ هَذَا تَكُونُ مُسْلِمًا!.

قُلْتُ لَهُمْ: الْعَجَبُ هُوَ مِنْكُمْ: تَقْرَأُونَ الْكُتُبَ وَالْعُلُومَ، وَأَنْتُمْ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْكُبْرَى، وَمَعَ ذَلِكَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ وَاحِدٌ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَبَعْدَهُ أَنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثٍ؛ مَا لَا يَقْبَلُ الْعَقْلُ أَبَدًا؛ وَذَلِكَ نَقْصَانٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى.

قَالَ أَبْرَتْ: هَذَا التَّثْلِيثُ فِي الْإِلَهِ لَا يَعْرِفُهُ وَلَا يَفْهَمُهُ إِلَّا مَنْ قَرَأَ عِلْمَ الْمَنْطِقِ!.

قُلْتُ: وَأَنْتَ قَرَأْتَهُ؟

قَالَ: نَعَمْ!.

قُلْتُ لَهُ: بَيِّنْ لِي كَيْفَ هُمْ ثَلَاثَةٌ وَوَاحِدٌ؟ لَأَنَّ أَهْلَ دِينِنَا لَا يَقْبَلُونَ إِلَّا وَاحِدًا وَلَا عَبْدُوا إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا؛ وَفِي الْحِسَابِ إِمَّا وَاحِدٌ أَوْ ثَلَاثَةٌ، وَأَمَّا ثَلَاثَةٌ وَهُمْ وَاحِدٌ فَضِدَّانٍ لَا يَجْتَمِعَانِ.

قَالَ الرَّاهِبُ: جَاءَنِي فِي يَوْمِ الْآخِرِ إِلَهُامٌ وَبَيَانٌ مَقْبُولٌ وَبُرْهَانٌ رَبَّانِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ ابْنُ اللَّهِ حَقِيقَةً، وَكَانَ هُوَ أَيْضًا إِلَهًا؛ وَكَتَبْتُهُ أَتُحِبُّ أَنْ آتِيكَ بِهِ لَتَسْمَعَهُ؟

قَالَ لَهُ أَبْرَثُ: إِيْتِنِي بِهِ! فَمَشَى سَرِيعًا لِبَيْتِيهِ وَأَتَى بِهِ وَقَرَأَهُ بِالْفَرَنْجِ وَعَجَّبَهُمَا وَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ!.

قُلْتُ لَهُ: مَاذَا قَالَ فِي وَرَقَتِهِ؟

قَالَ الرَّاهِبُ: اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حِينَ خَلَقَ الدُّنْيَا أَمَرَ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَخْرُجَ وَيُنْبِتَ وَيَلِدَ عَلَى طَبْعِهِ وَنَوْعِهِ وَمِثْلِهِ، وَرَأَى^(١) اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ صَلَاحٌ. فَعَرَفْتُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ أَخَذَهُ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنَ التَّوْرَةِ.

قَالَ لِي: مَاذَا تَقُولُ؟ أَفَعِلُ ذَلِكَ صَلَاحٌ؟

قُلْتُ: نَعَمْ كُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فَهُوَ صَلَاحٌ.

قَالَ: حِينَ رَأَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ صَلَاحٌ وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَخْرُجُ وَيَلِدُ عَلَى طَبْعِهِ وَمِثْلِهِ؛ أَرَادَ هُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ مِثْلُهُ. قَالَ: مَاذَا تَقُولُ؟

قُلْتُ لَهُ: عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ كَانَ سَيِّدُنَا عِيسَى يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ مِثْلُهُ، وَابْنُهُ يَكُونُ لَهُ ابْنٌ آخَرُ، فَتَكْثُرُ الْآلِهَةُ^(٢) إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهَا.

قُلْتُ لَهُ: مَاذَا تَقُولُ؟

(٢) فِي الْأَصْلِ: الْإِلَهَاتُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: رَأَى.

فَبُهِتَ وَبَقِيَ بِوَرَقَتِهِ مُبْطَلَةٌ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ وَكَذْبُهُ ظَاهِرٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً
تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(١)، وَذَهَبْنَا عَنِ الرَّاهِبِ.

البَابُ السَّادِسُ

فِي قُدُومِنَا إِلَى قَاضِي الْأَنْدَلُسِ بِفَرَنْجَةِ بِكْتَابِ السُّلْطَانِ

وَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ بَرِيشَ إِلَى مَدِينَةِ بُرْصِيُوشَ^(١) إِلَى قَاضِي الْأَنْدَلُسِ قَالُوا لَنَا: هُوَ فِي الْبَلَدِ الَّذِي تَخْرُجُ إِلَيْهِ الْأَنْدَلُسُ - وَهُوَ الْبَلَدُ الْأَوَّلُ مِنْ بِلَادِ فَرَنْجَةِ الْقَرِيبِ لِلْحُدُودِ بَيْنَ فَرَنْجَةِ وَبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ؛ وَيُسَمَّى بِشَانَ جَوَانِ دُلْزَ، فَمَشِينَا إِلَيْهِ وَذَلِكَ عَامَ عِشْرِينَ وَآلَفَ؛ وَكَانُوا فِيهِ آخِرَ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ.

وَذَكَرَ لِي مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ رَجُلٌ أَنْدَلُسِيٌّ مِنْ بِلَادِ الثُّغَرِ اسْمُهُ قَلِشُ بِأَنَّ كِتَابَ الدِّيَّانِ السُّلْطَانِي بِمَذْرِيلَ^(٢) قَالُوا: بَلَغَ نَهَايَةَ جَمِيعِ الْأَنْدَلُسِ بِصِغَارِهِمْ لِسْمَانِ مَائَةِ آلَفٍ مَخْلُوقٍ وَأَكْثَرُهُمْ خَرَجُوا بِتُونُسَ. وَكَانَ عُثْمَانُ دَايَ^(٣) أَمِيرًا فِيهَا؛ وَتَكَفَّلَ أُمُورَهُمْ بِالسُّكْنَى فِي الْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا فِي الْفَرَى وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ عَايَةَ الْإِحْسَانِ؛ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ؛ وَمَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَامَ تِسْعَةِ عَشَرَ وَآلَفَ؛ وَكَذَلِكَ الْوَلِيُّ الشَّهِيرُ سَيِّدِي أَبُو الْغَيْثِ الْقَشَّاشُ كَانَ يُغْطِيهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ نَحْوَ آلَفٍ وَخَمْسِمِائَةِ قُرْصَةٍ مِنَ الْخُبْزِ صَدَقَةً - جَزَاهُمَا اللَّهُ خَيْرًا كَثِيرًا.

وَلَمَّا التَّفَتَيْتُ بِالْقَاضِي؛ كَانَ يَشْكُرُ لِي دِينَهُ حَتَّى قَالَ لِي مِرَازًا: يَا فُلَانُ رَأَيْتَ أَنَّهُ يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَرْجَعَ نَصْرَانِيًّا!.

قُلْتُ لَهُ: عَلَى أَيِّ مَذْهَبٍ مِنْ مَذَاهِبِ النَّصَارَى؟

(٢) هي مدينة مدريد الإسبانية.

(١) هي مدينة بورردو الفرنسية.

(٣) وكان حكمه ما بين ١٥٩٣ م - ١٦١٠ م.

قَالَ: لَيْسَ لَنَا إِلَّا مَذْهَبٌ وَاحِدٌ.

قُلْتُ لَهُ: لَوْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يُخَيِّي نَضْرَانِيًّا مِنْ زَمَنٍ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ يُخَيِّي نَضْرَانِيًّا مِنْ كُلِّ قَرْنٍ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ؛ وَتَجْمِيعُهَا سِتَّةَ عَشَرَ قَرْنًا؛ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ لِغَيْرِهِ: إِنَّهُمْ كُفَّارٌ لِمَا يَرَى مِنَ الزِّيَادَةِ وَالتَّقْصَانِ عِنْدَ غَيْرِهِ فِي الدِّينِ. وَالْعَقْلُ السَّالِمُ يَحْكُمُ بِحُكْمٍ قَطْعِيٍّ أَنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى لَا فِيهِ زِيَادَةٌ وَلَا تَقْصَانٌ كَمَا هُوَ دِينُنَا.

قَالَ الْقَاضِي: دِينُنَا كَذَلِكَ!.

قُلْتُ: دِينُكُمْ مَفْتُوحٌ لِلزِّيَادَةِ وَالتَّقْصَانِ، لِأَنَّ كُلَّ بَابٍ لَهُ أَمْرٌ عِنْدَكُمْ لِيَزِيدَ وَيَنْقُصَ مَا يَظْهَرُ لَهُ فِي الدِّينِ.

قَالَ: هَذَا سَيِّدُنَا عِيسَى - أَوْ كَمَا قَالَ - ذَكَرَهُ الْأَوَائِلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى قَالُوا: إِنَّهُ لَا يَكُونُ قَبْرُ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَعْرُوفًا حَقِيقَةً إِلَّا قَبْرُهُ.

قُلْتُ لَهُ: ذَلِكَ قَبْرُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟

قُلْتُ: لَيْسَ هُوَ كَمَا تَقُولُ النَّصَارَى إِنَّهُ فِي حَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ فِي الْهَوَى فِي وَسَطِ قُبَّةٍ مَبْنِيَّةٍ بِحَجَرِ الْمَغْنَاطِيسِ الَّذِي مِنْ خَاصِيَّتِهِ يَجْذِبُ الْحَدِيدَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مَذْفُونٌ فِي الْأَرْضِ فِي مَدِينَتِهِ ﷺ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَكَّةَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ.

قَالَ لِي: انْظُرْ هَذِهِ الْعَافِيَةَ الَّتِي عِنْدَنَا فِي بِلَادِنَا، بِخِلَافِ بِلَادِكُمْ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ تَذُلُّ عَلَى صِحَّةِ دِينِنَا.

قُلْتُ: لَيْسَ أَحْكَامُكُمْ وَشَرِيعَةُ دِينِكُمْ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْإِنْجِيلِ؛ إِنَّمَا شَرَعُكُمْ عَلَى مَذْهَبِ الْمَجُوسِ الَّذِينَ كَانُوا بِرُومَةَ؛ وَكُتِبَ شَرِيعَتُكُمْ مُتَرْجَمَةً مِنْ كُتُبِهِمْ مِثْلُ الْكِتَابِ الْكَبِيرِ الْمُسَمَّى بِبَلْضٍ وَغَيْرِهِ.

قَالَ: صَدَقْتَ!.

وَجَلَسْنَا هُنَاكَ زَمَنًا طَوِيلًا وَهُوَ مَشْغُولٌ بِالْأَنْدَلُسِ؛ وَاخْتَجْتُ الرُّجُوعَ إِلَى

وَأَمَّا مَا قُلْتُهُ لِلْقَاضِي إِنَّ فِي دِينِ النَّصَارَى الزِّيَادَةَ وَالتُّقْصَانَ، فِي كُلِّ زَمَانٍ؛ فَهَذَا بُرْهَانٌ ذَلِكَ - كَمَا اشْتَرَطْتُ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ -: الْبُرْهَانُ وَالتُّقْصُوصُ مِمَّا نَذَكَّرُهُ؛ فَأَمَّا مَا يَكُونُ مِنْ كُتُبِهِمْ فَمِنْ الْمَكْتُوبِينَ بِالْقَالِبِ؛ وَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ أَصْحَابِ الْقَالِبِ أَنْ يَطْبَعَ كِتَابًا إِلَّا بِالْأَمْرِ مِنْ أَصْحَابِ الدِّيَّانِ بِالْإِجَازَةِ إِلَى صَاحِبِ التَّأْلِيفِ.

قال كُرْتِش^(١) الْمُنْجَمُ فِي كِتَابِهِ، وَأَيْضًا سَمُرَانُ الْإِسْبِيلِي - وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي مَدِينَةِ إِسْبِيلِيَّةِ اسْمًا وَعَيْنًا - وَأَيْضًا جَبِش؛ ذَكَرَ كُلُّ وَاحِدٍ فِي كِتَابِهِ مَا زَادَهُ وَمَا نَقَصَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَابِ.

فَأَمَّا الْبَابُ لِيُون: أَمَرَ بِأَنْ التَّسَاءَ يَدْخُلْنَ مُعْطِيَاتِ الرُّؤُوسِ إِلَى كَنَائِسِهِمْ.

الْبَابُ أَلْبِرْتُ أَنَانِي: أَمَرَ أَنْ كُلَّ نِكَاحٍ يَكُونُ بِحَضْرَةِ قَسِيسٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِحَضْرَتِهِ فَهُوَ زِنًا مَا لَا كَانَ قَبْلُ.

الْبَابُ إِسْكَنْدَرُ: أَمَرَ أَنَّ الْقَسِيسَ لَا يُصَلِّي إِلَّا صَلَاةً وَاحِدَةً فِي الْيَوْمِ وَزَادَ فِي فَرَائِضِ الصَّلَاةِ؛ وَأَمَرَ أَنَّ الْحَمَرَ الَّذِي يَشْرَبُ الْقَسِيسُ فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ أَنْ يَزِيدَ^(٢) لَهُ مَاءٌ وَأَنْ يَجْعَلُوا مَاءً مُبَارَكًا عَلَى أَبْوَابِ الْكَنَائِسِ؛ انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَأَقُولُ: إِنَّ مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ؛ الْقَسِيسُ الَّذِي يَوْمُ النَّصَارَى أَنَّهُ يُوحَدُ رَغِيْفًا رَقِيْقًا، قَدَّرَ كَفَّ الْإِنْسَانِ فِي الْإِنْشِرَاحِ مُسْتَدِيرَةً فِيهَا صُورَةُ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِذَا كَانَ فِي حَالِ الصَّلَاةِ، الَّتِي هِيَ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ مَرَّةً فِي كُلِّ يَوْمٍ أَحَدٍ وَبَعْضُ أَيَّامِ الْمَوَاسِمِ؛ وَبَعْدَ أَنْ يَقْرَأَ الْإِنْجِيلَ بِمَا يُنَاسِبُ لِذَلِكَ الْيَوْمِ؛ لِأَنَّ كُلَّ يَوْمٍ لَهُ جُزْءٌ مَعْرُوفٌ مِنَ الْإِنْجِيلِ، لِأَنَّهُمْ قَسَمُوا الْإِنْجِيلَ كُلَّهُ ثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، لِكُلِّ يَوْمٍ مِنَ السَّنَةِ جُزْءٌ، بَعْدَ أَنْ يَقْرَأَ الْإِمَامُ الْجُزْءَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ - وَعِنْدَ قِرَاءَتِهِ مِنَ الْكِتَابِ يَكُونُ جَمِيعُ النَّاسِ قَائِمِينَ عَرْيَانِي^(٣) الرُّؤُوسِ - ثُمَّ يَأْخُذُ الْقَسِيسُ الْقُرْصَةَ وَيَرْفَعُهَا فَوْقَ رَأْسِهِ لِيَرَاهَا الْمَأْمُومُونَ وَيَقُولُ

(١) كرتش: لعله مارتن كورتس دي ألباكار. (٢) في الأصل: يزيده.

(٣) في الأصل: عريانين.

كَلَامًا مَعْنَاهُ: هَذَا هُوَ جَسَدِي - وَهِيَ كَلِمَةٌ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْإِنْجِيلِ؛ لِأَنَّ فِيهِ أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِلْحَوَارِيِّينَ؛ وَهُوَ بِخُبْرٍ فِي يَدِهِ: هَذَا هُوَ جَسَدِي. وَقَالَ لَهُمْ عَلَى الْخَمْرِ: هَذَا هُوَ دَمِي. وَإِذَا رَفَعَ الْخَمْرَ فِي كَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: هَذَا هُوَ دَمِي؛ وَيَجْعَلُ الْقُرْصَةَ فِي الْخَمْرِ لِيَتْرُطَ قَلِيلًا ثُمَّ يَأْكُلُهَا ثُمَّ يَشْرَبُ الْخَمْرَ كُلَّهُ ثُمَّ يَرْجِعُ بِوَجْهِهِ إِلَى النَّاسِ وَيَقُولُ لَهُمْ: انْصَرِفُوا فَقَدْ أُتِمَّتِ الصَّلَاةُ؛ وَلَا يَتَوَضَّأُ أَحَدٌ وَلَا يَغْتَسِلُ أَبَدًا؛ بَلْ هُمْ مَتَنَجِّسُونَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. أَمَّا فِي الْبَاطِنِ فَبِإِعْتِقَادِهِمُ الشُّرْكَ وَالْبَاطِلَ فِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى وَفِي أَجْسَادِهِمْ وَمَا يَلْبَسُونَهُ كَذَلِكَ. وَإِذَا كَانَ لِلْمُصَلِّي كَلْبٌ أَوْ كِلَابٌ فَيَسْبِقُونَهُ لِلْكَيْسَةِ وَلَا يَرُدُّهَا أَحَدٌ.

وَفِيهَا أَضْنَامٌ مَصْنُوعَةٌ مِنَ الْخَشَبِ وَالْحِيطَانِ بِالصُّورِ؛ وَلَا يَذْفُونُ الْمَوْتَى إِلَّا فِي الْكَنَائِسِ. وَإِذَا كَانَ الْإِمَامُ فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ يَضْرِبُونَ آلَةَ الزَّمْرِ الْمُسَمَّى بِأَزْغُسٍ^(١)؛ يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسٍ وَعِشْرِينَ زُمْرَةً مِنْ نُحَاسٍ أَوْ مَعْدِنٍ غَيْرِهِ؛ وَبَعْضُ^(٢) مِنْهَا قَذَرُ الْخَشَبِ وَمُعَلَّمٌ يَضْرِبُهَا وَلَهَا حِسٌّ قَوِي وَلَذِيذٌ لِلسَّمْعِ؛ وَوَاحِدٌ يَصُوطُ كِيرًا لِكثْرَةِ رِيحِ اللَّمَزَامِرِ.

وَقَبْلَ أَنْ يُتِمَّ الصَّلَاةَ، يَنْزِلُ الْإِمَامُ مِنَ الْمِخْرَابِ، لِأَنَّهُ مُرْتَفِعٌ بِدُرُوجٍ، وَيَبْدِيهِ طَرَفَ حَرِيرٍ، عَلَى طُولِ ذِرَاعٍ، وَيَمْشِي بَيْنَ الرَّجَالِ، وَيَمُدُّ لَهُمُ الشُّقَّةَ يُقْبَلُونَهَا، وَصَبِيٌّ وَرَاءَهُ بِكَأْسٍ يَقْبِضُ الدَّرَاهِمَ الَّتِي يَعْطُونَهُ؛ وَإِذَا فَرَغَ مِنَ الرَّجَالِ يَدْخُلُ بَيْنَ النِّسَاءِ وَهُنَّ فِي غَايَةِ الزَّيْنَةِ وَكُلِّ وَاحِدَةٍ تَأْخُذُ الشُّقَّةَ مِنْ يَدِهِ وَتَقْبَلُهَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِمَامَ أَعْطَاهُمْ بِذَلِكَ الْعَافِيَةَ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مِخْرَابِهِ وَيُتِمُّ الصَّلَاةَ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَأَمَّا الْإِنْجِيلُ فَقَدْ ذُرْتُ فِيهِ سِتَّةٌ وَثَلَاثِينَ حِزْبًا مِنْ أَحْزَابِ الْقُرْآنِ.

وَقَدْ ذَكَرْتُ هَذَا كُلَّهُ كَمَا شَاهَدْتُهُ وَلِتَعْلَمُوا مَا بَيْنَ هَذِهِ عِبَادَةِ الْكَافِرِينَ وَعِبَادَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِنَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا بِإِعْتِقَادِ الْحَقِّ، وَطَهَارَةِ

(٢) فِي الْأَصْلِ: وَبَعْضًا.

(١) يَرِيدُ: آلَةُ تَسْمَى: Organs.

الْجَسَدِ وَالْمَلْبَسِ، وَالْجَامِعِ الطَّاهِرِ النَّقِيِّ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَذْرَانِ، لِأَنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ.

وظَهَرَ لِي أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ كَمَالِهَا خَلَقَ جَهَنَّمَ - نَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِنْهَا -؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^(١)، وَذَلِكَ كَمَالُ لِقِيَمَةِ الْجَنَّةِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّ بَرُوءِيَّةَ جَهَنَّمَ يَرَى مَا مَنَحَهُ اللَّهُ وَمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ نِعَائِمِ الْجَنَّةِ وَمِمَّا نَجَّاهُ وَبَزِيدَ فِي الشُّكْرِ عَلَيْهَا؛ وَكَذَلِكَ عَلَى مَا نَجَّاهُ مِنَ النَّارِ؛ وَكَذَلِكَ مَنْ يَرَى الْكُفْرَ فَيَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي نَجَّاهُ مِنْهُ، وَعَلَى هِدَايَتِهِ لِلْإِيمَانِ وَعَلَى تَوْحِيدِهِ.

وَأَمَّا الْبَابَا الرُّومِيُّ شَيْشَطُ^(٢): زَادَ فِي صَلَاتِهِمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تُقَالُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

الْبَابَا طَلَشْ أُونَانِي^(٣): افْتَرَضَ الصِّيَامَ مَا لَا كَانَ قَبْلَ زَمَانِهِ؛ وَأَنَّ الْقَسِيسَ يُصَلِّي ثَلَاثَ صَلَوَاتٍ يَوْمَ مِيلَادِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَزَادَ مَا يُعْنَى بِهِ فِي بَعْضِ الصَّلَوَاتِ.

وَبَابَا آخَرُ: أَمَرَ أَنَّ مَنْ كَانَ قَسِيسًا أَوْ رَاهِبًا يَقْصُرَ لِحْيَتَهُ.

بَابَا آخَرُ: سَنَّ صِيَامًا غَيْرَ الْقَرَضِ.

وَبَابَا آخَرُ أَمَرَ أَنَّ الْكَأْسَ الَّذِي يَعْْمَلُونَ فِيهِ الْخَمْرَ عِنْدَ الصَّلَاةِ، لَا يَكُونُ مِنْ رُجَاجٍ، كَمَا كَانَ قَبْلَ إِلَّا مِنْ فِضَّةٍ.

وَبَابَا آخَرُ: أَمَرَ أَنَّهُ إِذَا دُعِيَ عَلَى نَضْرَانِي فِي الْأَحْكَامِ، إِذَا كَانَ الدَّاعِي عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ النَّصَارَى أَنْ لَا تُقْبَلَ دَعْوَتُهُ.

وَبَابَا آخَرُ: أَمَرَ أَنَّ لَا يَصُومَ أَحَدٌ قَرَضًا وَلَا سُنَّةً، يَوْمَ الْأَحَدِ، وَلَا يَوْمَ الْخَمِيسِ ثُمَّ فُسِّخَ الْأَمْرُ.

(١) سورة مريم، آية: ٧١.

(٢) من المحتمل أن يكون البابا سكستوس الثالث (٤٣٢ - ٤٤٤ م).

(٣) هو المعروف بـ «فيتاليانوس».

وَبَابَا آخَرُ: أَمَرَ أَنْ بَعْدَ قِرَاءَةِ الْإِنْجِيلِ، فِي بَعْضِ الصَّلَوَاتِ، تُقْرَأُ عَقِيدَةُ الشُّرُكِ، الَّتِي هِيَ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ حِفْظُهَا. قَالَ سَمُرَانُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ: إِنَّ الَّذِي عَمِلَ الْعَقِيدَةَ كَانَ الطَّنَاشِي^(١) اسْمُهُ؛ رَجُلٌ قَسِيسٌ بَعْدَ سَيِّدِنَا عِيسَى بِسِنَّينَ كَثِيرَةٍ.

البَابَا مَارَكُ^(٢) الرُّومِي: أَمَرَ لِلْقُضَاةِ فِي الْأَحْكَامِ أَنْ لَا يَقْضُوا عَلَى قَسِيسٍ؛ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْقَسِيسِينَ قَاضٍ مِنْهُمْ.

وَبَابَا آخَرُ: زَادَ فِي الصَّلَاةِ شَيْئَيْنِ.

وَبَابَا آخَرُ: أَمَرَ أَنَّ الْقَسِيسَ الْإِمَامَ يَعْطِي الصُّلْحَ بَيْنَ النَّاسِ - وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْفِعْلِ كَيْفَ كَانَ.

وَالْبَابَا بِجَلِّي الرُّومِي^(٣): أَمَرَ أَنْ تُسَمَّى الصَّالِحَةُ مَرْيَمَ بِأَمِّ كَذَا وَأَلَّا تُسَمَّى إِلَّا بِذَلِكَ الْأِسْمِ؛ فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ إِلَى الْآنَ عِنْدَ النَّصَارَى وَالتَّابِعِينَ لَهُ؛ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَخَذَلَهُمُ؛ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُّوا كَبِيرًا. وَكَانَ ذَلِكَ بِقُرْبِ نِصْفِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ مِيلَادِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمَّا اشْتَهَرَ هَذَا الْأَمْرُ الشَّنِيعُ بِهِذَا الْأِسْمِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ قَبْلَ وَعُمِلَ بِهِ عِنْدَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ؛ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا ﷺ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَدِينِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَكَذَّبَهُمْ فِيمَا قَالُوا وَافْتَرَوْا وَنَزَلَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبُ وَالْخَوْفُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - نَصَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ - فَكَمْ بَلَدٍ أَخَذُوا مِنْ بِلَادِهِمْ، وَهَذَا أَلْفُ سَنَةٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَكْثَرُ مَعْمُورِ الدُّنْيَا لِلْمُسْلِمِينَ.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يُقَوِّيَ الْإِسْلَامَ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَأْخُذُوا مَا بَقِيَ لَهُمْ وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِيمَا هُوَ قَرِيبٌ، بِفَضْلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الشَّفِيعِ الْحَبِيبِ الَّذِي زُيِّنَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَرَأَى الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَتَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ وَلَادَةَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لِأَخْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً وَسِتِّ مِائَةٍ عَلَى حِسَابِ سَمُرَانَ. وَنَظَرْتُ الْحِسَابَ الَّذِي أَمَكَّنَنِي وَوَجَدْتُ وَلَادَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي

(٢) هو البابا ماركوس الذي توفي سنة ٣٣٦ م.

(١) اسمه اثناسيوس.

(٣) هو البابا فيجيليوس (٥٣٧ - ٥٥٥).

نَحْوَ الْخُمْسِ مِائَةٍ وَثَمَانِينَ بِتَقْرِيْبٍ أَوْ أَقَلٍّ، وَذَلِكَ فِي الْفَرَنِ الَّذِي أَشْهَرَ بِجَلِّي^(١) اللَّعِينُ، وَسَمَّى الصَّالِحَةَ مَرْيَمَ بِأَمِّ كَذَا، وَلَيْسَ بَيْنَ مَا أَمَرَ بِهِ وَوِلَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا نَحْوُ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بِتَقْرِيْبٍ.

وَاعْلَمْ أَنَّ تَسْمِيَةَ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ بِابْنِ اللَّهِ؛ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ فِي الْإِنْجِيلِ أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ حَقِيقَةً؛ إِنَّمَا يُفْهَمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ مَقْبُولٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَدْ قَرَأْتُ فِي الْإِنْجِيلِ أَنَّ وَاحِدًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ قَالَ لِسَيِّدِنَا عِيسَى: أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ حَقِيقَةً؟ قَالَ لَهُ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْتَ قُلْتَ؛ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ ذَلِكَ. وَأَمَّا الْإِنْجِيلُ الَّذِي كَتَبْتُ مِنْهُ هَذِهِ التُّصُوصَ فَحَذَفُوا مِنْهُ ذَلِكَ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الْإِنْجِيلِ تَرَجَمْتُ مِنَ الرَّقِّ؛ وَقَالَ لِي الْقَسِيسُ: هَذِهِ الْكَلِمَةُ مُخْتَلِفَةٌ لِمَا عِنْدَنَا الْيَوْمَ؛ وَهَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَيَنْقُصُونَ فِي إِنْجِيلِهِمْ وَكُتِبَ دِينِهِمْ. وَبِرْهَانٍ مَا قُلْنَا أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى كَانَ ابْنُ اللَّهِ كَعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

قَالَ فِي الْبَابِ الثَّامِنِ مِنَ الْإِنْجِيلِ لِمَتَّى: قَالَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْحَوَارِيِّينَ: «فَلْيَضِئْ نُورُكُمْ فُذَامِ النَّاسِ لِيَرَوْا أَعْمَالَكُمْ الصَّالِحَةَ وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمْ الَّذِي فِي السَّمَوَاتِ».

وَقَالَ فِي الْفَضْلِ التَّاسِعِ: «أَحْسِنُوا إِلَى مَنْ أَبْغَضَكُمْ، وَصِلُوا مَنْ يَطْرُدُكُمْ وَيَغْتَضِبُكُمْ، لِكَيْمَا تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَوَاتِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «كُونُوا أَنْتُمْ مِثْلَ أَبِيكُمْ السَّمَاوِيِّ فَهُوَ كَامِلٌ».

وَقَالَ فِي دُعَاءِ عِنْدَهُمْ؛ كَالْفَاتِحَةِ عِنْدَنَا؛ وَهُوَ فِي الْإِنْجِيلِ أَنْ يَقُولُوا: «أَبُونَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ»، فَهَذَا ظَاهِرٌ أَنَّهُ سَمَّى الصُّلَحَاءَ بَلَّ جَمِيعِ النَّاسِ بِأَبْنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى؛ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِالدُّعَاءِ الَّذِي قَالَ لَهُمْ أَنْ يَدْعُوا بِهِ وَهُوَ: «أَبُونَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ». وَبَيَّانٌ مِنْ هَذَا أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ يَغْتَقِدُونَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ نَبِيًّا وَهُوَ بِنَفْسِهِ يَغْتَقِدُ أَنَّ مَنْ كَانَ صَالِحًا كَانَ ابْنُ اللَّهِ.

وَهَذَا الْبَابُ الْمَلْعُونُ الَّذِي أَمَرَ أَنَّ الصَّالِحَةَ مَرْيَمَ يَكُونُ اسْمُهَا عِنْدَ النَّصَارَى إِلَّا أُمَّ كَدَا، فَهُوَ بِخِلَافِ مَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَمْ يَتَجَسَّرَ أَحَدٌ قَبْلَهُ أَنْ يَقُولَ مِثْلُ مَا قَالَ هُوَ.

وَبِهَذَا يَثْبُتُ مَا قُلْتُهُ لِلْقَاضِي عَلَى الزِّيَادَةِ وَالتَّقْصَانِ الَّذِي فِي دِينِ النَّصَارَى، حِينَ دَعَانِي لِدِينِهِ، مِمَّا زَادَ الْبَابُ وَتَقْصَصَ؛ وَالْبَابُ مَفْتُوحٌ الْآنَ لِذَلِكَ.

وَقَالَ مَتَّى فِي الْإِنْجِيلِ: قَالَ عِيسَى: «انْظُرُوا أَلَا يَضِلُّكُمْ أَحَدٌ لَأَنَّ كَثِيرِينَ يَأْتُونَ بِاسْمِي يَقُولُونَ: أَنَا هُوَ عِيسَى وَيَضِلُّونَ وَيَخْدَعُونَ كَثِيرًا». وَهَذَا الْقَوْلُ فِي الْفَضْلِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ.

وَقَدْ طَالَعْتُ بِيْلَادَ الْفَلَمَنْكُ^(١) وَفِي غَيْرِهَا كِتَابًا بِالنُّصُوصِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْكِتَابِ الْقَدِيمَةِ؛ وَذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْبَابَا هُوَ الدَّجَالُ الْمَذْكُورُ أَنَّهُ يَأْتِي فِي الدُّنْيَا؛ وَهَذَا لِمَا رَأَوْا مِنْ قَبِيحِ فِعْلِهِ؛ وَأَمَّا الدَّجَالُ فَمَا زَالَ مَا ظَهَرَ.

وَكُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ وَاحِدًا مِنَ الْبَابَوَاتِ^(٢) كَانَ امْرَأَةً زَانِيَةً حَمَلَتْ وَفَضَحَهَا اللَّهُ. وَلَمْ تَتَحَقَّقْ ذَلِكَ، إِلَى أَنْ طَالَعْتُ كِتَابًا قَدِيمًا مَكْتُوبًا بِالْقَالِبِ وَصَحَّحَ ذَلِكَ؛ ثُمَّ كِتَابًا آخَرَ، وَذَكَرَ مُؤَلَّفُهُ أَنَّهُ طَالَعَ اثْنِي عَشَرَ كِتَابًا مِنْ كُتُبِهِمْ، وَذَكَرَ كُلَّ كِتَابٍ بِاسْمِ مُؤَلَّفِهِ؛ وَالْحِكَايَةَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدَةٍ؛ وَتَرَكْتُ أَسْمَاءَ الْكُتُبِ لِلَاخْتِصَارِ. وَالَّذِي ذَكَرُوا فِيْمَا قَرَأْتُ:

أَنَّ بِيْلَادَ الْإِنْجِيلِزِ كَانَتْ بِنْتُ نَضْرَانِيَّةَ اسْمُهَا جِلْبِزَتْ؛ وَزَنَى بِهَا رَجُلٌ مِنْ أَكَابِرِهِمْ فِي الْعِلْمِ، وَمَشَى بِهَا إِلَى مَدِينَةِ أُطِينَاشِ بِيْلَادِ الْيُونَانِ، وَأَخْفَتْ نَفْسَهَا بِبِلَاسِ الرُّجَالِ وَسُمِّيَتْ بِجَوَانٍ؛ وَبَلَغَتْ فِي الْعِلْمِ مَبْلَغًا عَظِيمًا. وَبَعْدَ سِنِينَ جَاءَتْ إِلَى مَدِينَةِ رُومَةَ؛ وَالنَّاسُ يَقْرَأُونَ الْعِلْمَ عَلَيْهَا؛ إِلَى أَنْ مَاتَ الْبَابَا الْمُسَمَّى بِلْيُونٍ؛ وَذَلِكَ سَنَةً اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَثَمَانِ مِائَةٍ مِنْ حِسَابِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَوَلَّتْ هِيَ الْكُرْسِيَّ وَصَارَتْ بَابَا مِنَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ فِيهِ أَنَّهُ إِلَهُ الْأَرْضِ: يَغْفِرُ الذُّنُوبَ لِلنَّاسِ؛ هُوَ وَجَمِيعُ أَيْمَةِ دِينِهِمْ بِبَرَكَتِهِ.

وَكَانَ لَهَا مَمْلُوكٌ أَوْ خَدِيمٌ، وَحَمَلَتْ مِنْهُ وَمَشَتْ يَوْمًا لِرِيزَارَةِ مَوْضِعٍ يُسَمَّى
لِثْرَا - أَغْنِي: كُنَيْسَةً - وَمَعَهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ؛ فَأَخَذَهَا وَجَعَ النُّفَاسِ، وَوَقَفَتْ وَالنَّاسُ
مَعَهَا إِلَى أَنْ وَلَدَتْ؛ وَلَمَّا سَمِعُوا عِيَاطَ الْمَوْلُودِ، بَانَ لَهُمْ مَا كَانَ مَخْفِيًا عَنْهُمْ؛
وَمَاتَتْ فِي الْحَيْنِ؛ وَنَزَلَ بِجَمِيعِ النَّصَارَى وَالْقَسِّيْسِينَ وَالرُّهْبَانَ حُزْنٌ وَخِزْيٌ وَدُلٌّ
عَظِيمٌ. وَالزَّمَنُ الَّذِي كَانَتْ فِي التَّوَلِيَةِ قَدَرِ سَتَيْنِ وَكَذَا وَثَلَاثِينَ يَوْمًا.

وَاجْتَمَعَ كُبَرَاؤُهُمْ فِي الدِّيَّوَانِ، وَدَبَّرُوا تَذْيِيرًا جَدِيدًا لِثَلَاثِ يَمَاقِطٍ لَهُمْ مِثْلُ
ذَلِكَ؛ أَنَّهُمْ إِذَا عَيَّنُوا أَبَا يَأْتِي^(١) إِلَيْهِ الشُّهُودُ الْعُدُولُ وَيُقْلَبُونَهُ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ
ذَكَرَ. وَأَمَّا الزُّنْفَةُ الَّتِي وَلَدَتْ فِيهَا فَلَا يَجُوزُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الْبَابَا.

(١) فِي الْأَصْلِ: يَأْتُوا.

البَابُ السَّابِعُ

فِي رُجُوعِنَا إِلَى مَدِينَةِ بَرِيشَ وَمَا اتَّفَقَ لَنَا فِيهَا

وَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ بَرَائَاتِ السُّلْطَانِ مَا قَضَتْ بِهَا شَيْئًا، وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْحَوَائِجِ مِنْ إِحْدَى سُفُنِنَا كَانَتْ مُنْزَلَةً آمِنَةً؛ وَلَبِثْنَا إِلَى بَرِيشَ نَطْلُبُ أَمْرَ السُّلْطَانِ أَنْ يَذْفَعُوا لَنَا حَوَائِجَنَا؛ وَوَلَّى أَيْضًا قَاضِي الْأَتْدَلْسِ إِلَى بَرِيشَ.

وَمَشَيْتُ يَوْمًا إِلَى دَارِهِ، قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، نَطْلُبُ مِنْهُ بَعْضَ الْمَوَاجِبِ؛ قَالَ الْقَاضِي: أَتُحِبُّ تَتَعَشَّى عِنْدَنَا؟

قُلْتُ: لَا يَجُوزُ لِي بَعْضُ طَعَامِكُمْ!.

قَالَ: مَا نُعْطِيكَ إِلَّا مَا يَجُوزُ فِي دِينِكُمْ؛ وَعِنْدَنَا ضَيْفٌ مِنْ أَكَابِرِ الْمَمْلَكَةِ، وَنُحِبُّ أَنْ تَكُونَ عِنْدَنَا.

وَكَانَتْ لَيْلَةُ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ عَامِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَأَلْفَ. وَفَهِمْتُ مِنْهُ أَنَّهُ أَحَبُّ الْكَلَامِ فِي الْأَذْيَانِ لِيُشْرَحَ الضَّيْفُ؛ لِأَنَّ كُبَرَاءَ الْفَرَنْجِ يَفْرَحُونَ بِالْمَسَائِلِ الْغَرِيبَةِ فَدَخَلْتُ مَعَهُ؛ وَأَعْطَوْنِي كُرْسِيًّا مِثْلَ كُرَاسِيهِمْ - وَالْمَائِدَةُ بَيْنَنَا - وَحَمَاهُ الْقَاضِي قَاعِدَةً؛ وَكَانَتْ «مَوْلَةً» بَلَدٍ يُسَمَّى: الطَّرِ؛ وَابْنُهَا قَاضٍ وَأَخُوهَا قَاضٍ أَيْضًا، وَالرَّجُلُ الْكَبِيرُ الشَّانِ قَاعِدٌ مَعَ الْجَمِيعِ.

وَقَالُوا لِلضَّيْفِ هَذَا رَجُلٌ تُرْكِيٌّ - لِأَنَّ الْفَرَنْجَ لَا يَقُولُونَ لِلْمُسْلِمِ إِلَّا تُرْكِيٍّ - وَذَكَرُوا لَهُ السَّبَبَ الَّذِي أَلْجَأَنِي لِلْقُدُومِ إِلَى بِلَادِهِمْ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا ظَهَرَ لَهُمْ؛ وَالْمَرْأَةُ تَرْفُدُ مِنَ الطَّعَامِ، وَتَضَعُهُ قُدَّامِي وَأَيْضًا أَخُوهَا وَابْنُهَا.

فَالْقَاضِي ابْتَدَأَ بِالْكَلامِ - أَغْنِي قَاضِي الْأَنْدَلُسِ - وَقَالَ لِي: هَلْ عِنْدَكُمْ صِيَامٌ فِي دِينِكُمْ فَرَضُ؟

قُلْتُ لَهُ: عِنْدَنَا شَهْرٌ قَمَرِي فِي الْعَامِ.

قَالَ لِي: كَيْفَ هُوَ صِيَامُكُمْ؟

قُلْتُ لَهُ: نُمْسِكُ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، مِنْ انْشِقَاقِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ.

قَالَ: نَحْنُ عِنْدَنَا صِيَامٌ فَرَضُ، فِي كُلِّ سَنَةٍ، أَكْثَرُ مِنْ صِيَامِكُمْ، وَهُوَ تِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ يَوْمًا مُتَوَالِيَةً.

قُلْتُ لَهُ: كَيْفَ هُوَ صِيَامُكُمْ؟ وَأَنَا عَارِفٌ بِهِ.

قَالَ: نَأْكُلُ فِي نِصْفِ النَّهَارِ سَاعَةً مُغْتَدِلَةً ثُمَّ نُمْسِكُ عَنِ الْأَكْلِ إِلَى اللَّيْلِ؛ وَفِي أَوَّلِهِ نَأْكُلُ أَقَلَّ طَعَامًا مِمَّا أَكَلْنَا فِي نِصْفِ النَّهَارِ.

قُلْتُ لَهُ: مَا السُّرُّ فِي الصَّوْمِ وَالْمُرَادُ بِهِ؟ لِأَنَّهُ فِي دِينِنَا هُوَ لِنَرْدُ النَّفْسَ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَنُزِيلَ مِنْ قُوَّتِهَا بِالصَّوْمِ.

قَالَ لِي: نَحْنُ كَذَلِكَ!.

قُلْتُ لَهُ: بَلْ تَرِيدُونَ فِي قُوَّتِكُمْ بِهَذَا الصِّيَامِ.

قَالَ لِي: كَيْفَ ذَلِكَ؟

قُلْتُ لَهُ: قَالَ بُقْرَاطُ وَجَالِينُوسُ وَابْنُ سِينَا، وَجَمِيعُ الْأَطْبَاءِ، مُتَّفِقُونَ مَعَهُمْ أَنَّ لِحِفْظِ الصَّحَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَأْكُلَ الْإِنْسَانُ فِي نِصْفِ النَّهَارِ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْكُلُ فِي اللَّيْلِ؛ وَصِيَامُكُمْ عَلَى مُفْتَضَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ؛ فَلَا يُزِيلُ الصَّائِمُ شَيْئًا مِنْ قُوَّةِ الْجَسَدِ بَلْ يَزِيدُ فِيهِ قُوَّةً؛ لِأَنَّ مِنْ حِفْظِ الصَّحَةِ تَرْدَادُ الْقُوَّةِ. وَتَكَلَّمَ الْقَاضِي مَعَ الْجَمِيعِ بِالْفَرَنْجِيَّةِ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ - كَمَا قُلْنَا - اللِّسَانَ الْعَجَمِي الْأَنْدَلُسِي وَهُمْ يُدَبِّرُونَ بَيْنَهُمْ مَاذَا يَقُولُونَ لِي.

ثُمَّ قَالَ: اعْلَمْنَا أَنَّ فِي أَيَّامِ الصِّيَامِ مَا نَأْكُلُ لَحْمًا وَفِي غَيْرِهِ نَأْكُلُ لَحْمَ الدَّجَاجِ؛ وَلَا يَخْفَى أَنَّ لَهَا قُوَّةً لَا سِيَّمَا الْخَصِيءُ مِنْهَا لَهُ قُوَّةٌ.

قُلْتُ لَهُ: نَعَمْ، لَحْمِ الدَّجَاجِ لَهُ قُوَّةٌ وَغِذَاءٌ نَافِعٌ، وَالْقَلِيلُ مِنْهُ يَكْفِي
الْإِنْسَانَ؛ وَإِذَا لَمْ يَكُنِ اللَّحْمُ وَوَجَدَ أَطْعَمَةً كَثِيرَةً مِثْلَ هَذَا الَّذِي رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَيْدِينَا
هُنَا، فَيَأْكُلُ الْإِنْسَانُ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ حَتَّى يَصِلَ إِلَى قُوَّةِ اللَّحْمِ فِي الْغِذَاءِ، وَلَكِنْ فِي
أَكْثَرِ مِقْدَارٍ مِنَ الطَّعَامِ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ صِيَامِهِمْ. فَأَخَذُوا فِي الْكَلَامِ فِيمَا
بَيْنَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ مَا يَقُولُونَ؛ وَمَا اتَّفَقَ لَهُمْ شَيْءٌ لِتَقْوِيَةِ حُجَّتِهِمْ.

وَانْتَقَلَ إِلَى مَسْأَلَةٍ أُخْرَى وَقَالَ: مَا السَّبَبُ حَتَّى مَنَعَكُمْ نَبِيُّكُمْ
الْخَمْرَ؟

قُلْتُ: مَنَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى، لِأَنَّ أَفْضَلَ مَا تَكَرَّمَ بِهِ عَلَى بَنِي آدَمَ هُوَ الْعَقْلُ
وَالَّذِي يُزِيلُهُ هُوَ الْخَمْرُ، وَهُوَ أَقْبَحُ الْمَسَائِلِ كُلِّهَا.

قَالَ: حَتَّى عِنْدَنَا هُوَ مَمْنُوعٌ أَنْ يَشْرَبَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ حَتَّى يَسْكُرَ!.

قُلْتُ: ظَهَرَ لِي أَنَّهُ مَمْنُوعٌ لَكُمْ فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا انْتَبَهْتُمْ لَهُ!.

قَالُوا: فِي أَيِّ مَوْضِعٍ؟

قُلْتُ: فِي الدُّعَاءِ الَّذِي أَمَرَكُم بِهِ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ تَدْعُوا بِهِ؛
وَأَوَّلُهُ: «أَبُونَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ»، إِلَى أَنْ تَقُولُوا: «وَلَا تَدْعُنَا نَقَعُ عِنْدَ فِتْنَةِ النَّفْسِ»،
وَأَخْرُونَ يُتْرَجِمُونَ: «وَلَا تَدْخِلْنَا التَّجْرِبِ»، وَهُمْ الْأَكْثَرُ؛ وَالْأَوَّلُ عِنْدِي هُوَ
الصَّحِيحُ.

قَالُوا: عِنْدَنَا هَذَا.

قُلْتُ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ تَأْخُذَ الْفِتْنَةُ بِبَيْدِكَ، وَتَطْلُبُ أَنْ لَا يَدْعَكَ تَقَعُ عِنْدَهَا؟
لَأَنَّكَ إِذَا زِدْتَ مِنَ الْخَمْرِ قَلِيلًا عَنِ الْعَادَةِ يَذْهَبُ بِالْعَقْلِ؛ وَإِذَا ذَهَبَ وَقَعَتْ فِي
الْفِتَنِ، مَعَ طَلَبِكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ لَا يَدْعَكَ تَقَعُ.

قَالَ: نَحْنُ نَحْفَظُ فِي شُرْبِنَا حَتَّى لَا يَذْهَبَ الْعَقْلُ.

قُلْتُ لَهُمْ: عِنْدِي أَنَّ مَنْ هُوَ مِثْلُكُمْ، قُضَاءٌ وَعُلَمَاءُ، وَمِنْ أَكْبَرِ النَّاسِ أَنَّ
الْإِنْصَافَ لِلْحَقِّ مَوْجُودٌ عِنْدَكُمْ، وَالْبُعْدُ عَنِ الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ؛ وَإِلَى هَذَا تَحْلِفُونَ
بِدِينِكُمْ أَنَّكُمْ مَا زِدْتُمْ قَطُّ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ، حَتَّى ذَهَبَ بِالْعَقْلِ؟.

وَتَكَلَّمُوا بَيْنَهُمْ وَضَحِكُوا جَمِيعًا؛ وَبِضَحِكِهِمْ اعْتَرَفُوا بِمَا رَأَوْا مِنْ نَفْسِهِمْ
مِرَارًا، مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْفِتْنَةِ بِكَثْرَةِ الشَّرْبِ.

وَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ كَأْسًا وَوَضَعَتْ فِيهِ نُقْطَةً خَمْرٍ، وَزَادَتْ عَلَيْهِ مَاءً كَثِيرًا
وَقَالَتْ لِصَهْرِهَا: قُلْ لَهُ أَيُّ قُوَّةٍ لِلْخَمْرِ مَعَ هَذَا الْمَاءِ؟.

قُلْتُ: أَمَّا هَذَا الْكَأْسُ فَظَاهِرٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مِنَ الْخَمْرِ إِلَّا قَلِيلًا؛ وَأَمَّا فِي
بَعْضِ الْمَرَاتِ فَمَا تَجْعَلُ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمَاءِ؛ وَضَحِكَتْ كَأَنَّهَا اغْتَرَفَتْ.

قُلْتُ لَهُمْ: طَالَعْتُ كِتَابًا مِنْ كُتُبِكُمْ بِالْعَجَمِيَّةِ وَقَالَ فِيهِ: إِنَّ فِي مَدِينَةِ كَبِيرَةٍ
- أَظُنُّ أَنَّهَا بِاطَالِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ النَّصَارَى - يُعَيِّنُ النَّاسُ حُكَّامًا لِسَنَةِ كَامِلَةٍ؛ وَإِذَا
انْصَرَمَتْ يَجْعَلُونَ غَيْرَهُمْ فِي الْمَنْصَبِ لِسَنَةِ أُخْرَى؛ وَعِنْدَهُمْ قَاعِدَةٌ وَأَمْرٌ مَعْمُولٌ
بِهِ: أَنَّ كُلَّ مَنْ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ لَا يَشْرَبُ خَمْرًا مَا دَامَ فِي سَنَّتِهِ. وَهَذَا أَمْرٌ
ظَاهِرٌ وَبَائِنٌ أَنَّهُمْ مَنَعُوهُمْ مِنْ شُرْبِهِ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، إِلَّا لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَقَاسِدِ
لِشَارِبِهِ وَلِلنَّاسِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ عَلَيْهِمْ.

قَالُوا: هَذَا حَقٌّ، وَلَكِنْ هُوَ مُبَاحٌ إِذَا لَمْ يَتَّعَدْ فِي الشَّرْبِ.

قَالَتْ الْمَرْأَةُ لِصَهْرِهَا: قُلْ لَهُ كَيْفَ أَبَاحَ لَكُمْ نَبِيِّكُمْ أَنْ تَنْكِحُوا أَرْبَعَ نِسَاءٍ
وَمَنْعَكُمْ الْخَمْرَ؟ وَالْمَفْهُومُ مِنْ كَلَامِهَا وَاعْتِقَادِهَا أَنَّ الْخَمْرَ يَزِيدُ قُوَّةَ الْجَمَاعِ.

قُلْتُ لَهَا: الْخَمْرُ يَزِيدُ لِشَارِبِهِ أَمْرَاضًا وَنُعَاسًا؛ وَشَارِبُ الْمَاءِ يَعْيشُ
صَحِيحًا.

قُلْتُ لَهُمْ: قَرَأْتُ فِي الْإِنْجِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَهُ مَلَكٌ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ وَقَالَ لَهُ: قَدْ قَبِلَ اللَّهُ دُعَاكَ وَامْرَأَتُكَ الْيَصَبَاتِ تَلِدُ ابْنًا لَكَ، يُدْعَى
بِاسْمِهِ يُوْحَنَّا وَيَكُونُ لَكَ فَرْحٌ عَظِيمٌ وَتَهْلِيلٌ؛ وَكَثِيرٌ يَفْرَحُونَ بِمَوْلِدِهِ؛ وَيَكُونُ
عَظِيمًا قُدَّامَ الرَّبِّ، لَا يَشْرَبُ خَمْرًا وَلَا مُسْكِرًا.

قُلْتُ لَهُمْ: هَذَا عِنْدَكُمْ فِي الْإِنْجِيلِ؟

قَالُوا: نَعَمْ؛ هَكَذَا هُوَ!.

قُلْتُ لَهُمْ: هَذَا الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ الْمَلَكُ، مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، أَنَّهُ لَا يَشْرَبُ خَمْرًا وَلَا مُسْكِرًا؛ هُوَ كَمَالٌ فِي حَقِّ الْوَلَدِ أَمْ نُقْصَانٌ؟

قَالُوا: إِنَّمَا ذَلِكَ كَمَالٌ فِيهِ. قُلْتُ لَهُمْ: كَذَلِكَ هُوَ كَمَالٌ فِي دِينِنَا أَنْ لَا نَشْرَبَ خَمْرًا وَلَا مُسْكِرًا.

فَحِينَئِذٍ أَخَذُوا فِي الْكَلَامِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا لِي: نَحْنُ رَأَيْنَا رِجَالًا مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ، وَتَكَلَّمْنَا مَعَهُمْ، وَلَمْ نَرِ قَطُّ مَنْ قَالَ لَنَا مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ، وَالْأَجْوِبَةِ الَّتِي رَأَيْنَاهَا وَسَمِعْنَاهَا مِنْكَ.

قُلْتُ لَهُمْ: ااعلموا أَنَّنِي تُرْجِمَانُ سُلْطَانِ مَرَّاكُش؛ وَمَنْ كَانَ فِي تِلْكَ الدَّرَجَةِ يَحْتَاجُ يَقْرَأُ فِي الْعُلُومِ وَكُتُبِ الْمُسْلِمِينَ وَكُتُبِ النَّصَارَى، لِيَعْرِفَ مَا يَقُولُ وَمَا يُتْرَجَمُ بِحَضْرَةِ السُّلْطَانِ، وَأَمَّا إِذَا كُنْتُ بِحَضْرَةِ عُلَمَاءِ دِينِنَا فَلَا أَقْدِرُ أَنْتَكَلَّمَ فِي الْعُلُومِ بِحَضْرَتِهِمْ.

حِينَئِذٍ أَرَدْتُ أَنْ أَقُومَ لِأَذْهَبَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي كُنْتُ نَازِلًا بِهَا؛ وَقَالُوا لِي: لَا تَقُمْ، نَحْنُ نَبْعَثُ مَعَكَ خُدَامَنَا وَاقْعُدْ مَعَنَا لِلْكَلامِ.

قَالَتِ الْمَرْأَةُ: كَيْفَ أَبَاحَ لَكُمْ نَبِيُّكُمْ أَنْ تَنكِحُوا أَرْبَعَةَ نِسَاءٍ وَاللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَمْ يَغْطِ لِأَبِينَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً؟ وَلَمَّا رَأَى الْقَضَاءُ الْحَاضِرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ عَقْلِيَّةٌ أَعَانُوهَا وَتَقَوُّوا عَلَيَّ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ.

قُلْتُ لَهُمْ: أُمَّنَا حَوَاءُ^(١) ظَهَرَتْ فِيهَا بَرَكَةٌ أَكْثَرَ مِمَّا تَظْهَرُ فِي أَرْبَعَةِ نِسَاءٍ مِنْ زَمَانِنَا؛ لِأَنَّهَا وَلَدَتْ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً ذُكُورًا وَإِنَاثًا؛ وَنِسَاءُ زَمَانِنَا: إِخْدَى تَكُونُ مَرِيضَةً وَأُخْرَى عَاقِرَةً مَا تِلِدُ أَبَدًا، وَمِثْلُ الْأَعْرَاضِ كَثِيرَةٌ فِيهِنَّ مَا لَا كَانَتْ فِي أُمَّنَا حَوَاءَ.

قَالُوا: سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ أَنْ لَا يَتَزَوَّجَ الرَّجُلُ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً وَأَنْتُمْ تَأْخُذُونَ أَرْبَعًا.

(١) فِي الْأَصْلِ: حَوَى.

قُلْتُ لَهُمْ: الْأَنْبِيَاءُ الْأَوَّلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِثْلُ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَسَيِّدِنَا يَعْقُوبَ وَغَيْرِهِمْ؛ فِي أَيِّ مَقَامٍ هُمْ عِنْدَكُمْ؟

قَالُوا: فِي مَقَامٍ مَحْمُودٍ وَمَرْضِيٍّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قُلْتُ: كَانَتْ لَهُمْ نِسَاءٌ كَثِيرَةٌ وَجَوَارِي كَمَا فِي دِينِنَا؛ وَكَانَ لِسَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَبْعُمِائَةِ امْرَأَةٍ بِالنِّكَاحِ وَثَلَاثَ مِائَةٍ جَارِيَةٍ - كَمَا هُوَ فِي التَّوْرَةِ.

قَالُوا: ذَلِكَ الزَّمَنُ أُبَيِّحَ ذَلِكَ لِيَكْثُرَ النُّسْلُ وَالْآنَ الدُّنْيَا عَامِرَةٌ.

قُلْتُ: قَرَأْتُ فِي التَّوْرَةِ فِي كُتُبِ التَّوَارِيخِ أَنَّ بَعْضَ السَّلَاطِينِ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ، كَانُوا يَحْرُكُونَ بِثَمَانٍ مِائَةِ أَلْفٍ رَجُلٍ جَيْشٍ؛ وَالْآنَ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا سُلْطَانٌ مَن يَجْمَعُ لِلْحَرْبِ ذَلِكَ الْعَدَدَ إِلَّا السُّلْطَانُ السَّيِّدُ الْكَبِيرُ؛ وَهَذَا بُرْهَانٌ أَنَّ الدُّنْيَا كَانَتْ عَامِرَةً.

ثُمَّ قَالَ لِي الْقَاضِي: وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ، لِمَاذَا هُوَ مَمْنُوعٌ عِنْدَكُمْ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ نَجِسٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَأْكُلُ إِلَّا النَّجَاسَاتِ؛ وَحَتَّى فِي الْإِنْجِيلِ هُوَ مَمْنُوعٌ!.

قَالُوا: لَيْسَ بِمَمْنُوعٍ، وَإِنَّ الْمَنَعَ فِي الْإِنْجِيلِ؟

قُلْتُ: قَرَأْتُ فِيهِ أَنَّ مَجْنُونَيْنِ كَانَا فِي الْمَقَابِرِ؛ رَدِيَانِ جِدًّا؛ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَجُوزَ مِنْ تِلْكَ الطَّرِيقِ؛ فَصَاحَا قَائِلِينَ: مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَصُوعُ ابْنُ اللَّهِ، أَجِئْتَ هَهُنَا لِنُعَذِّبَنَا؟ وَكَانَ هُنَاكَ قَطِيعُ خَنَازِيرٍ كَثِيرَةٌ تَرْعَى بَعِيدًا مِنْهُمْ، فَطَلَبَا إِلَيْهِ الشَّيَاطِينُ قَائِلِينَ: إِنْ كُنْتَ تُخْرِجُنَا مِنْ هَهُنَا فَارْسِلْنَا إِلَى قَطِيعِ خَنَازِيرِ؛ فَقَالَ لَهُمْ: اذْهَبُوا، وَلَمَّا خَرَجُوا مَضَوْا وَدَخَلُوا فِي الْخَنَازِيرِ، وَإِذَا بِقَطِيعِ الْخَنَازِيرِ كُلِّهِ قَدْ وَتَبَ عَلَى جُرْفٍ، وَتَوَاقَعَ فِي الْبَحْرِ، وَمَاتَ جَمِيعُهُ فِي الْمَاءِ، وَهَرَبَ الرُّعَاةُ، انْتَهَى، وَكَانُوا نَحْوَ أَلْفَيْنِ.

قُلْتُ لَهُمْ: الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا يُخْسَرُونَ النَّاسَ فِي أَمْوَالِهِمْ؟

قَالُوا: لَا!.

قُلْتُ لَهُمْ: هَذَا نَحْوُ أَلْفِي خَنْزِيرٍ تُسَاوِي دَرَاهِمَ كَثِيرَةً وَأَذِنَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إِفْتَائِهَا وَتَلْفِهَا وَأَنَّ أَرْبَابَهَا يَخْسِرُونَ قِيمَتَهَا لِأَجْلِ أَنَّ الْخَنَازِيرَ كَانَتْ عِنْدَهُ حَرَامًا؛ وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الْمَوَاشِي الْمُبَاحَةِ لَمْ يَأْذَنَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْجُنُونِ بِالْدُخُولِ فِيهَا لِإِفْسَادِهَا وَهَلَاكِهَا. فَأَخَذَ الْقُضَاةُ فِي الْكَلَامِ وَالتَّنْبِيرِ فِي الْجَوَابِ.

ثُمَّ قَالُوا: لَمْ تَبْلُغْ هَذَا الْعَدَدَ الَّذِي ذَكَرْتَهُ!

قُلْتُ: هَذَا الَّذِي قَرَأْتُهُ؛ فَأَخْضِرَ الْإِنْجِيلُ فَوَجَدُوهُ كَذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي مَوْضِعَيْنِ فِي الْإِنْجِيلِ: فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ عَشَرَ لِمَرْقُسَ؛ وَهُوَ الَّذِي قَالَ: كَانُوا نَحْوَ أَلْفَيْنِ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ أَخَذُوا فِي الْكَلَامِ وَلَمْ يَجِدُوا مَا يُجَاوِبُونَ^(١) بِهِ وَكَانَ قَدْ مَضَى مِنَ اللَّيْلِ نَحْوُ نِصْفِهِ؛ فَأَنْصَرَفْتُ إِلَى مَنْزِلِي، وَبَعَثُوا مَعِيَ خُدَّامَهُمْ؛ وَرَأَيْتُهُمْ فَرَحِينَ شَاكِرِينَ لِي؛ وَلَمْ يَسْمَعُوا مِنِّي إِلَّا مَا ذَكَرْتُ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ عَكْسَ دِينِهِمْ.

وَأَضْبَحْتُ يَوْمًا آخَرُ؛ وَمَشَيْتُ إِلَى الْقَاضِي، وَأَعْطَانِي الْمَوَاجِبَ، وَمَا أَخَذَ مِنِّي شَيْئًا مِنَ الدَّرَاهِمِ فِيهَا. ثُمَّ أَبْصَرْتَنِي الْمَرْأَةُ الَّتِي كَانَتْ مَعَنَا لِلْكَلَامِ، وَرَعَتْ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ وَأَعْطَتْنِي دَرَاهِمَ ذَهَبًا، لَيْسَ بِالْقَلِيلِ، وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَالْجِهَادِ عَلَى الدِّينِ، وَبَرَكَتَةِ يَوْمِ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَمِمَّا ذَكَرَ لِي أُبْرِثُ أَنَّ فِي بَلَدٍ يُسَمَّى شَانْدِيْشِي^(٢)؛ عَلَى بُعْدِ سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ بَرِيَشَ، فِي دَارٍ عَظِيمَةٍ لِلْمُتْرَاهِبِينَ دَخَائِرَ وَتَبَجَانًا لِلْمُلُوكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ لِلْسَّلَاطِينِ الْمَاضِيَيْنِ وَالْأَسَاكِفَةِ؛ وَمِنْ جَمَلَتِهَا كَأْسٌ مِنْ بِلُورٍ كَبِيرٍ مَكْتُوبٌ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَالْحُرُوفُ مَرْسُومَةٌ مَضْنُوعَةٌ فِي وَسْطِ الْكَأْسِ؛ وَأَنَّهُ كَانَ لِسَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ نَبِيِّ اللَّهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. قُلْتُ لَهُ: أَحِبُّ أَرَى ذَلِكَ!

(١) فِي الْأَصْلِ: يَجَاوِبُوا.

(٢) يَرِيدُ: سَانَتْ دِينِيْسَ.

وَسِرْنَا وَبَلَّغْنَا إِلَى الدَّارِ وَكَانَ فِيهَا أَنْاسٌ جَاؤُوا مِنْ بِلَادِهِمْ لِرُؤْيَا الدَّخَايِرِ.
وَصَعَدْنَا جَمِيعًا إِلَى بَيْتٍ مُرْتَفِعٍ؛ وَجَاءَ رَجُلٌ وَفَتَحَ الْخَزَانَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا
الدَّخَايِرُ؛ وَأَخَذَ تَاجًا مِنْ ذَهَبٍ وَتَكَلَّمَ عَلَيْهِ وَقَالَ: هَذَا تَاجُ السُّلْطَانِ الْفُلَانِيِّ؛ ثُمَّ
قَبَضَ آخَرَ مِنَ التَّيجَانِ وَذَكَرَ لِمَنْ كَانَ؛ وَبَقِيَ كَذَلِكَ يَأْخُذُ تَاجًا بَعْدَ تَاجٍ،
وَهِيَ بِالْأَخْجَارِ الْمُثَبَّتَةِ وَالصَّيْمَنْتِ وَالْيَاقُوتِ النَّفِيسَةِ. ثُمَّ أَخَذَ كَأْسَ بَلُورٍ عَلَى
طُولِ ذِرَاعِ الْإِنْسَانِ، مَوْضِعُ قَبْضِهِ فِي الْوَسْطِ أَوْ أُنْزِلَ مِنْهُ حِزَامٌ مَكْتُوبٌ بِالْعَرَبِيَّةِ،
يَخْطُ مِثْلَ الْكُوفِيِّ مَنْقُوشَةً فِيهِ؛ وَقَبَضْتُهُ بِيَدِي، وَقَرَأْتُ فِي الْمَكْتُوبِ اسْمَيْنِ مِنْ
أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى: هَادِي؛ كَافِي؛ وَلَوْ تَرَكْتُهُ عِنْدِي لَقَرَأْتُهُ كُلَّهُ، وَسَدَّ عَلَى
الدَّخَايِرِ. وَتَعَجَّبْتُ مِمَّا اتَّفَقَ لِي بِأَخْذِ كَأْسِ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِي؛
وَأَيْضًا الرُّقَّ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ زَمَنٍ سَبَلْنَاهُ كَاتِبُ الصَّالِحَةِ مَزِيمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ
وَبَعْضَ الْكُتُبِ فِي وَرَقِ الرُّصَاصِ مِنْ ذَلِكَ^(١) الزَّمَانِ.

انظر العَرَبِيَّةَ مَا أَقْدَمَهَا^(٢)، وَأَيُّ حُرْمَةٍ لَهَا حَتَّى إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ سَيِّدَنَا سُلَيْمَانَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَخْتَرْ إِلَّا حُرُوفَ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَسْمَاءَ اللَّهِ مَكْتُوبَةً بِهَا فِي الْكَأْسِ،
لِيَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا عِنْدَ قَبْضِهِ. وَالْكَلَامُ بِالْعَرَبِيَّةِ لِمَنْ يَعْرِفُهَا خَيْرٌ مِنَ الْكَلَامِ بِغَيْرِهَا
مِنَ اللُّغَاتِ، كَمَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُحِبُّهَا.

وَأَمَّا الَّذِي قَضَيْتُ فِي بَرِيشٍ؛ أَعْطَوْنِي كِتَابَ السُّلْطَانِ بِطَابِعِ الدِّيَّانِ الْكَبِيرِ
لِلْحُكَّامِ عَلَى كَافَةِ الدَّوَاوِينِ الَّتِي بِبِلَادِ الْفَرَنْجِ، وَالْأَمْرُ فِيهِ أَنْ جَمِيعُ مَا يُوجَدُ مِنْ
نَهَبِ الْإِنْدُلُسِ أَنْ يَدْفَعُوهُ لِي؛ وَذَكَرَ قَائِدُ طَابِعِ السُّلْطَانِ أَنَّ فِي بَلَدِهِ بِالْأُونَةِ وَاحِدًا
وَعِشْرِينَ رَئِيسًا؛ كُلُّ وَاحِدٍ بِسَفِينَتِهِ نَهَبَ الْإِنْدُلُسِ الَّذِينَ اكْتَرَوْهَا؛ وَكَانَ فِيهِمْ
وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ نَهَبُوا إِخْدَى السُّفُنِ الَّتِي كَانَتْ لِي الْوَكَالَةُ عَلَيْهَا. وَاتَّفَقْنَا أَنْ
نَمْشِيَ مَعَهُ مِنْ بَرِيشٍ.

(١) فِي الْأَصْلِ: تِلْكَ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: أَقْدَمَهَا.

البَابُ الثَّامِنُ

فِي قُدُومِنَا إِلَى أُولُونَةِ ثُمَّ إِلَى مَدِينَةِ بُرْضِيُوشِ

وَلَمَّا رَأَيْتُ مَا أَظْهَرَ مِنَ النَّصِيحَةِ إِلَيْنَا قَائِدُ الطَّاعِ؛ مَشَيْنَا إِلَى بَلَدِهِ؛ وَلَمَّا أَنْ وَصَلْنَا إِلَى دَارِهِ - وَكَانَتْ خَارِجًا عَنِ الْبَلَدِ عَلَى قُرْبِ نَهْرٍ - وَهِيَ مَانِعَةٌ كَبِيرَةٌ مَبْنِيَّةٌ بِالْحَجَرِ الْمَنْجُورِ؛ وَفِيهَا بَعْضُ الْمَدَافِعِ وَبِقُرْبِهَا بُسْتَانٌ كَبِيرٌ وَعَابَاتٌ؛ وَبِلَادٌ وَاسِعَةٌ لِلزَّرْعِ؛ كُلُّ ذَلِكَ لِلْقَائِدِ الْمَذْكُورِ.

وَأَقْبَلْتُ عَلَيْنَا زَوْجَتَهُ وَخُدَامُهَا مِنَ الْبَنَاتِ وَالرِّجَالِ؛ وَكَانَتْ فِي تِلْكَ الدَّارِ بِنْتُ مِنْ قَرَابَتِهِمْ ذَاتُ مَالٍ عَظِيمٍ مِمَّا تَرَكَ لَهَا وَالِدَاهَا؛ وَهِيَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً؛ وَلَهَا مِنَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ كَثِيرٌ؛ وَطَلَبَهَا لِلزَّوْاجِ كَثِيرٌ مِنْ أَكَابِرِ أَهْلِ بِلَادِهِمْ وَلَمْ تَرْضَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ.

وَقَدَّمُوا لِي مَعَ أَصْحَابِي طَعَامًا فَلَمْ نَأْكُلْ مِنْهُ. قُلْتُ لَهُمْ: هَذَا مَمْنُوعٌ فِي دِينِنَا. ثُمَّ أَعْطُونَا مَا ذَكَرْنَا لَهُمْ.

ثُمَّ جَاءَتِ الْبِنْتُ وَقَالَتْ لِي أَنْ أَصِفَ لَهَا حَالَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي^(١) هُنَّ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ وَالْمَلَاخَةِ عِنْدَنَا. وَذَكَرْتُ لَهَا مَا تَيَسَّرَ.

قَالَتْ: أَنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ! وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ بَيْضَاءَ بِشْيءٍ مِنَ الْحُمْرَةِ، وَشَعْرُهَا أَسْوَدُ، وَشَعْرُ الْحَوَاجِبِ، وَأَشْفَارِ الْعَيْنِ، وَكُخْلِ الْعَيْنِ فِي غَايَةِ؛

(١) فِي الْأَصْلِ: الَّتِي.

وَالْمَرَأَةُ عِنْدَ الْفَرْنَجِ، عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، مَهْمُولَةٌ عِنْدَهُمْ فِي الْحُسْنِ؛ وَيَقُولُونَ إِنَّهَا سَوْدَاءٌ.

وَقَدْ كُنْتُ أَذْكَرُ لِأَصْحَابِي بَعْضَ الْحِكَايَاتِ، فِيمَا وَقَعَ لِلرُّجَالِ الصُّلَحَاءِ، الْوَاقِفِينَ عَلَى الْحُدُودِ، لِتَقْوِيهِمْ عَلَى نَفُوسِهِمْ وَنَفْسِي، عَلَى دَعَاوَى النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ فِي شَأْنِ النِّسَاءِ الْمُحَرَّمَاتِ لِأَنَّهُ بِسَبَبِ الْحَرِيمِ الْمَكْشُوفِ كَانَ الشَّيْطَانُ يُوسُوسُنَا كَثِيرًا؛ وَكُنَّا صَابِرِينَ.

وَكَانَتْ الْبَيْتُ تُزَيِّنُ نَفْسَهَا وَتَسْأَلُنِي: هَلْ فِي بِلَادِنَا مَنْ يَلْبَسُ لِبَاسَاتِ الْحَرِيرِ مِثْلَهَا؟ ثُمَّ قَالَتْ لِي: أَعْلَمُكَ تَقْرَأُ بِالْفَرْنَجِ، وَصِرْتُ تَلْمِيزًا لَهَا؛ وَأَخَذْتُ فِي إِكْرَامِ أَصْحَابِي؛ وَكَثُرَتْ الْمَحَبَّةُ بَيْنَنَا حَتَّى ابْتَلَيْتُ بِمَحَبَّتِهَا بَلِيَّةَ عَظِيمَةٍ. وَقُلْتُ: قَبْلَ ذَلِكَ كُنْتُ فِي خِصَامٍ مَعَ النَّصَارَى عَلَى الْمَالِ، وَفِي الْجِهَادِ عَلَى الدِّينِ، وَالْآنَ هُوَ الْخِصَامُ مَعَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ؛ فَالْنَّفْسُ تَطْلُبُ قَضَاءَ الْغَرَضِ وَالشَّيْطَانُ يَعِينُهَا؛ وَالرُّوحُ يَنْهَى عَنِ الْحَرَامِ؛ وَالْعَقْلُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمَا. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْبِرُ بِالْقَلْبِ عَنِ الرُّوحِ؛ فَالْنَّفْسُ تَسْتَعِينُ بِالشَّيْطَانِ لِأَنَّهُ مِنْ طَبْعِهَا وَهُوَ طَبْعُ النَّارِ وَالْحَرَارَةِ وَالْيُوسَةِ؛ وَلَا يُوسُوسَانِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ؛ وَالرُّوحُ يَسْتَعِينُ بِاللَّهِ تَعَالَى. وَقَدْ قَالَ إِبْلِيسُ عِنْدَ اسْتِكَبَارِهِ عَنِ السُّجُودِ لِسَيِّدِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ﴾^(١) وَحَيْثُ هِيَ النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ مِنْ طَبْعِ النَّارِ فَهُمَا يَتَّبَعَانِ الْإِنْسَانَ لِيَذْهَبَ إِلَيْهِ مَعَهُمَا؛ وَلَمَّا عَلِمَ الشَّيْطَانُ أَنَّ لَيْسَ لَهُ قُوَّةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا لِيُوسُوسَهُ فَقَطْ؛ وَأَنَّ الْوَسْوَاسَ يَزُدُّهُ الْإِنْسَانُ تَارَةً بِلَا تَعَبٍ وَتَارَةً يَخْتَاجُ الدُّعَاءَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَكُنْتُ أَخْرُجُ إِلَى بَيْنِ الْأَشْجَارِ وَأَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنِي، فَمَشَى إِبْلِيسُ إِلَى صَاحِبِي - وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ سِنًا مِنَ الْأَصْحَابِ - وَوَسَّوَسَهُ وَاتَّفَقَ مَعَهُ أَنْ يُكَلِّمَنِي فِي شَأْنِ الْبَيْتِ؛ وَكُنْتُ أَخْفِي مَا أَصَابَنِي مِنَ الْهَمِّ بِسَبَبِ الْبَيْتِ مِنْ أَصْحَابِي، لِئَلَّا يَظْهَرَ لَهُمْ ضَعْفٌ مِنِّي، إِذْ كُنْتُ أَقْوِيهِمْ أَنْ يَغْلِبُوا

نُفُوسُهُمْ عَنِ النِّسَاءِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالْمَيْلِ لَهُنَّ، فَجَاءَنِي صَاحِبِي عَلَى وَجْهِ السُّرِّ وَالنُّصْحِ.

وَقَالَ لِي: يَا سَيِّدِي أَصَابَنِي تَغْيِيرٌ بِسَبَبِ النَّاقِصَةِ الَّتِي رَأَيْتَهَا مِنْكَ.
قُلْتُ لَهُ: أَذْكَرُ لِي مَا رَأَيْتَ مِنِّي لَعَلَّكَ تَنْفَعُنِي.

قَالَ: هَذِهِ الْبِنْتُ مَا يَخْفَى حَالُهَا؛ وَهِيَ تَعْمَلُ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ مَعَنَا، بِسَبَبِ مَحَبَّتِهَا إِلَيْكَ، إِذْ هِيَ ظَاهِرَةٌ لَيْسَتْ بِخَافِيَةٍ؛ وَأَنْتَ تَعْرِفُ الْعَادَةَ الْجَارِيَةَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، أَنَّ الرَّجُلَ يَمُدُّ يَدَهُ لِلْبَنَاتِ وَيُلَاعِبُهَا؛ وَلَيْسَ هَذَا^(١) بِعَيْبٍ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ^(٢) النَّاسِ؛ وَهِيَ تَقِفُ أَمَامَكَ مِرَازًا، قَرِيبًا مِنْكَ، تَنْتَظِرُ أَنْ تُلَاعِبَهَا، وَأَنْتَ لَا تَفْرَحُهَا وَلَا تَشْرَحُهَا!.

قُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذَا أَقْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ. قُلْتُ: يَا صَاحِبِي هَذَا عِنْدَنَا فِي دِينِنَا أَمْرٌ بِالْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ وَالنَّصْرُ هُوَ: «وَلْتَكْفِ يَدُكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ مِنْ مَالٍ أَوْ جَسَدٍ»؛ وَهَذَا جَسَدٌ لَيْسَ بِحَلَالٍ لِي!.

قَالَ: لَا أَقُولُ لَكَ إِلَّا أَنْ تُلَاعِبَهَا فَقَطْ!.

قُلْتُ لَهُ: قَالَ صَاحِبُ الْبُرْدَةِ:

فَلَا تَرُمُ بِالْمَعَاصِي كَسَرَ شَهْوَتِهَا إِنَّ الطَّعَامَ يُقْوِي شَهْوَةَ النَّهْمِ

قَالَ: مَا مَعْنَى هَذَا؟

قُلْتُ: الَّذِي يُفْهَمُ مِنَ الْمَعْنَى - حَسَبَمَا سَمِعْتُ - لَا تَحْسَبْ أَنَّكَ إِذَا أَعْطَيْتَ لِلنَّفْسِ الْقَلِيلَ مِمَّا تَشْتَهِي مِنَ الْحَرَامِ، أَنَّهَا تَقْنَعُ بِذَلِكَ، بَلْ تَزْدَادُ شَهْوَتَهَا، وَتَتَقَوَّى عَلَيْكَ وَتَغْلِبُكَ، حَتَّى تَفْعَلَ مِنَ الْحَرَامِ أَكْثَرَ مِمَّا قَصَدْتَ. وَمِثَالُ ذَلِكَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ صَائِمًا فَهُوَ صَابِرٌ عَلَى الطَّعَامِ، حَتَّى يَبْتَدِئَ بِالْمَأْكُولِ، تَتَقَوَّى شَهْوَتُهُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ حَتَّى يَشْبَعَ؛ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَفْضَلُ مُخَالَفَةُ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ وَأَنْ يَعْصِيَهُمَا.

(٢) في الأصل: من هذا الناس.

(١) زيادة عن الأصل اقتضاها السياق.

فَلَا نَفَعَ مَعَ صَاحِبِي مِنْ كُلِّ مَا قُلْتُ لَهُ شَيْءٌ، لِأَنَّهُ جَاءَ مِنْ وَرَائِي،
وَالْبَيْتُ وَاقِفَةٌ تَتَكَلَّمُ مَعِي وَأَذْحَانِي إِلَيْهَا؛ وَحِينَ ذَهَبَتْ خَاصَمَتُهُ عَلَى حُمْقِهِ.

وَسَأَلْتَنِي: هَلْ عِنْدِي امْرَأَةٌ فِي بِلَادِي؟ قُلْتُ لَهَا: عِنْدِي!

ثُمَّ قَالَتْ: وَتَتَزَوَّجُونَ أَكْثَرَ مِنْ امْرَأَةٍ؟ قُلْتُ لَهَا: جَائِزٌ ذَلِكَ فِي دِينِنَا.

ثُمَّ قَالَتْ: هَلْ عِنْدَكَ أَوْلَادٌ؟ قُلْتُ لَهَا: عِنْدِي؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي - حِينَ
عَلِمْتُ ذَلِكَ تَنْقُصُ الْمَحَبَّةَ - فَلَمْ تَنْقُصْ شَيْئًا.

وَرَأَيْتُهَا يَوْمًا زَيَّنَتْ نَفْسَهَا، وَكَانَتْ تَزْعَانِي وَلَيْسَ لِي خَبَرٌ بِمَا أَضْمَرَتْ؛
وَسِرْتُ إِلَى الْجَنَانِ؛ وَالْبَسَاتَيْنِ بِتِلْكَ الْبِلَادِ مَا لَهَا حِيطَانٌ لِلتَّخَوُّبِ، بَلْ يَخْفَرُونَ
خَنْدَقًا دَائِرًا بِالْبُسْتَانِ غَرِيقًا، لِمَنْعِ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ إِلَيْهِ إِلَّا مِنَ الْبَابِ.
وَسَمِعْتُهَا تُنَادِينِي فَجِئْتُ مِنْ دَاخِلِ الْجَنَانِ إِلَى حَاشِيَةِ الْخَنْدَقِ، وَهِيَ وَاقِفَةٌ عَلَى
الْحَاشِيَةِ مِنَ الْجَهَةِ الْأُخْرَى، وَطَرِيقٌ صَغِيرٌ هَابِطٌ إِلَى قَعْرِ الْخُفْرَةِ وَطَالِعٌ إِلَى
الْجَنَانِ وَالْخَنْدَقِ، الْكُلُّ عَامِرٌ بِالْأَشْجَارِ الْبَرِّيَّةِ، حَتَّى لَا يَظْهَرُ قَعْرُهُ إِلَّا فِي بَعْضِ
الْمَوَاضِعِ؛ فَتَكَلَّمْنَا هُنَاكَ وَفَهِمْتُ مِنْ حَالِهَا مَا لَا يَخْفَى؛ وَتَكَلَّمْتُ بَعْضُ أَصْحَابِي
فِي الْجَنَانِ وَقُرْبَ مِنْ جِهَتِي وَذَهَبَتْ. وَفَكَّنِي اللَّهُ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَحِمَايَتِهِ
وَتَوْفِيقِهِ الْجَمِيلِ؛ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي صَدَرَ مِنِّي إِلَيْهَا وَالنَّظَرِ، إِنَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ؛ وَإِنَّ اللَّهَ يُغْفِرُ الصَّغَايِرَ بِاجْتِنَابِ الْكَبَايِرِ.

وَقَدْ جَاءَتْ بِنْتُ مِنْ أَكَابِرِ الْفَرَنْجِ، مِنْ مَدِينَةِ فُتْنَتِي، لَزِيَارَةِ صَنَمٍ يَقْرُبُ
الْمَنْزِلَ الَّذِي كُنَّا فِيهِ وَبَعْدَ الزِّيَارَةِ جَاءَتْ إِلَى امْرَأَةِ الْقَائِدِ وَالْبَيْتِ الَّتِي فَرَعْنَا مِنْ
الْكَلَامِ عَلَيْهَا؛ فَأَقْبَلُوا عَلَيْهَا.

وَبَعْدَ الطَّعَامِ نَادَوْنِي وَأَعْطَوْنِي كُرْسِيًّا؛ وَجَلَسْتُ وَرَوَّجَةُ الْقَائِدِ عَنْ يَمِينِي
وَالْبَنَاتُ قُبَالَتِي، وَالَّتِي جَاءَتْ إِلَى الزِّيَارَةِ كَانَتْ أَجْمَلُ وَأَزِينُ مِنَ الَّتِي كَانَتْ فِي
الدَّارِ؛ وَفِي حَالِ لِبَاسِهَا ظَاهِرَةٌ أَنَّهَا مِنَ الْأَكَابِرِ؛ وَمَعَهَا بَيْتَانِ تَخْدِمَانِيَا.

وَقَبْلَ أَنْ نَادُونِي أَعْلَمُوهُمَا بِي؛ وَلَمَّا جَلَسْتُ نَظَرْتَنِي شُرَرًا، وَأَظْهَرَتْ
فِي وَجْهِهَا الْغَضَبَ، وَقَالَتْ لِي: أَنْتِ تُزَكِّي؟ قُلْتُ لَهَا: مُسْلِمٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ.

قَالَتْ: كَيْفَ بَكُمْ لَمْ تَعْرِفُوا اللَّهَ؟ قُلْتُ لَهَا: الْمُسْلِمُونَ يَعْرِفُونَ اللَّهَ خَيْرًا مِنْكُمْ!.

قَالَتْ: خَيْرٌ مِنَّا؟ قُلْتُ لَهَا: نَعَمْ! قَالَتْ لِي: بِمَا تُبَيِّنُ ذَلِكَ؟

فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا، وَرَأَيْتُ تَحْتَ إِبْطِهَا كِتَابًا، كَمَا هِيَ مِنْ عَادَةِ بَنَاتِ الثَّجَارِ وَالْأَكَابِرِ مِنَ الْفَرَنْجِ؛ كُلُّ وَاحِدَةٍ تَحْمِلُ كِتَابًا مِثْلَ تَهْلِيلٍ؛ وَفِي كُلِّ وَاحِدٍ خَمْسَةٌ أَدْعِيَّةٍ أَوْ سُورٍ، الَّتِي هِيَ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ بَالِغٍ حِفْظُهَا.

قُلْتُ لَهَا: الْبُرْهَانُ فِيمَا قُلْتُ فِي كِتَابِكَ الَّذِي عِنْدَكَ، وَبِهِ نَبَّيْتُ مَا قُلْتُهُ لَكَ. فَأَخَذْتُ الْكِتَابَ وَوَضَعْتُهُ بَيْنَ يَدَيَّ عَلَى الْمَائِدَةِ.

وَقَالَتْ: هَا هُوَ الْكِتَابُ!.

قُلْتُ لَهَا: انْظُرِي الْعَشْرَةَ الْأَوَامِرَ الرَّبَّانِيَّةَ!.

فَفَقَّشْتُ فِي الْكِتَابِ وَقَالَتْ: هَا هِيَ!.

قُلْتُ لَهَا: اقْرَأِي الْأَمْرَ الْأَوَّلَ مِنَ الْعَشْرَةِ فِي دِينِ اللَّهِ!.

فَقَرَأْتُ وَقَالَتْ: الْأَمْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْعَشْرَةِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَا تَعْمَلْ صُورًا وَلَا تَعْبُدْهَا؛ اعْبُدِ اللَّهَ وَحْدَهُ.

وَلَمَّا أَنْ قَرَأْتُهُ قُلْتُ لَهَا: الْمُسْلِمُونَ مَا يَعْمَلُونَ صُورًا، وَلَا يَعْْبُدُونَهَا وَيَتَحَفَّظُونَ مِنْ ذَلِكَ؛ حَتَّى إِنَّ النِّسَاءَ اللَّوَاتِي^(١) يَرْقُمْنَ لَمْ يُصَوِّرْنَ فِي رَقْمِهَا أَبَدًا شَيْئًا لَهُ رُوحٌ؛ وَكَذَلِكَ الرِّسَامُونَ الَّذِينَ يَرْسُمُونَ وَيُزَوِّقُونَ دِيَارَ الْمُلُوكِ وَالْجَوَامِعِ؛ لَمْ يُصَوِّرُوا أَبَدًا شَيْئًا فِيهِ رُوحٌ.

قَالَتْ: لَيْسَ عِبَادَتُنَا لِلْأَصْنَامِ لِدَاتِهَا؛ إِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُشَبِّهِ بِهِ.

قُلْتُ لَهَا: كَانَ لِي كَلَامٌ أَقُولُهُ لَكَ فِي الشَّبِيهِ وَالْمُشَبِّهِ، وَلَكِنْ أَتْرُكُهُ لِنَحُوزِكَ^(٢) لِمَسْأَلَةِ أُخْرَى لَنْ تَجِدِي لَهَا جَوَابًا!.

قَالَتْ: مَاذَا هِيَ؟

(٢) فِي الْأَصْلِ: لِنَحْزِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ: الَّتِي.

قُلْتُ لَهَا: الْأَمْرُ الرَّبَّانِي بِالنَّصِ قَالَ: لَا تَعْمَلُوا صُورًا وَلَا تَعْبُدُوهَا؟
قَالَتْ: نَعَمْ!.

قُلْتُ لَهَا: أَتَعْمَلُونَ أَصْنَامًا أَمْ لَا؟

فَكَانَ لَهَا إِنْصَافٌ لِلْحَقِّ وَعَقْلٌ؛ وَنَظَرَتْ النِّسَاءَ وَقَالَتْ لَهُنَّ بِلِسَانِهِنَّ:
عَلَيَّيْ، وَمَا وَجَدْتُ بِمَا نُجَاوِبُهُ بِهِ. فَتَنَظَرْتُ إِلَيْهَا وَنَزَلَ بِهَا فَرَحٌ وَأَنْشِرَاحٌ كَأَنَّهُ
زَالَ مِنْ قَلْبِهَا غِشَاءً. وَأَقْبَلْتُ عَلَيَّ بِحُسْنِ الْكَلَامِ، وَذَهَبَ عَنْهَا الْغَيْظُ وَالْغَضَبُ
الَّذِي كَانَ فِيهَا لِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَالَتْ لِي: كَمْ سَنَةٌ الذِّي ظَهَرَ فِي الدُّنْيَا نَبِيُّكُمْ؟ وَهَلْ هُوَ تَارِيخُ السِّنِينَ مِنْ
مِيلَادِهِ كَمَا هُوَ عِنْدَنَا مِنْ مِيلَادِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

قُلْتُ: بَلَّغَ حِسَابُ تَارِيخِ أَهْلِ دِينِنَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ
وَأَلْفَ مِنَ الْهَجْرَةِ؛ وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي خَرَجَ نَبِيُّنَا ﷺ مِنْ مَكَّةَ لِشَهْرَةِ دِينِ اللَّهِ
تَعَالَى.

قَالَتْ: وَالسَّنَةُ عِنْدَكُمْ هِيَ كَعَامِنَا فِي أَيَّامِهِ؟

قُلْتُ لَهَا: أَمَّا السَّنَةُ عِنْدَكُمْ فَهِيَ شَمْسِيَّةٌ، وَفِيهَا مِنَ الْأَيَّامِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمْسَةَ
وَسِتُونَ يَوْمًا وَرُبْعَ يَوْمٍ؛ وَالسَّنَةُ عِنْدَنَا فِيهِ قَمَرِيَّةٌ، وَفِيهَا مِنَ الْأَيَّامِ ثَلَاثَ مِائَةٍ
وَأَرْبَعٍ وَخَمْسُونَ يَوْمًا بِتَقْرِيبٍ.

قَالَتْ: الشُّهُرُ كَأَشْهُرِنَا؟

قُلْتُ لَهَا: كُلُّ شَهْرٍ عَرَبِيٍّ يَنْقُصُ يَوْمًا عَنِ الشُّهُرِ الشَّمْسِيِّ.

قَالَتْ: وَالنِّسَاءَ عِنْدَكُمْ مَخْجُوبَاتٌ؟

قُلْتُ لَهَا: نَعَمْ!.

قَالَتْ: وَكَيْفَ يَكُونُ الْعِشْقُ عِنْدَ الْبَنَاتِ وَمَنْ يَنْكِحُهُنَّ؟

قُلْتُ لَهَا: لَنْ يَرَاهَا أَحَدٌ مِمَّنْ يَخْطُبُهَا حَتَّى تَكُونَ لَهُ زَوْجَةٌ.

وَمَعْنَى قَوْلِهَا وَسْؤَالِهَا عَنِ الْعِشْقِ؛ قَدْ تَقَرَّرَتْ الْعَادَةُ بِبِلَادِ الْفَرَنْجِ وَالْفَلَمَنْكِ^(١) أَنَّ كُلَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ يَنْتَاقُ لَهُ مُبَاحٍ مِنْ قَرَابَتِهَا أَنْ يَزُورَهَا، وَيَنْفَرِدَ بِهَا لِلْكَلامِ، لِتَحْصَلَ الْمَحَبَّةُ بَيْنَهُمَا؛ فَإِذَا ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ يَخْطُبُهَا وَلِلْبِنْتِ أَيْضًا حِينَئِذٍ يَقَعُ الْكَلَامُ عَلَى النِّكَاحِ؛ وَإِذَا ظَهَرَ لَهُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلْزُمُهُ شَيْءٌ فِيمَا فَاتَ مِنْ مُخَالَطَتِهَا؛ وَقَدْ يَكُونُ لِلْبِنْتِ غَيْرُ وَاحِدٍ مَنْ يَزُورُهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ، وَوَجِبَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ وَنِعْمَتِهِ وَصَفَاتِهِ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْنَا لِلْبِنْتِ فِي شَأْنِ الْأَصْنَامِ؛ فَقَدْ قَالَ فِي التَّوْرَةِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ الْآنَ - أَغْنِي بِأَيْدِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى - قَالَ فِي الْكِتَابِ الثَّانِي الْمُسَمَّى بِالْأَشْطَ^(٢)؛ فِي الْبَابِ الْعِشْرِينَ مِنْهُ؛ قَالَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يَنْزِلَ مِنْ جَبَلِ الطُّورِ وَأَنْ يَقُولَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:

«أَنَا إِلَهُكُمْ؛ أَخْرَجْتُكُمْ مِنْ مِصْرَ؛ مِنْ دِيَارِ الْأَسْرِ؛ لَا تَتَّخِذُوا آلِهَةً غَيْرِي، وَلَا تَعْمَلُوا صُورًا مِنْ صُورِ السَّمَاءِ الْعَلِيَّةِ، وَلَا مِنْ صُورِ الْأَرْضِ، وَلَا مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ؛ لَا تَسْجُدُوا لَهَا وَلَا تَعْبُدُوهَا؛ لَأَنِّي إِلَهُكُمْ غَيْرُورَ». «وَلَا تَخْلِفُ حَانِئًا».

الثَّالِثُ: قَالَ: «وَعَظَّمُوا الْمَوَاسِمَ».

وَالرَّابِعُ: «وَأَطِعِ وَالِدَيْكَ لِيَطْوَلَ عُمرُكَ».

الخَامِسُ: «لَا تَقْتُلْ».

السادِسُ: «لَا تَزْنِ».

السَّابِعُ: «لَا تَسْرِقْ».

الثَّامِنُ: «لَا تَكْذِبْ وَلَا تَشْهَدْ بِالزُّورِ وَلَا تَقْتَرِي».

التَّاسِعُ: «لَا تَتَمَنَّ دَارَ صَاحِبِكَ وَلَا زَوْجَتَهُ وَلَا مَالَهُ».

وَهَذِهِ الْأَوَامِرُ أَخَذَهَا النَّصَارَى مِنَ التَّوْرَةِ وَزَادُوا الْعَاشِرَ، وَقَالُوا: الْعَاشِرُ: «أَنْ تُحِبَّ اللَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؛ وَتُحِبَّ لِعَنِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ».

فَهَذِهِ الْعَشْرَةُ أَوَامِرُ رَبَّانِيَّةٌ، فَالْمِلَلُ الثَّلَاثَةُ مُتَّفِقُونَ عَلَيْهَا؛ وَهِيَ عِنْدَنَا فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ مُتَّفَقَةٌ؛ وَالنَّصَارَى - دَمَرَهُمُ ^(١) اللَّهُ - لَمْ يَعْمَلُوا بِالْأَمْرِ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْأَضْلُ.

وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الصُّورِ؛ وَقَالَ: «الْمُصَوِّرُونَ فِي النَّارِ». وَقَالَ ^(٢): «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورٌ». وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْمِلَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ نَقِيَّةً سَالِمَةً مِنْ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ.

وَقَالَ فِي التَّوْرَةِ؛ فِي بَابٍ لَمْ نَسْتَخْضِرْهُ: «إِنَّ الْوَتْنَ ^(٣) الْكَائِنَ فِيهِ ذَهَبٌ أَوْ فِضَّةٌ أَنْ لَا يَنْتَفِعَ بِهَا أَحَدٌ؛ وَأَنْ يَجْعَلُوا ذَهَبَهُ وَفِضَّتَهُ فِي النَّارِ».

وَقَالَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْإِنْجِيلِ: «أَنْذِرْ صَاحِبِكَ عَنِ الْفِعْلِ الْقَبِيحِ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَإِنْ لَمْ يَنْتَهُ فَانْذِرْهُ بِحَضْرَةِ اثْنَيْنِ أَوْ كَمَا قَالَ - فَإِنْ لَمْ يَنْتَهُ فَدَعُهُ كَوْنِي أَوْ عَشَارٍ». وَمَعْنَى وَثْنِي: عَابِدُ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ^(٤): «مُذْمُونٌ خَمْرٍ كَعَابِدِ وَثْنٍ».

وَذَكَرَ الشَّيْخُ جَلَالَ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ فِي الْخَصَائِصِ الْكُبْرَى: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ الْمُشْرِفَةَ، فِي عَامِ الْفَتْحِ؛ كَانَ بِالْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا، بِأَرْجُلٍ مِنْ رَصَاصٍ ^(٥)، وَكَانَ يُشِيرُ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِقَضِيبٍ بِيَدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا؛ وَيَقُولُ: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» ^(٦)؛ فَيَقْعُ الصَّنَمُ عَلَى ظَهْرِهِ أَوْ وَجْهِهِ.

(١) في الأصل: دمارهم.

(٢) البخاري: لباس ٩٣. ومما جاء في المصوِّرين قوله ﷺ: «إِنْ أَشَدَّ النَّاسُ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَصَوِّرُونَ». رواه البخاري: لباس ٨٩، ٩١، ٩٣، ٩٥. ومسلم: لباس ٩٦، ٩٧.

(٣) في الأصل: الوثان. (٤) ابن ماجه: أشربة ٣، وابن حنبل: ٢٧٢/١.

(٥) في الأصل: رصاص.

(٦) سورة الإسراء، آية: ٨١، والحديث رواه الطبراني في المعجم الكبير: ٢٧٩/١٠.

وَقَدْ أَفْرَدْتُ فِي الرُّحْلَةِ بَابًا فِي ذِكْرِ الْأَضْنَامِ وَحَكَيْتُ عَلَيْهَا؛ وَلَمْ نَذْكُرْ هُنَا إِلَّا وَاحِدَةً مِنْهَا وَهِيَ:

إِنَّ الْفَقِيهَ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ الْبَرْجِي الْأَنْدَلُسِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ذَكَرَ لِي بِمَرَاكُشٍ أَنَّ بِقُرْبِ الْبَلَدِ الَّذِي كَانَ سَاكِنًا فِيهِ - فِي زَمَانِنَا هَذَا - كَانَ مُسْلِمٌ أَسِيرًا اسْمُهُ أَحْمَدُ وَسَيِّدُهُ فُلَانٌ - ذَكَرَ اسْمَ مَرْتَبَتِهِ مِثْلَ مَرْكَشٍ أَوْ قُنْدٍ - وَلَهُ بُلْدَانٌ مِثْلُكَ لَهُ؛ وَفِي قَرْيَةٍ مِنْ بِلَادِهِ اتَّفَقَ أَغْيَانُ سُكَّانِهَا عَلَى شِرَاءِ صَنْمٍ. وَبَعْدَ شِرَائِهِ فِي بَلَدٍ آخَرَ ظَهَرَ لَهُمْ أَنَّ أَحْمَدَ الْمُسْلِمَ يَبْعَثُونَهُ لِيَأْتِيَهُمْ بِالصَّنَمِ؛ وَأَعْطَوْهُ حِمَارًا؛ وَمَشَى وَوَضَعَ الصَّنَمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يُمْسِكُهُ، إِلَى أَنْ خَرَجَ إِلَى الطَّرِيقِ وَلَمْ يَرَ أَحَدًا مِنَ النَّصَارَى، قَالَ لِلصَّنَمِ: وَاللَّهِ مَا نَحْمِلُكَ إِلَّا مَرْبُوطًا مَجْرُورًا عَلَى الْأَرْضِ، وَرَبَطَهُ بِحَبْلِ فِي الْحِمَارِ بَعْدَ أَنْ أَطْرَحَهُ عَلَى الْأَرْضِ؛ وَرَكِبَ أَحْمَدُ وَمَشَى.

وَلَمَّا قَرُبَ مِنَ الْقَرْيَةِ، فَكَانَ الَّذِينَ بَعَثُوهُ يَنْتَظِرُونَ الصَّنَمَ وَرَأَوْا أَحْمَدَ رَاكِبًا وَالصَّنَمَ مَجْرُورًا عَلَى الْأَرْضِ، فَأَسْرَعُوا جَمِيعًا وَعَرَّوْا رُؤُوسَهُمْ تَعْظِيمًا لِلصَّنَمِ؛ وَهُمْ يَمْسُحُونَهُ وَيَبْكُونَ عَلَى مَا أَصَابَهُ. وَقَبَضُوا الْمُسْلِمَ أَحْمَدَ؛ وَهُمْ يَنْظُرُونَ بَيْنَهُمْ مَاذَا يَصْنَعُونَ بِهِ؟ هَلْ يَقْتُلُونَهُ أَوْ يَضْرِبُونَهُ؟

وَاتَّفَقَ نَظَرُهُمْ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَهُ إِلَى سَيِّدِهِ وَمَوْلَى بَلَدِهِمْ لِيَقْتُلَهُ وَمَشَوْا بِهِ جَمِيعًا، وَبِرَكَّةٍ مَا جَاهَدَ فِي الصَّنَمِ، قَالَ لَهُمْ سَيِّدُهُمْ - بَعْدَ أَنْ اشْتَكَوْا إِلَيْهِ بِهِ -: أَنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ أَشَدَّ الْعُقُوبَةِ إِذْ بَعَثْتُمْ مُسْلِمًا يَأْتِيَكُمْ بِالصَّنَمِ؛ فَهُوَ عَمِلَ بِمُقْتَضَى دِينِهِ. وَبَقِيَ أَحْمَدُ سَالِمًا فَارِحًا ضَاحِكًا عَلَيْهِمْ، وَهُمْ فِي خِزْيٍ وَهَمٍّ وَذُلٍّ؛ وَاللَّهُمَّ مَجْرُورٌ.

وَأَمَّا مَعْنَى مَا قَالَ فِي النَّصِّ: «لَا تُصَوِّرُوا صُورًا مِنْ صُورِ السَّمَاءِ وَلَا مِنْ صُورِ الْأَرْضِ» الْمَفْهُومُ: لَا تُصَوِّرُوا شَيْئًا مِمَّا فِيهِ رُوحٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْمَجُوسُ تُصَوِّرُ الدَّرَارِي السَّبْعَةَ لِكُلِّ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ أَوْ حَيَوَانٍ. وَمَا زَالَتْ النَّصَارَى الْآنَ تُصَوِّرُ تِلْكَ الصُّورِ فِي كُتُبِ التَّجْنِيمِ؛ فَيَصَوِّرُونَ رُحْلًا^(١) عَلَى هَيْئَةِ

رَجُلٍ شَيْخٍ كَبِيرٍ، بِمَنْجَلٍ فِي يَدِهِ يَحُوشُ الْأَزْوَاحَ؛ وَالْمُشْتَرِي عَلَى هَيْئَةِ رَجُلٍ قَاضٍ؛ وَالْمَرِيخُ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ بِسَيْفٍ فِي يَدِهِ؛ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعَةِ بِمَا يُنَاسِبُهُ.

وَأَمَّا صُورَةُ الْبُرُوجِ، فَإِنَّ مِنْهَا صُورَةَ الْكَبْشِ لِلْحَمَلِ، وَصُورَةَ ثُورٍ لِبُزْجِ الثَّوْرِ، وَصُورَةَ الْجُوزَاءِ، وَالسَّرَطَانَ، وَالْأَسَدِ، وَعَقْرَبٍ، وَجَذِيٍّ وَخُوتٍ. وَيَكُونُ الْمَنْعُ بِسَبَبِ ذَلِكَ لِأَنَّهَا صُورُ أَشْيَاءَ لَهَا أَزْوَاحٌ فِي الْوُجُودِ.

وَأَمَّا صُورَةُ نُجُومٍ أَوْ شَجَرٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَشْيَاءٍ مِمَّا لَا رُوحَ فِيهَا فَلَا يَظْهَرُ أَنَّ ذَلِكَ مَمْنُوعٌ.

وَقَدْ قَالَ لِي بَعْضُ الرُّهْبَانِ: أَنْتُمْ تُصَوِّرُونَ الْوَزْدَ وَالْأَشْجَارَ، قُلْتُ: النَّصُ لَيْسَ بِمَنْعٍ لِصُورِ الْجَمَادَاتِ وَالْأَشْجَارِ؛ إِنَّمَا الْمَنْعُ تَصْوِيرُ شَيْءٍ يُشْبِهُ شَيْئًا حَيًّا.

وَأَمَّا الْمَسْأَلَةُ الَّتِي جِئْنَا إِلَيْهَا بِكِتَابِ السُّلْطَانِ، لِقَبْضِ الرُّيَاسِ الَّذِينَ نَهَبُوا الْأَنْدَلُسَ، وَكَانُوا بِأَوْلُوْنَهُ، فَلَمْ نَقْضِ شَيْئًا هُنَالِكَ؛ وَأُظُنُّ أَنَّ قَائِدَ الطَّائِفِ قَبَضَ مِنْهُمْ شَيْئًا لِنَفْسِهِ. وَأَزْدْتُ الْقُدُومَ مِنْ عِنْدِهِ؛ وَطَلَبْتُ مِنِّي أَنْ نَتْرَكَ لَهُ كِتَابَ السُّلْطَانِ؛ وَأَبَيْتُ أَنْ نَتْرَكَهُ لَهُ وَمَشِينَا مِنْ هُنَالِكَ إِلَى مَدِينَةِ بُرْصِيُوشَ.

البَابُ التَّاسِعُ

فِي قُدُومِنَا إِلَى مَدِينَةِ بُرْصِيُوشَ
وَمَا وَقَعَ لِي فِيهَا مِنَ الْمُنَاطَرَاتِ

اعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ مَدِينِ فَرَنْجِهِ؛ عَلَى حَاشِيَةِ نَهْرِ عَظِيمٍ؛ وَفِيهَا ثَمَانُونَ
قَاضِيًا وَمَائَتًا وَكَيْل^(١)؛ وَالْمُفْتُونَ وَالْكَتَّابُ بِلَا حِسَابٍ. وَفِيهَا دِيْوَانٌ يَحْكُمُ عَلَى
كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ.

وَمِمَّا وَقَعَ لِي مَعَ بَعْضِ الْقَسَّيسِينَ فِي دَارِ قَاضِي الْأَنْدَلُسِ؛ جَاءَ إِلَيْهَا
قَسَّيْسَانِ لِقَضَاءِ غَرَضٍ؛ وَقِيلَ لَهُمَا عَنِّي إِنِّي مُسْلِمٌ.

وَجَاءَنِي وَقَالَا لِي: أَنْتَ مُسْلِمٌ؟

قُلْتُ لَهُمَا: نَعَمْ!.

قَالَا: أَتَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ أَكْلًا وَشُرْبًا وَتَنَعُّمًا مِثْلَ مَا فِي الدُّنْيَا؟

قُلْتُ لَهُمْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ أَفْضَلُ مِمَّا فِي الدُّنْيَا.

فَضَحِكَا.

قُلْتُ لَهُمَا: بِمَا تُنْكِرَانِ ذَلِكَ؟

قَالَا: لِأَنَّ مِنْ تُفْلِ الطَّعَامِ تَكُونُ التَّجَاسَّةُ؛ وَمِنْ الْمُحَالِ أَنْ تَكُونَ

التَّجَاسَّاتُ فِيهَا.

(١) فِي الْأَصْلِ: وَمَائَتَانِ وَكَيْلًا.

قُلْتُ لَهُمَا: أَمَا عِنْدَكُمْ فِي كُتُبِكُمْ، أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حِينَ خَلَقَ أَبَانَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ جَمِيعِ الْفَوَاكِهِ فِي الْجَنَّةِ، إِلَّا مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ؟ قَالَ لَهُ: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا لِأَنَّكَ إِذَا أَكَلْتَ مِنْهَا تَمُوتُ؟

قَالَا: هَكَذَا هُوَا؟.

قُلْتُ لَهُمْ: لَوْلَا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ لَكَانَ فِيهَا إِلَى الْآنَ؟

قَالَ: نَعَمْ هُوَ كَذَلِكَ!.

قُلْتُ: فَكَانَ يَأْكُلُ مِنَ الْفَوَاكِهِ وَلَمْ تَعْمَلْ لَهُ ثِفْلًا؛ وَكَذَلِكَ لَوْ بَقِيَ إِلَى الْآنَ. وَأَمَّا الثَّفُلُ فَمَا كَانَ إِلَّا مِنْ فَاكِهِةِ الشَّجَرَةِ الْمَنْهِي عَنْهَا، وَكَذَلِكَ إِذَا رَجَعَ أَبُونَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمِيعُ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ مِنْ أَوْلَادِهِ، يَأْكُلُونَ فِيهَا وَلَا تَخْرُجُ مِنْهُمْ نَجَاسَةٌ أَبَدًا.

قَالَا: الْجَنَّةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا أَبُونَا آدَمُ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ، وَالَّتِي يَمْشِي^(١) إِلَيْهَا النَّاسُ فِي الْآخِرَةِ هِيَ فِي السَّمَاءِ.

قُلْتُ: مَا كَانَ أَبُونَا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا فِي السَّمَاءِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْضِ لَا يُسَمَّى بِجَنَّةٍ، لِأَنَّهُ مَقْهُورٌ بِالْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ وَلَا بُدَّ مِنَ التَّغْيِيرِ بِسَبَبِهَا، وَلَا بُدَّ مِنَ الثَّوْرِ وَالظُّلْمَةِ؛ وَالْجَنَّةُ لَيْسَ فِيهَا تَغْيِيرٌ وَلَا ظُلْمَةٌ؛ وَهَذَا بُرْهَانٌ أَنَّ سَيِّدَنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي جَنَّةٍ فِي السَّمَاءِ، فَبُهِتَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

وَاعْلَمْنَا أَنَّ النَّصَارَى وَالْيَهُودَ يَقُولُونَ بِمَا فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنَ التَّوْرَةِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَنَّةٍ فِي الْأَرْضِ؛ وَفِيهَا أَشْجَارٌ تُسْقَى بِمَاءٍ عَيْنِ مَاءٍ؛ وَمِنْهُ تَخْرُجُ أَرْبَعَةُ أَنْهَارَ وَهُمْ: النَّيْلُ وَالْفُرَاتُ وَقَيْنُصُونُ^(٢) وَالْذَّجَلَةُ. وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ مَعْرُوفَةٌ الْآنَ أَنَّ كُلَّ نَهْرٍ فِي بِلَادٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنْ غَيْرِهِ؛ وَمَعْرُوفٌ ابْتِدَاؤُهُ وَأَنْتِهَاؤُهُ؛ وَهَذَا دَلِيلٌ أَنَّ هَذَا النَّصْرَ بَاطِلٌ بِالْبُرْهَانِ، مِثْلَ الشَّمْسِ. وَمَعْنَى الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ فِي ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهَا تَخْرُجُ مِنَ الْجَنَّةِ،

(١) فِي الْأَصْلِ: تَمْشِي.

(٢) يُرِيدُ جِيحُونَ.

فَيَفْهَمُ ذَلِكَ مِنَ الْبَرَكَاتِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا؛ لِأَنَّ الْاِغْتِقَادَ فِي الْجَنَّةِ أَنَّهَا فِي السَّمَاءِ لَا فِي الْأَرْضِ؛ وَالْاِتِّهَارُ اِبْتِدَاؤُهَا وَانْتِهَاؤُهَا عَلَى الْأَرْضِ.

وَقَالَ فِي بَعْضِ كُتُبِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الشَّعْرَانِي - نَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ: إِنَّ سَيِّدَنَا جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَزَلَ مَاءً مِنَ الْجَنَّةِ، وَوَضَعَهُ فِي أَمَاكِنَ مِنَ الْأَرْضِ، وَمِنْهَا اِبْتِدَاءُ الْاِتِّهَارِ الْأَرْبَعَةِ: كُلُّ وَاحِدٍ مُخْتَلِفٌ عَنْ غَيْرِهِ؛ وَإِنَّ الْجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ. وَجَمِيعُ شُرَاحِ الرِّسَالَةِ قَالُوا: إِنَّ مِنْهَا أَهْبَطُ^(١) أَبُوْنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَدْ أَمَرَنِي السُّلْطَانُ مَوْلَانِي زَيْدَان - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنْ أَتَرْجِمَ لَهُ كِتَابًا عَجَمِيًّا كَبِيرًا سَمَّاهُ مُؤَلَّفُهُ: بِدْرَان^(٢) لِعَظْمِ جَبَلٍ مُسَمًى بِهَذَا الْاسْمِ لِأَنَّهُ عِنْدَ الْجُغْرَافِيِّينَ أَعْظَمُ أَعْظَمِ جِبَالِ الدُّنْيَا الْمَعْرُوفَةِ. وَلَمْ نَرِ فِي كُتُبِ الْجُغْرَافِيَّاتِ مِثْلَهُ؛ وَكَانَ بِلِسَانِ الْفَرَنْجِ؛ وَصَاحِبُ الْكِتَابِ كَانَ فَرَنْجِيًّا اسْمُهُ الْقُبْطَانُ؛ وَبِلَادُ الدُّنْيَا كُلُّهَا مُصَوَّرَةٌ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ بِطُولِ كُلِّ بَلَدٍ وَعَرْضِهِ وَالْاِتِّهَارُ؛ وَكُلُّ نَهْرٍ بِأَيِّ أَرْضٍ وَمَوْضِعٍ مَتَّبَعُهُ وَابْتِدَاؤُهُ؛ وَالْمُدُنُ الَّتِي عَلَى حَاشِيَّتِهِ؛ كُلُّ وَاحِدَةٍ بِاسْمِهَا؛ وَجَمِيعِ الْأَبْحَرِ وَالْجُزْرِ وَالْأَقَالِيمِ.

وَجَمِيعُ كُتُبِ الْجُغْرَافِيَّاتِ مُتَّفِقُونَ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ؛ وَمَوْضِعُهُ ثَمَانِ عَشْرَةَ دَرَجَةً مِنْ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ، إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ، بِبِلَادِ السُّودَانِ؛ وَالْاِتِّهَارُ الثَّلَاثَةُ فِي غَيْرِ هَذَا الْقِسْمِ الْإِفْرِيقِيِّ الَّذِي هُوَ رُبْعُ الدُّنْيَا؛ وَفِيهِ النَّيْلُ وَلَيْسَ وَاحِدٌ مِنَ الثَّلَاثَةِ فِي هَذَا الرُّبْعِ؛ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ فِي قُطْرٍ بَعِيدٍ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ. أَمَّا الْفُرَاتُ فَابْتِدَاؤُهُ بِقُرْبِ بِلَادِ الْجَرْجَانِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ مَعَ وَادِي الدُّجْلَةِ الَّذِي يَجُوزُ عَلَى بَغْدَادِ؛ وَالثَّالِثُ بِبِلَادِ الطَّطْرِ؛ وَالرَّابِعُ بِبِلَادِ أَرْمَانِيَّةَ، كَمَا قَالَ مَنْ يَدَّعِي بِمَعْرِفَةِ الدُّنْيَا.

وَقَالَ الْقُبْطَانُ الْفَرَنْجِي حِينَ بَانَ لَهُ غَلَطُ التَّوْرَةِ: هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي عِنْدَنَا فِي التَّوْرَةِ عَنِ الْاِتِّهَارِ أَنَّهَا تَخْرُجُ مِنْ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ؛ فَهُوَ بَاطِلٌ وَكَذِبٌ بِالْعِيَانِ؛ لِأَنَّ

(١) فِي الْأَصْلِ: أَهْبَطُ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: بَدْرَانِ، وَحُذِفَتِ الْأَلْفُ مَتْنًا لِلِاتِّبَاسِ، وَاسْمُ الْكِتَابِ دَارَان = Daran.

هَذِهِ الْأَنْهَارُ الْأَزْبَعَةُ الَّتِي ^(١) قَالَ تَخْرُجُ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ ^(٢) فَالْخِلَافُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ لِمَنْ يَعْرِفُ مَوَاضِعَ الدُّنْيَا؛ انْتَهَى.

وَبِهَذَا الْبُزْهَانُ الظَّاهِرُ الْمَوْجُودُ الْآنَ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْأَنْهَارِ الْأَزْبَعَةِ: فِي أَيِّ بَلَدٍ هُوَ ابْتِدَآؤُهَا فَيَجِدُ ذَلِكَ بِخِلَافٍ مَا قَالَ عَنِ الْجَنَّةِ إِنَّهُ كَانَ فِيهَا أَبُونَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا رَأَى وَتَحَقَّقَ مِنْ حَفِيِّ عَلَيْهِ ذَلِكَ: أَنَّ كُلَّ مَا ذَكَرَ فِي الْأَنْهَارِ وَهِيَ أَرْبَعَةٌ؛ تَشْهَدُ شَهَادَةً مُتَّفَقَةً أَنَّ مَنْ قَالَ عَلَيْهَا أَنَّهَا تَخْرُجُ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ فِي الْجَنَّةِ فِي الْأَرْضِ قَالَ الْبَاطِلُ؛ فَيَبْطُلُ أَيْضًا كُلُّ مَا قَالَ فِي أَبْنَاءِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَهُ فِي الْأَرْضِ.

وَأَمَّا مَا تَقُولُهُ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ عَنِ الْجَنَّةِ أَنْ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ نَعَائِمِ الدُّنْيَا، مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَقَالُوا الْحَقُّ فِي خَاصَّتِهِمْ لِأَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ كُفَّارٌ؛ وَالْمُسْلِمُونَ هِيَ لَهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَشَفَاعَةِ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقَدْ وَقَعَ لِي كَلَامٌ مِثْلُ هَذَا، فِي مَدِينَةِ بُرْصِيُوشْ، مَعَ الْقَاضِي الْمُسَمَّى فَيْرِضٍ؛ وَكَانَتْ مَوَاجِبِي فِي الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ عِنْدَهُ؛ وَكَانَ يَنْصَحُنِي كَثِيرًا، وَكَانَ يَعْرِفُ اللِّسَانَ الْأَنْدَلُسِيَّ الْعَجْمِيَّ وَقَدْ وَجَبَ لَهُ دَرَاهِمُ كَثِيرَةٌ؛ وَأَرَدْتُ أَنْ أَخْلَصُهُ فَمَا قَبْلَ مِنِّي شَيْئًا.

وَقَالَ لِي: يَا فُلَانُ، تَعَجَّبْتُ مِنْكَ كَيْفَ أَنْتَ عَلَى دِينِ الْمُسْلِمِينَ؟

قُلْتُ لَهُ: لِمَذَا؟

قَالَ: لِأَنَّ عِنْدَنَا فِي كُتُبِنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَزُورُونَ مَكَّةَ، لِيَرَوْا نَبِيَّهُمْ فِي الْهَوَاءِ، فِي وَسْطِ حَلَقَةٍ حَدِيدٍ، فِي الْهَوَاءِ، لِأَنَّ الْحَلَقَةَ فِي الْهَوَاءِ فِي وَسْطِ قُبَّةِ حَجَرِ الْمِغْنَاطِيْسِ؛ وَالْمَعْرُوفُ مِنْهُ أَنَّهُ يَجْذِبُ الْحَدِيدَ، وَالْجَذْبُ فِي الْقُبَّةِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَتَبْقَى الْحَلَقَةُ فِي الْهَوَاءِ بِنَبِيِّكُمْ، وَالْمُسْلِمُونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مُعْجَزَةٌ لِنَبِيِّهِمْ.

قُلْتُ لَهُ: هَلْ يَجُوزُ فِي دِينِكُمْ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ، وَإِنْ كَانَ بِنِيَّةِ تَقْصِيحِ دِينِ غَيْرِهِ لِتَحْسِينِ دِينِهِ وَتَرْزِينِهِ لِأَهْلِ مِلَّتِهِ؟
قَالَ: لَا يَجُوزُ ذَلِكَ!

قُلْتُ: النَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ أَذْنَبُوا ذَنْبًا كَبِيرًا فِي دِينِكُمْ.
قَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ هُوَ بِمَكَّةَ وَلَيْسَ هُوَ فِي حَلَقَةِ حَدِيدٍ؛ بَلْ هُوَ مَذْفُونٌ فِي الْمَدِينَةِ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ مَكَّةَ عَشْرَةُ أَيَّامٍ؛ وَالْمُسْلِمُونَ يَزُورُونَ الْكَعْبَةَ لِأَنَّهَا دَارُ مَبَارَكَةٍ بَنَاهَا سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قَالَ: رُزَّتْهَا أَنْتَ وَرَأَيْتَ قَبْرَ نَبِيِّكُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ؟

قُلْتُ لَهُ: لَا، وَلَكِنَّ الَّذِينَ مَشَوْا مِنْ عِنْدِنَا، يَقُولُونَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ اخْتِلَافٍ؛ وَهِيَ مَسْأَلَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا.

قَالَ: عِنْدَكُمْ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى؛ أَتُكْمُ تَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَيَتَنَعَّمُونَ بِنِعَمٍ مِثْلَ مَا فِي الدُّنْيَا!

قُلْتُ لَهُ: أَمَّا سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يُتَكَزِرْ ذَلِكَ إِذْ قَالَ فِي الْإِنْجِيلِ: «أَمَّا مَاءُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - أَغْنِي مَاءَ الْكَرْمَةِ - فَإِنِّي لَمْ نَشْرَبْ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، إِلَى أَنْ أَشْرَبُهُ مَعَكُمْ فِي الْمَلَكُوتِ».

قُلْتُ لَهُ: هُوَ هَذَا فِي إِنْجِيلِكُمْ؟

قَالَ: نَعَمْ!

قُلْتُ: وَكَيْفَ تُتَكَرَّرُونَ ذَلِكَ؟ لِأَنَّ نَعَايِمَ الدُّنْيَا دَالَّةٌ عَلَى نَعَايِمِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنَّ أُمُورَ الْجَنَّةِ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ؛ «وَفِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^(١). وَسَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ الشُّرْبَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا كَانَ يَعْلَمُهُ وَيَعْتَقِدُهُ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ أَكْلًا وَشُرْبًا.

(١) أبو داود: رفاق ٩٨، ١٠٥. ابن حنبل: ٢: ٣١٣، ٣٧٠، ٤٠٧، ٤١٦، ٤٣٨، ٤٦٢، ٤٩٥.

وَبَقِيَ الْقَاضِي يُفْتَشُ فِي نَفْسِهِ مَا يَقُولُهُ؛ وَلَمْ يَجِدْ، وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ
عُلَمَائِهِمْ.

وَهَذَا هُوَ النَّصُّ فِي الْإِنْجِيلِ: قَالَ مَتَّى فِي الْبَابِ التَّاسِعِ وَالثَّمَانِينَ: «وَفِيمَا
هُمْ يَأْكُلُونَ، أَخَذَ يَسُوعُ^(١) خُبْزًا، وَشَكَرَ وَكَسَرَ، وَأَعْطَى تَلَامِيذَهُ^(٢)» وَقَالَ:
خُذُوا كُلُّوا هُوَ جَسَدِي؛ وَأَخَذَ كَأْسًا وَشَكَرَ وَأَغْطَاهُمْ، وَقَالَ: اشْرَبُوا مِنْ هَذَا
كُلُّكُمْ لَأَنَّ هَذَا هُوَ دَمِي؛ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ الَّذِي يُهْرَقُ عَنْ كَثِيرٍ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا؛
وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لَا أَشْرَبُ عَصِيرَ هَذِهِ الْكَرْمَةِ حَتَّى إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي أَشْرَبُهُ
مَعَكُمْ جَدِيدًا فِي مَلَكُوتِ أَبِي». وَأَيْضًا قَالَ مَرْقُسُ فِي بَابِ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ: «الْحَقُّ
أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي لَا أَشْرَبُ عَصِيرَ هَذِهِ الْكَرْمَةِ حَتَّى إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ، حِينَ نَشْرَبُهُ
جَدِيدًا فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ» انتهى.

وَعِنْدَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ أَيْضًا: قَالَ إِنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ عَلَى وَجْهِ الضَّدِّ^(٣) لَهُ، وَسَأَلُوهُ؛ قَالَ لَوْكَا الْمُنْجِيلِي، فِي الْبَابِ الثَّانِي
وَالسَّبْعِينَ؛ قَالَ: «قَالَ الْيَهُودُ امْرَأَةٌ تَزَوَّجَهَا سَبْعَةُ إِخْوَةٍ؛ وَاحِدٌ بَعْدَ وَاحِدٍ وَمَاتَتْ
الْمَرَأَةُ؛ فَفِي الْقِيَامَةِ لِمَنْ مِنْهُمْ تَكُونُ زَوْجَةً؟ لَأَنَّ السَّبْعَةَ قَدْ تَزَوَّجُوهَا، فَقَالَ لَهُمْ
سَيِّدُنَا عِيسَى: أَمَّا بَنُو هَذَا الدَّهْرِ فَيَتَزَوَّجُونَ وَيُزَوَّجُونَ؛ وَأَمَّا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ
اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ الدَّهْرَ وَالْقِيَامَةَ، الْأَمْوَاتُ، فَلَا يَتَزَوَّجُونَ وَلَا يُزَوَّجُونَ لِأَنَّهُمْ لَا
يَمُوتُونَ بَلْ يَصِيرُونَ مِثْلَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ؛ وَيَصِيرُونَ أَبْنَاءَ اللَّهِ وَبَنِي الْقِيَامَةِ»
انتهى.

هَذَا السُّؤَالُ كَمَا يُقَالُ إِنَّ إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - سَأَلَ سَيِّدَنَا إِدْرِيسَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ: هَلْ يَسْتَطِيعُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا فِي قِشْرَةِ بَيْضَةٍ؟ وَعَرَفَهُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ وَجَاوَبَهُ عَلَى مُقْتَضَى عِنَادِهِ؛ وَكَذَلِكَ كَانَ جَوَابُ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْمُشْرِكُونَ أَخَذُوا بِهَذَا الْجَوَابِ، وَتَرَكُوا النَّصَّ الْأَوَّلَ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: تَلَامِذَةٌ.

(١) يَرِيدُ: يَسُوعَ.

(٣) فِي الْأَصْلِ: الضَّادُ.

ثُمَّ قَالَ لِي الْقَاضِي: اَعْلَمُ إِنَّ لِي شَيْخًا كَبِيرًا وَهُوَ قَاضٍ بَقِيَ فِي بِلَادِكُمْ سِنِينَ وَقَالَ لِي: أَنَا أَقُولُ لَكَ تَمْشِي عِنْدَهُ؛ وَأَكَّدَ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ؛ قُلْتُ لَهُ: تَمْشِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ قَالَ لِي: لَا بُدَّ أَنْ تَمْشِي عِنْدَهُ؛ فَمَشَيْتُ عَلَى غَرَضِهِ وَالتَّقَيْتُ بِهِ فِي دَارِهِ؛ وَهُوَ مِنْ نَحْوِ الثَّمَانِينَ سَنَةً.

فَلَمَّا عَرَفَنِي قَالَ لِي - بَعْدَ أَنْ أَقْبَلَ عَلَيَّ وَأَظْهَرَ الْفَرَحَ، وَجَلَسْتُ مَعَهُ - قَالَ لِي: كُنْتُ بِبِلَادِكُمْ نَحْوَ الْخَمْسِ سِنِينَ فِي الْفُسْطَنْطِينِيَّةِ؛ وَسَأَلْتُ عَنْ نَبِيكُمْ وَدُمُوهُ لِي!.

قُلْتُ: مَنْ سَأَلْتَ عَنْهُ؟ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ خَبَرُهُ مِنْ حِينَ خُلِقَ وَمَنْ أَرْضَعْتَهُ مِنَ النِّسَاءِ، وَأَيْنَ مَكَثَ وَإِلَى أَيِّ بَلَدٍ سَافَرَ وَمَا عَمِلَ مِنَ الْغَزَوَاتِ، وَمَا قَالَ مِنْ أَحَادِيثَ، وَالْأَوَامِرَ، وَالنُّوَاهِي، وَالْوَصَايَا، وَمَا عَمِلَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ، وَمَعَ مَنْ تَزَوَّجَ مِنَ النِّسَاءِ إِلَى أَنْ مَاتَ. وَأَنْتُمْ لَيْسَ لَكُمْ خَبَرُ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْنَ كَانَ وَأَيْنَ سَافَرَ، مِنْ بَعْدِ أَنْ بَلَغَ ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَنَةً، إِلَى ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ؛ الَّتِي تَقُولُونَ إِنَّهُ صُلِبَ.

قَالَ^(١): دِينُنَا هُوَ دِينُ الْحَقِّ لِأَنَّهُ مَاتَ لِيُخَلِّصَ الذَّنْبَ الْأَوَّلَ عَنْ سَيِّدِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَنِ الْجَمِيعِ بِسَبَبِ الْفَاكِهَةِ الَّتِي نَهَاها اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا فَأَكَلَهَا.

قُلْتُ: نَحْنُ عِنْدَنَا خَلَاصٌ لِمَا وَرِثْنَا مِنَ الْفَاكِهَةِ خَيْرٌ مِنْ خَلَاصِكُمْ، لِأَنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّ وَاحِدًا وَهُوَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَّصَ عَنِ الْجَمِيعِ؛ وَنَحْنُ نُخَلِّصُ كُلَّ وَاحِدٍ عَنْ نَفْسِهِ.

قَالَ: كَيْفَ هُوَ خَلَاصُكُمْ؟

قُلْتُ لَهُ: أَبُونَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي الْجَنَّةِ، وَمَا كَانَ يَخْرُجُ مِنْ جَسَدِهِ شَيْءٌ مِنَ الْفَضَلَاتِ، حَتَّى أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَمَرَ بِتَرْكِهَا، صَارَ يَخْرُجُ مِنْ جَسَدِهِ مَا لَا كَانَ لَهُ قَبْلَ.

قَالَ: نَعَمْ؟

قُلْتُ: فَهَذِهِ الْفَضَلَاتُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَّا هِيَ الَّتِي وَرِثْنَا بِسَبَبِ الشَّجَرَةِ؛ وَاعْلَمْ أَنَّهُ فَرَضَ فِي دِينِنَا، عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ بَالِغٍ؛ ذِكْرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى؛ أَنَّهُ يُصَلِّيَ لِلَّهِ تَعَالَى، فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ صَلَوَاتٍ؛ وَمِنْ شُرُوطِ فَرَائِضِهَا أَنْ يَكُونَ طَاهِرًا بَوْضُوءٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ لِحَضْرَةِ الْمَوْلَى إِلَّا بَوْضُوءٍ.

وَالْوُضُوءُ مُطَهَّرٌ لِلْجَسَدِ، مِمَّا وَرِثَ مِنَ الْفَاكِهَةِ الْمَذْكُورَةِ؛ وَأَخْدَثْتُ فِي الْجَسَدِ التَّجَاسَّاتِ فَيَغْسِلُ الْإِنْسَانُ مَوَاضِعَ التَّجَاسَّةِ فِي الْجَسَدِ؛ ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ لِأَجْلِ أَنَّ أَبَانَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْفَاكِهَةِ الَّتِي نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهَا؛ وَقَمَهُ لِأَنَّهُ أَكَلَ مِنْهَا؛ وَأَنْفَهُ لِأَنَّهُ اسْتَنَشَقَ الْفَاكِهَةَ؛ وَوَجْهَهُ لِأَنَّهُ تَوَجَّهَ إِلَيْهَا؛ وَيَمْسَحُ بِرَأْسِهِ لِأَنَّهُ دَخَلَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ وَأُذُنَيْهِ لِأَنَّهُ سَمِعَ بِهِمَا مَا قِيلَ لَهُ فِي الْفَاكِهَةِ عَكْسَ مَا قِيلَ لَهُ أَوَّلًا؛ وَرِجْلَيْهِ لِأَنَّهُ سَعَى بِهِمَا إِلَى الشَّجَرَةِ؛ وَالْمَوَاضِعَ كُلَّهَا يَغْسِلُهَا بِالمَاءِ الطَّاهِرِ، لِأَنَّ فِي الدُّنْيَا لَيْسَ شَيْءٌ لِلطَّهَارَةِ مِثْلُهُ، حِينَئِذٍ يَدْخُلُ الْإِنْسَانُ يُتَاجَى رَبُّهُ وَهُوَ فِي الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ أَبُوْنَا آدَمُ قَبْلَ أَنْ أَكَلَ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ.

وَتَدُومُ هَذِهِ الطَّهَارَةُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ مِمَّا وَرِثَ؛ فَيَحْتَاجُ يَتَوَضَّأُ؛ وَهَذَا خَلَاصٌ خَيْرٌ مِنْ خَلَاصِكُمْ، وَأَنْتَ قَاضٍ تُذَكِّرُ الْحَقَّ بِعَقْلِكَ؛ فَالَّذِي يُخْلَصُ عَنْ نَفْسِهِ فَهُوَ بِهَذَا الْعَمَلِ يَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ، وَمَنْ لَا يُصَلِّي وَلَا يَتَوَضَّأُ يُطْلَبُ بِذَلِكَ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْلَصُ عَنِ الْجَمِيعِ.

فَتَعَجَّبَ الْقَاضِي وَقَالَ: أَبَدًا مَا سَمِعْتُ مَنْ قَالَ هَذَا الْكَلَامَ.

وَعَبَّرَ ذَلِكَ مِمَّا تَكَلَّمْنَا؛ وَلَمْ نُثَبِّتْ إِلَّا لِهَذَا.

وَالسِّرُّ فِي الْوُضُوءِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْتُ؛ كُنْتُ قَرَأْتُ ذَلِكَ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، قَبْلَ خُرُوجِي مِنْهَا فِي كِتَابٍ يُسَمَّى: بِـ «مُخْتَصَرِ جَبْرِيلَ» وَكَانَ فِيهِ أَنَّ الْمَنِيَّ وَجَدَ فِي أَبِيْنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ أَنْ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ؛ وَأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ كُلِّ وَبَرَةٍ مِنْ جَمِيعِ الْجَسَدِ؛ وَلِذَلِكَ وَجَبَ غُسْلُهُ جَمِيعًا.

ثُمَّ التَّقَيْنْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ بِابْنِ أَخِي الْقَاضِي - وَهُوَ الَّذِي قَالَ لِي أَنْ أَمْشِيَ إِلَى عَمِّهِ - وَلَمَّا أَنْ رَأَيْتِي قَالَ لِي: رُدِّيْ بِالْكَ، إِنَّ عَمِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ فَدَعُهُ عَلَى دِينِهِ لَا تَرُدَّهُ مُسْلِمًا!.

قُلْتُ لَهُ: أَنْتَ أَكْذَبْتَ عَلَيَّ الْقُدُومَ إِلَيْهِ!.

قَالَ: هُوَ يَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَمْشِيَ لَهُ وَلَكِنْ رَأَيْتِي وَصَيْتُكَ؛ وَلَا أَذْرِي الْآنَ هَلْ رَجَعْتُ إِلَيْهِ أَمْ لَا.

وَقَدْ وَقَعَ لِي كَلَامٌ بِالْمَدِينَةِ الْمَذْكُورَةِ مَعَ رَجُلٍ مُفْتِيٍّ؛ قَالَ لِي يَوْمًا:

مَاذَا تَقُولُونَ فِي عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

قُلْتُ: إِنَّهُ نَبِي رَسُولُ اللَّهِ!.

قَالَ: مَا تَقُولُونَ إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ حَقِيقَةً؟

قُلْتُ لَهُ: مَا تَقُولُ ذَلِكَ!.

قَالَ: فَمَنْ كَانَ أَبُوهُ؟

قُلْتُ: الَّتِي كَانَتْ أُمُّ حَوَاءَ كَانَ أَبُوهُ!.

قَالَ: بَيِّنْ مَا قُلْتَ لِأَنِّي مَا فَهِمْتُ مَا قُلْتَهُ عَنْ أُمَّنَا حَوَاءَ.

قُلْتُ لَهُ: ااعْلَمْ أَنَّ الْخِلْقَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ هِيَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَبَانَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ غَيْرِ أَبَوَيْنِ؛ وَخَلَقَ أُمَّنَا حَوَاءَ مِنْ غَيْرِ أُمٍّ؛ وَخَلَقَ سَائِرَ النَّاسِ مِنْ أَبَوَيْنِ؛ وَخَلَقَ سَيِّدَنَا عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أُمٍّ لَيْسَ لَهُ أَبٌ؛ كَمَا خَلَقَ أُمَّنَا حَوَاءَ وَلَيْسَ لَهَا أُمٌّ؛ وَلِذَلِكَ قُلْتُ لَكَ حِينَ سَأَلْتَنِي: مَنْ كَانَ أَبُوهُ؟ قُلْتُ: إِنَّ الَّتِي كَانَتْ أُمُّ حَوَاءَ كَانَ أَبُوهُ.

ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: هَلْ تَرَى أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى صَالِحَةٌ لَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا؟

قَالَ: نَعَمْ!.

حَيْثُذِ قَالَ لِلْحَاضِرِينَ مِنَ النَّصَارَى أَنْ يَشْهَدُوا عَلَيْهِ، أَنَّهُ نَصْرَانِي يُؤْمِنُ^(١)
بِكُلِّ مَا فِي دِينِهِمْ فِي الدَّارِ الَّتِي فِي رُومَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ أَقُولُ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ
الَّذِي قَالَهُ الْمُسْلِمُ فِيهِ مَا يُسْمَعُ وَهُوَ كَلَامٌ عَظِيمٌ؛ أَوْ قَالَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى
قَالَ لَهُ الْحَاضِرُونَ مِنَ النَّصَارَى: لَا يُقْبَلُ ذَلِكَ. فَزَادَ عَلَيْهِمْ هُوَ بِمَا بَانَ لَهُ مِنَ
الْحَقِّ.

وَأَيْضًا كُنْتُ لَيْلَةً بِبَابِ طَبِيبٍ صَنِدَلَانٍ، لَأَنْ يَتْلِكَ الْبِلَادِ؛ بَلْ بِبِلَادِ
النَّصَارَى كُلِّهَا؛ جَمِيعُ دَكَائِينَ الْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ لَمْ يَسُدُّوْهَا إِلَى أَنْ يَجُوزَ وَفْتُ
الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، وَكَانَ بَغْضُ النَّصَارَى فِي كَلَامِ مَعِي فِي الدِّينِ، وَفِي مُعْجَزَاتِ
سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قُلْتُ لَهُمْ: الْمُعْجِزَةُ هِيَ خَارِقَةُ لِلْعَادَةِ؛ يَخْلُقُهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيِ الْأَنْبِيَاءِ
وَالصَّالِحِينَ.

وَقَالَ وَاحِدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْكُفَّارِ: الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى يَدَيِ سَيِّدِنَا
عِيسَى هُوَ كَانَ يَعْمَلُهَا!.

وَرَأَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ وَاحِدًا مِنْ أَصْحَابِي خَرَجَ مِنْ بَيْنَتِنَا بِسُرْعَةٍ؛ فَسَأَلْتُهُ بَعْدَ
ذَلِكَ لِمَ أَذًا خَرَجَ وَذَهَبَ؟ قَالَ: لِأَنِّي حِينَ سَمِعْتُ النَّصْرَانِي يَقُولُ إِنَّ الْمُعْجِزَاتِ
الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى يَدَيِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ عَمَلُهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، خِفْتُ
مِنَ الدَّارِ الْعَالِيَةِ الَّتِي كُنَّا بِبَابِهَا أَنْ تَقَعَ عَلَيْنَا بِسَبَبِ مَا قَالَ.

وَقَدْ قَالَ بِدْرُس، الَّذِي كَتَبَ رُبْعَ الْإِنْجِيلِ، فِي رِسَالَتِهِ فِي الْبَابِ الثَّانِي،
فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ عِيسَى النَّصَارَى ذَكَرَ مُرَكِّي مِنَ اللَّهِ
بَيْنَكُمْ فِي مُعْجَزَاتٍ وَعَلَامَاتٍ عَمِلَهَا اللَّهُ فِيمَا بَيْنَكُمْ عَلَى يَدَيْهِ كَمَا فِي عِلْمِكُمْ»؛
انْتَهَى. انْظُرْ هَذَا الْقَوْلَ الصَّرِيحَ الْمُوَافِقَ لِذَيْنَا وَاعْتِقَادِنَا الَّذِي قَالَهُ مَنْ كَتَبَ رُبْعَ
الْإِنْجِيلِ بِخِلَافِ نَصَارَى هَذَا الزَّمَنِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: يَا مَنْ.

وَقَدْ مَشَيْتُ إِلَى مَدِينَةِ طُلُوشَةَ^(١)، وَهِيَ مِنَ الْمُدُنِ الْكِبَارِ بِفَرَنْجَةِ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ الْعَظِيمِ، الَّذِي يَمُرُّ مِنْهَا إِلَى بُزْصِيُوشَ، وَبَيْنَ الْمَدِينَتَيْنِ نَحْوُ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ؛ وَعَزَمْتُ تُؤَلِّي مِنْهَا إِلَى بُزْصِيُوشَ عَلَى النَّهْرِ فِي قَارِبِ. وَلَيْلَةً قَبْلَ يَوْمِ السَّفَرِ رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ جَمَاعَةَ شَيَاطِينٍ تَدُورُ بِي مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَجَعَلْتُ أَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢) وَأَشِيرُ إِلَيْهِمْ فَتَهَرَّبُ الشَّيَاطِينُ عَنِّي ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَيَّ، وَأَنَا أُعِيدُ قِرَاءَةَ السُّورَةِ وَتَذْهَبُ عَنِّي. فَأَصْبَحْتُ مُتَغَيِّرًا مِنْ أَجْلِ الرُّؤْيَا؛ وَقُلْتُ: الشَّيَاطِينُ أَعْدَاءُ فِي التَّوَالِيلِ، وَرَكِبْتُ فِي الْقَارِبِ وَنَوَيْتُ تَقْرَأُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُورَةَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، أَلْفَ مَرَّةٍ؛ وَنَدَعُو^(٣) اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِبَرَكَتِهَا يَذْفَعُ عَنِّي شَرَّ الْأَعْدَاءِ.

وَكَانَ الْقَارِبُ عَامِرًا بِالرُّجَالِ وَبَيْنَهُمْ قَسِيَّانِ مُتْرَهَبَانِ؛ وَعَرَفَنِي وَاجِدًا مِنَ الَّذِينَ كَانُوا بِالْقَارِبِ وَكُنْتُ - كَمَا تَقَدَّمَ - مِنْ حِينَ دَخَلْتُ رَوَانَا لَبَسْتُ لِلضَّرُورَةِ لِبَاسَ الْفَرَنْجِ؛ وَذَكَرَنِي لِلْقَسِيَّيْنِ؛ فَتَادَانِي وَقَالَ لِي: اجْلِسْ بِإِزَائِي فَجَلَسْتُ. فَقَالَ لِي: أَنْتَ مُسْلِمٌ؟ قُلْتُ: مُسْلِمٌ لِلَّهِ الْحَمْدُ!

وَكَانَ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الطُّلَيَّانِ، وَهُوَ قَرِيبٌ جِدًّا مِنْ لِسَانِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ الْعَجَجِي.

قَالَ لِي: لَقَيْتُ فِي الْبُنْدُوقِيَّةِ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ، وَرَأَيْتُهُمْ يَعْمَلُونَ شَيْئًا كَأَنَّهُ عَبَثٌ لَا أَضْلَ لَهُ فِي دِينٍ. قُلْتُ: مَاذَا رَأَيْتَ مِنْهُمْ؟

قَالَ: إِذَا نَزَلَتْ نَجَاسَةٌ أَوْ بَوْلٌ فِي حَوَائِجِهِمْ، يَغْسِلُونَ ذَلِكَ الْمَحَلَّ بِمَاءٍ، فَسَأَلْتُهُمْ عَنِ السَّبَبِ الْمَوْجِبِ لِذَلِكَ فَلَمْ نَجِدْ عِنْدَهُمْ خَبْرًا.

قُلْتُ لَهُ: السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ عَلَيْهِ فَرَضٌ أَنْ يُصَلِّيَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ صَلَوَاتٍ؛ كُلُّ صَلَاةٍ فِي وَقْتِهَا؛ مَا بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ وَمِنْ

(١) هي مدينة تولوز الفرنسية.

(٢) سورة الإخلاص، آية: ١.

(٣) في الأصل: وندع.

فَرَايِضُ الصَّلَاةِ أَنْ يَكُونَ طَاهِرًا فِي جَسَدِهِ وَلِبَاسِهِ، لِأَنَّهُ يُنَاجِي اللَّهَ رَبَّهُ؛ وَيُنَبِّغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى أَفْضَلِ حَالَةٍ؛ وَلَمَّا كَانَ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِنْسَانِ مِنَ السَّبِيلَيْنِ نَجَسًا، بِسَبَبِ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَكَلَ مِنْهَا أَبُوْنَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ فَاكِهِتِهَا وَنَسِيَ مَا نَهَاها اللَّهُ عَنْهَا؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، رَجَعَ جَسَدُهُ يَذْفَعُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مَا لَا كَانَ قَبْلَ، فَوَرِثْنَا ذَلِكَ. فَإِذَا وَقَعَ شَيْءٌ مِمَّا يَخْرُجُ مِنَ الْجَسَدِ فِي ثَوْبِهِ، أَوْ لَحْمِهِ؛ يُزِيلُهُ بِالمَاءِ الطَّاهِرِ؛ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ بِحَضْرَةِ مَوْلَاهُ طَاهِرًا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ أَمَّا فِي الظَّاهِرِ فَفِي الْجَسَدِ، وَمَا يَلْبَسُهُ وَالْمَوْضِعَ الَّذِي يَغْبُدُ فِيهِ، وَمَا فِي بَاطِنِهِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يَتَفَكَّرُ إِلَّا فِيمَا يَفْرَأُهُ، وَهَذَا هُوَ الْأَضْلُ وَالسَّبَبُ الْمَوْجِبُ فِي غَسْلِ النِّجَاسَةِ.

فَاسْتَخَسَنَ الْجَوَابَ غَايَةً؛ حَتَّى قَالَ لِلَّذِينَ كَانُوا فِي الْقَارِبِ بِلِسَانِهِمْ كَلَامَ الْخَيْرِ عَنِّي، وَبَحَثْنِي فِي مَسَائِلِ دَقِيقَةٍ وَنَسِيتُهَا، وَلَمَّا صَدَرَ مِنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ عَنِّي خَيْرًا وَأَنَا عَلَى غَيْرِ دِينِهِ؛ فَمَا رَأَى فِي نَفْسِهِ مِنَ الرَّأْيِ إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُمْ: الْمُسْلِمُونَ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عُقُولًا وَافِرَةً - كُلُّ ذَلِكَ لِيَتَكُونَ عُقُوبَتُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَشَدَّ وَأَقْوَى إِذْ لَمْ يَكُونُوا نَصَارَى؛ قَالَ ذَلِكَ بِلِسَانِهِمْ وَكُنْتُ أَفْهَمُهُ.

وَكَانَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ أَقُولَ لَهُ حِينَ ذَكَرْتُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَخْتَاجُ أَنْ يَكُونَ طَاهِرًا فِي الْبَاطِنِ؛ بِأَنْ أَقُولَ لَهُ: أَوَّلُ طَهَارَةِ الْقَلْبِ أَنْ لَا يَكُونَ مُشْرِكًا بِاللَّهِ. وَكَانَ مَعَ الرَّاهِبِ صَاحِبُهُ عَلَى الرَّهْبَانِيَّةِ وَمَذْهَبُهُ؛ وَكَانَ يَقُولُ بِلِسَانِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ مَعِيَ بِالتَّثْلِيثِ فِي الْأَلُوْهِيَّةِ؛ وَيُجَاوِبُهُ وَيَقُولُ لَهُ: مَا يَلِيْقُ ذَلِكَ.

وَمَشِينَا الْيَوْمَ كُلَّهُ؛ وَعِنْدَ الْمَغْرِبِ خَرَجْنَا جَمِيعًا مِنَ الْقَارِبِ إِلَى دَارٍ مَنْزِلَةٍ بِحَاشِيَةِ الْوَادِي؛ وَكُنْتُ فِي أَعْلَى الدَّارِ، فِي مَوْضِعٍ خَارِجٍ عَنِ الْبَيْتِ الَّذِي نَزَلْنَا فِيهِ أَقْرَأَ لِنَيْتِمِ الْأَلْفِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وَبَعَثْتُ لِلنَّفْسِيسِينَ شَيْئًا مِنَ الْخُبْزِ مَعْجُونًا بِسُكَّرٍ وَبَيْضٍ.

وَنَادَانِي وَقَالَ لِي: أَنَا صَائِمٌ هَذِهِ الْأَيَّامَ؛ وَهَذَا الَّذِي بَعَثْتَ لِي فِيهِ بَيْضٌ؛ وَلَا نَأْكُلُ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ الصُّومِ. وَاشْتَغَلَ يَذْكُرُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّفْسِ، وَأَنَّهُ لَا يَلْبَسُ كِتَانًا، وَلَا يَأْخُذُ بِيَدِهِ دَرَاهِمَ، وَلَا يَأْكُلُ كَثِيرًا. وَأَخَذَ فِي مَدْحِ نَفْسِهِ وَمَذْهَبِهِ

وَقُلْتُ لَهُ: مِثْلُكَ مَا يَجِدُ الشَّيْطَانُ وَلَا النَّفْسُ سَبِيلًا لِلتَّوَسُّوسِ ظَاهِرًا إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْحَسَنَةِ!

قَالَ: كَيْفَ تَأْتِي مِنْ بَابِ الْحَسَنَاتِ؟ لِأَنِّي مَا فَهِمْتُ ذَلِكَ!

قُلْتُ لَهُ: أَنْتُمْ الْقَسِيسِينَ تَزُورُونَ النِّسَاءَ وَتَسْتَخْلُونَ بِهِنَّ وَهُنَّ يُحْسِنُ إِلَيْكَ بِالصَّدَقَاتِ فَتَقُولُ لَكَ نَفْسُكَ: سِرْ إِلَى فُلَانَةٍ إِنَّهَا مِنَ الصَّالِحَاتِ، وَاذْكُرْ لَهَا شَيْئًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَالْهَمِّهَا إِلَيْهِ، وَيَخْصِلُ لَكَ أَجْرٌ وَحَسَنَةٌ؛ وَهَذَا هُوَ بَابُ الْحَسَنَةِ. وَعَرَضَهَا مِنْكَ أَنْ تَقْرُبَ مِنْهَا حَتَّى تَتَمَكَّنَ الْمَحَبَّةُ مِنْ قُلُوبِكُمَا؛ فَإِمَّا تَغْلِبُكُمَا حَتَّى تَقَعَا فِي الْمَعْصِيَةِ وَالْحَرَامِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ، وَإِمَّا تَكْثُرُ الْمَحَبَّةُ بَيْنَكُمَا وَتَسْغَلَكَ حَتَّى إِنَّكَ إِذَا كُنْتَ فِي صَلَاتِكَ تَذْكُرُ بِاللِّسَانِ وَمَعَهَا قَلْبُكَ، وَهَذَا هُوَ بَابُ نَصِيحَتِهَا.

فَسَكَتَ الْقُسُ وَلَا أَنْكَرَ وَلَا أَنْعَمَ. وَكَانَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يُقَالَ لَهُ: مِثْلُكَ لَا يُوَسَّوِسُهُ الشَّيْطَانُ وَلَا النَّفْسُ أَبَدًا؛ لِأَنَّ اللَّصَّ لَا يَقْصُدُ إِلَّا الْبَيْتَ الْعَامِرَ بِالْخَيْرَاتِ؛ وَمِثْلُكَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ الْمَالِكِ الدِّيَانِ، وَعَابِدُ الْأَوْثَانِ، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا أَنْ يُعْظَّمَ لَكَ الشَّانُ، وَيُزَيَّنَ لَكَ الطَّرِيقُ الذَّاهِبُ إِلَى النَّيِّرَانِ.

ثُمَّ قَالَ: مَا السَّبَبُ فِي مَنَعِ الْخَمْرِ فِي دِينِكُمْ؟

قُلْتُ لَهُ: لِأَنَّهُ مُسَكِّرٌ يُرِيلُ الْعَقْلَ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ وَأَفْضَلُ مَا فِي الْإِنْسَانِ.

قُلْتُ لَهُ: وَإِذَا كُنْتَ صَائِمًا تَقْطَعُ شُرْبَ الْخَمْرِ؟

قَالَ: لَا!

ثُمَّ قَالَ لِي وَاحِدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ رَأَيْتُهُمْ فِي النَّوْمِ - وَكَانَ كَافِرًا مِنَ الَّذِينَ جَاءُوا فِي الْقَارِبِ مَعَنَا -: كَيْفَ أَنْتَ فِي بِلَادِنَا؟ وَمَنْ أَذِنَ لَكَ فِي ذَلِكَ؟ وَأَظْهَرَ الْعُضْبَ وَأَكْثَرَ الْكَلَامَ.

فَأَظْهَرْتُ لَهُمْ كِتَابَ سُلْطَانِهِمْ، وَسَخَّرَهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا حَتَّى إِنَّا إِذَا بَلَّغْنَا إِلَى دَارِ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ نَنْزِلُ لِلْمَيْمِيتِ فِيهَا، فَيَكْلُمُونُ رَبَّ الدَّارِ وَيَقُولُونَ: هَذَا رَجُلٌ تُرْكِي

- لَأَنَّ فِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْ سُلْطَنَاتِ النَّصَارَى لَا يُسْمُونَ الْمُسْلِمَ إِلَّا تَزْكِي كَمَا تَقَدَّمَ - وَقَدْ جَاءَ مِنْ بِلَادِهِ، وَأُذِنَ لَهُ سُلْطَانُنَا فِي قَضَاءِ أَغْرَاضِهِ، وَيَسْتَحِقُّ أَنْ تَقُومَ بِحَقِّهِ؛ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْخَيْرِ.

وَكَانُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ يَفْرَحُونَ بِنَا فِي الْقَارِبِ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي عَبَرْنَا فِيهِ عَلَى النَّهْرِ؛ كُلُّ ذَلِكَ بِبَرَكَاتِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ؛ خَلَّصَنَا اللَّهُ مِنْ شَرِّهِمْ وَعَظَّمَنَا فِي أَعْيُنِهِمْ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

البَابُ العَاشِرُ

في مُنَاطَرَاتِ الْيَهُودِ بِبِلَادِ فَرَنْجَةِ وَفَلَنْضِسِ^(١)

اعْلَمُ أَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ هُمْ بِتِلْكَ الْبِلَادِ، كَانَ أَضْلَهُمْ فِي قَدِيمِ الزَّمَنِ، وَفِي زَمَانِنَا؛ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ؛ وَأَكْثَرُهُمْ يُبْرَتَقَالُ؛ وَكَانُوا فِي الظَّاهِرِ نَصَارَى؛ وَفِي خَفَاءٍ مِنْهُمْ يَهُودٌ، وَكَانُوا يَخْفُونَ أَنْفُسَهُمْ بَيْنَ النَّصَارَى أَكْثَرَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ؛ وَيَقْرَأُونَ الْعُلُومَ بِالْعَجَمِيَّةِ، وَلَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا بِهَا؛ وَيُذِرْكُونَ بِالْعِلْمِ بَغْضَ الْمَرَاتِبِ، وَإِذَا أَذْرَكَ أَحَدُهُمْ أَمْرًا يَتَحَكَّمُ عَلَى النَّاسِ يَضُرُّ بِهِمْ كَثِيرًا لَا سِيَّمَا بِالْأَنْدَلُسِ؛ حَتَّى إِنَّ النَّاسَ إِذَا لَحِقَهُمْ^(٢) ضَرَّرَ مِنْ يَحْكُمُ، سِوَاءَ كَانَ الْحُكْمُ عَلَى النَّصَارَى أَوْ عَلَى الْأَنْدَلُسِ يَتَحَتَّوْنَ عَنْ أَضْلِهِ؛ وَيَجِدُونَهُ يَهُودِيًّا مَخْفِيًّا أَوْ مِنْ سُلَالَتِهِمْ: إِمَّا مِنَ الْأَبَوَيْنِ أَوْ مِنْ جِهَةِ أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ؛ لِأَنَّهُمْ مِنْ أَجْلِ الرِّيَاسَةِ وَالطَّمَعِ، كَانُوا يَخْتَلِطُونَ فِي التَّزْوِيجِ مَعَ النَّصَارَى، وَيَغْطُونَ بَنَاتَهُمْ وَيَتَزَوَّجُونَ مِنْهُمْ. وَجَمِيعُ الْيَهُودِ فِيهِمْ مِنَ الْكِبَرِ الْخَفِيِّ مَا لَا كُنْتُ نَظُنُّ فِيهِمْ؛ حَتَّى رَأَيْتُهُمْ بِالْبِلَادِ الْمَذْكُورَةِ؛ وَهِيَ فَرَنْجَةُ وَفَلَنْضِسِ. وَفِيهَا هُمْ أَشْهَرُ مِمَّا هُمْ بِبِلَادِ الْفَرَنْجِ، لِأَنَّ لَهُمُ الْإِذْنَ فِي نَقْلِ السِّلَاحِ وَاللِّبَاسِ مِثْلَ أَهْلِ فَلَنْضِسِ.

وَالْتَقَيْتُ^(٣) فِي مَدِينَةِ بُرْصِيُوشِ بِفَرَنْجَةِ بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ وَبَلَّغُوا وَأَطْنَبُوا فِي مَذْهِبِ دِينِهِمْ حَتَّى رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْفِينِي فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مِنْ كُتُبِنَا إِلَّا إِذَا كَانَ مِنْ

(١) فلنضس: هي بلاد النذرلند أو هولندا. (٢) في الأصل: الحَقْم.

(٣) وكانت إقامته في بورودو ما بين ستي ١٦١١ و ١٦١٢ م.

كُتِبَهُمْ، فَهُوَ أَقْوَى وَأَبْلَغُ كَمَا اتَّفَقَ لِي مَعَ النَّصَارَى، فَاتَّصَلْتُ بِالتَّوْرَةِ بِاللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ؛ وَوَجَدْتُ فِيهَا مَسَائِلَ كَثِيرَةً لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، فَفِي التَّوْرَةِ الْكُتُبُ الْخَمْسَةُ الْأَوَّلُ؛ فَهِيَ مَنْسُوبَةٌ لِسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِيهَا أُمُورُ دِينِهِمْ؛ وَجَمِيعُ كُتُبِ التَّوْرَةِ مَعَ الْخَمْسَةِ الَّتِي ذَكَرْتُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ كِتَابًا؛ وَلَمْ نَرِ فِي جَمِيعِهَا ذِكْرَ جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ وَلَا عَذَابٍ الْآخِرَةِ؛ بَلْ فِيهَا الْمَذْحُ النَّامُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى قَالَ فِيهَا: «لَا تَأْخُذْ رَبًّا أَوْ طَالِعًا فِي الْمَالِ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَجُوزُ الْأَخْذُ مِنْ غَيْرِهِمْ».

وَوَجَدْتُ فِي أَحَدِ الْكُتُبِ الْخَمْسَةِ، أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا جَامَعَ زَوْجَتَهُ وَجَبَ عَلَيْهِمَا غُسْلُ جَمِيعِ الْجَسَدِ بِمَاءٍ طَاهِرٍ؛ وَكَذَلِكَ مِنْ خُرُوجِ الْمَنِيِّ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ وَجَبَ عَلَيْهَا مِنَ الْحَيْضَةِ أَيْضًا. وَوَجَدْتُ فِيهَا أَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ جَنَّا الْجَنَّةِ، وَسَأَلْتُ عُلَمَاءَهُمْ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَغَيْرِهَا عَلَى هَذَا الْمَذْكَورِ فِي التَّوْرَةِ الْمُسَمَّى بِجَنٍّ؛ وَأَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ، قَالُوا: لَمْ نَذَرِ.

ثُمَّ إِنِّي بَعْدَ أَنْ وَلَّيْتُ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، بِمَدِينَةِ مَرَاكُشْ، انْتَصَلْتُ بِكِتَابٍ يُسَمَّى «بِالسِّيفِ الْمَحْدُودِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ» لِعَبْدِ الْحَقِّ الْإِسْلَامِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَوَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِدِينِ الْإِسْلَامِ؛ وَأَتَى بِالنُّصُوصِ مِنَ التَّوْرَةِ بِالْخَطِّ الْعِبْرَانِيِّ، وَيَضَعُهَا فِي طُرَّةِ الْكِتَابِ، ثُمَّ كَتَبَ الْأَلْفَاظَ بِالْخَطِّ الْعَرَبِيِّ فِي دَاخِلِ الْأَسْطَارِ؛ ثُمَّ تَفْسِيرُ الْمَعْنَى بِأَثَرِهِ، وَذَكَرَ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّوْرَةِ اسْمَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ بِرُمُوزٍ وَحَلَّهَا بِأَسْرَارِ الْحُرُوفِ، وَالَّذِي بَقِيَ فِي حِفْظِي وَاحِدٌ مِنْهَا؛ اِكْتَفَيْتُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ؛ وَهُوَ كَافٍ بَابِنَ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ فِي التَّوْرَةِ فِي بَابٍ: «يُدْخِلُ اللَّهُ جَنَّا الْجَنَّةَ» فَأَمَّا جَنِّ فَهُوَ اسْمُ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَهُوَ اسْمُهُ أَحْمَدُ؛ لِأَنَّ الثُّونَ تَنْقُطُ خَمْسِينَ بِالْحِسَابِ الْمَشْرِقِيِّ وَالْمَغْرِبِيِّ؛ وَكَذَلِكَ الْجِيمُ ثَلَاثَةٌ؛ وَالْمَجْمُوعُ ثَلَاثَةٌ وَخَمْسُونَ، وَهُوَ مَا تَنْقُطُ حُرُوفُ أَحْمَدَ بِالْإِصْطِلَاحِ الْمَشْرِقِيِّ وَالْمَغْرِبِيِّ؛ فَأَمَّا الْأَلِفُ فَوَاحِدٌ، وَالْحَاءُ ثَمَانِيَةٌ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ وَالدَّالُّ أَرْبَعَةٌ؛ فَالْمَجْمُوعُ ثَلَاثَةٌ وَخَمْسُونَ؛ وَهَذَا بُرْهَانٌ وَدَلِيلٌ قَطْعِي أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ مَذْكَورُ اسْمُهُ فِي التَّوْرَةِ إِلَى الْآنَ.

وَوَجَدْتُ فِيهَا أَيْضًا أَنَّ الْاِثْنَيْ عَشَرَ سِبْطًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ السَّبْعَةُ مِنْهُمْ
أُمَهَاتُهُمْ كُلُّ وَاحِدَةٍ أُمٌ وَلَدٌ، وَلَيْسَ بِزَوْجَةٍ نِكَاحٍ.

وَمِنْ الْمَسَائِلِ الَّتِي قَالَ^(١) لِي الْيَهُودُ: إِنَّ أَضْلَنَا الْقَدِيمَ مِنْ سَيِّدِنَا إِسْمَاعِيلَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِنَّ أُمَّهُ لَيْسَتْ كَأُمِّ سَيِّدِنَا إِسْحَقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَأَنَّهَا كَانَتْ زَوْجَةً
لِسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَمْلُوكَةٌ.

قُلْتُ لَهُمْ: كُلُّ مَا فَعَلَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَا أَبَاحَهُ اللَّهُ
تَعَالَى؟

ثُمَّ سَأَلْتُهُمْ عَنِ الْاِثْنَيْ عَشَرَ سِبْطًا.

فَيَقُولُونَ: هُمْ الْأَضْلُ فِي الدِّينِ؛ وَهُمْ الْمَذْكُورُونَ الْمَقْبُولُونَ عِنْدَ اللَّهِ
تَعَالَى!.

ثُمَّ أَقُولُ لَهُمْ: فَالسَّبْعَةُ مِنْهُمْ لَمْ تَكُنْ أُمَهَاتُهُمْ زَوَاجَاتُ^(٢) نِكَاحٍ؛ وَكَمَا هُمْ
عِنْدَكُمْ فِي مَقَامٍ مَحْمُودٍ، كَذَلِكَ كَانَ مَقَامُ سَيِّدِنَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَا
يَجُوزُ لَكُمْ أَنْ تَسْتَقْبِضُوهُ بِسَبَبِ أُمِّهِ.

ثُمَّ يَسْأَلُونَنِي سُؤَالَآ؛ وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَنَّ أَحَدًا لَا يَجِدُ مَا يُجَاوِبُ عَلَيْهِ؛ وَذَلِكَ
أَنَّهُمْ قَالُوا لِي: الدِّينُ الَّذِي أَتَى بِهِ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، مَا يَبْتَنَّا نِزَاعَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

قَالُوا: سَلَاطِينُ الدُّنْيَا يَرْجِعُونَ فِيمَا أُعْطُوا مِنْ كُتُبِهِمْ مُعْلَمَةً مِنْهُمْ.

قُلْتُ: لَا يَرْجِعُونَ إِلَّا فِيمَا يَظْهَرُ أَنَّهُ يَلِيقُ بِهِمْ، وَفِي بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ؛ وَنَحْنُ
عِنْدَنَا فِي دِينِنَا: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَرَيْثُتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣).

قَالُوا: لَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَنَا.

(٢) فِي الْأَصْلِ: زَوْجَةٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ: قَالُوا.

(٣) سُورَةُ الرِّعْدِ، آيَةُ: ٣٩.

قُلْتُ لَهُمْ: عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ مَسْأَلَةٌ مِثْلُ مَا قَالَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ إِنَّهُ يَمْحُو وَيُثَبِّتُ.

قَالُوا: فِي أَيِّ مَوْضِعٍ فِي التَّوْرَةِ؟

قُلْنَا: فِي الْبَابِ الْعِشْرِينَ مِنَ الْكِتَابِ الثَّانِي لِلْسَّلَاطِينِ؛ قَالَ: إِنَّ السُّلْطَانَ حَزَنِيهِ مَرَضٌ بِمَرَضِ الْمَوْتِ؛ وَجَاءَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ يَشْعِيهِ ابْنُ النَّبِيِّ مُزٌ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَنِي إِلَى دَارِكَ؛ إِنَّكَ تَمُوتُ وَلَا تَعِيشُ؛ فَدَعَا وَبَكَا بُكَاءَ شَدِيدٍ، ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً صَادِقَةً؛ ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ يَشْعِيَهُ: «أَزْجِعْ إِلَى سُلْطَانِ بِلَادِي وَقُلْ لَهُ: رَأَيْتُ بُكَاءَكَ وَقَبِلْتُ دُعَاءَكَ؛ وَفِي ثَالِثِ يَوْمٍ يَأْتِي إِلَى بَيْتِي وَتَزِيدُ فِي عُمْرِهِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ وَنُنَجِّيهِ مِنْ سُلْطَانٍ شَوْمٍ؛ وَنَحْفَظُ هَذِهِ الْمَدِينَةَ، انْتَهَى.

فَكُلُّ مَنْ نَسَأَلُهُ مِنْ عُلَمَائِهِمْ عَنْ هَذَا: هَلْ هُوَ فِي التَّوْرَةِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَأَقُولُ الْكَلَامَ الْأَوَّلَ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ كَانَ كَلَامَ اللَّهِ؛ وَقَالَ: يَمُوتُ مِنْ مَرَضِهِ؛ وَالْمَرَّةُ الثَّانِيَةَ قَالَ: يَزِيدُ فِي عُمْرِهِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ فَمَحَى الْكَلَامَ الْأَوَّلَ وَاثْبَتَ الثَّانِي.

وَهَذَا بُرْهَانٌ لَا يَرُدُّهُ أَحَدٌ. وَكَذَلِكَ مَحَى اللَّهُ دِينَ الْيَهُودِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَاثْبَتَ دِينَ الْإِسْلَامِ؛ وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ بَعَثَ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِ وَأَمَرَهُمْ بِكِتَابِهِ أَنْ يَفْعَلُوا كَذَا؛ ثُمَّ بَعَثَ كِتَابًا آخَرَ يَزِيدُ أَوْ يَنْقُصُ عَنِ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ؛ فَمَنْ عَمِلَ بِالْأَمْرِ الْآخِرِ فَهُوَ طَائِعٌ؛ وَالَّذِي تَمَسَّكَ بِالْأَمْرِ الْأَوَّلِ وَقَالَ: مَا نَعْمَلُ إِلَّا بِمَا آتَانَا بِهِ رَسُولُهُ فَلَانُ بِكِتَابِهِ فَهُوَ عَاصٍ مِثْلُ الْيَهُودِ.

وَكَذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّخَتُّينِ هُوَ وَابْنُهُ سَيِّدُنَا إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ بَعْدَهُ؛ وَلَمْ يَأْمُرْ بِذَلِكَ لِمَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَكَانَ الْيَهُودُ لَا يَجِدُونَ مَا يُجَاوِبُونَ بِهِ.

وَذَكَرَ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ السَّرَّ فِي التَّخَتُّينِ مِثْلُ عَلَامَةٍ يَعْمَلُهَا الْإِنْسَانُ أَنَّهُ يُوقِي بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ؛ وَتَشْهَدُ النَّصَارَى: أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اخْتَنَنَ فِي أَوَّلِ

يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ يَنَّايرَ^(١)؛ ثُمَّ إِنَّهُمْ أَسْقَطُوا ذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِغَيْرِ أَمْرِهِ؛ بَلْ قَالُوا: إِنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَصَ عَنْ الْجَمِيعِ ذَلِكَ بِمَوْتِهِ، وَأَبَاحُوا أَكْلَ لَحْمِ الْخَنزِيرِ وَهُوَ مَمْنُوعٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْحَبَاثِثِ.

وَقَدْ بَاخَثُ الْيَهُودَ فِي مَسْأَلَةٍ أُخْرَى؛ قُلْتُ لَهُمْ: هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي أَنْتُمْ مَأْمُورُونَ بِهِ فِي كِتَابِكُمْ: أَنَّ الرَّجُلَ، إِذَا جَامَعَ زَوْجَتَهُ وَجَبَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا الْغُسْلُ لِجَمِيعِ الْجَسَدِ بِمَاءٍ طَاهِرٍ؛ هَلْ تَصْنَعُونَ ذَلِكَ أَمْ لَا؟

قَالُوا جَمِيعًا: لَا نَفْعُ ذَلِكَ؛ وَلَكِنَّ النِّسَاءَ يَغْتَسِلْنَ مِنَ الْحَيْضَةِ؛ وَلَيْسَ لَنَا وَلَا لِلنِّسَاءِ غُسْلٌ مِنَ الْجَمَاعِ.

قُلْتُ لَهُمْ: مَنْ أَسْقَطَ عَنْكُمْ هَذِهِ الْفَرِيضَةَ وَأَنْتُمْ مَأْمُورُونَ بِهَا فِي كِتَابِكُمْ؟
قَالُوا: ذَلِكَ الْأَمْرُ كَانَ حِينَ كُنَّا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ!

قُلْتُ لَهُمْ: الْأَمْرُ لَيْسَ هُوَ مُزْتَبِطًا بِشَرْطٍ، لِأَنَّهُ مَا قَالَ: هَذَا الْأَمْرُ لِلْغُسْلِ فَرَضَ عَلَيْكُمْ مَا دُمْتُمْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَلَوْ قَالَ ذَلِكَ لَكَانَتْ لَكُمْ حُجَّةٌ مَقْبُولَةٌ بِمَا تَقُولُونَ؛ وَهَذَا بُرْهَانٌ بِأَنَّهُمْ جَمِيعُ الْيَهُودِ بِنَاجِسَةِ مَوْرُوثَةٍ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ؛ وَعُلَمَاؤُهُمْ مَلْعُونُونَ^(٢) بِإِبَاحَتِهِمْ فِي تَرْكِ فَرَضٍ مِنْ فَرَائِضِهِمْ.

وَأَمَّا الْفَرَضُ لَهُمْ، فِي تَرْكِ الْأَسْبَابِ يَوْمَ السَّبْتِ، حَيْثُ هُوَ أَمْرٌ مُوَافِقٌ لِسَهْوَةِ النَّفْسِ، لِأَنَّهُا تُحِبُّ الرَّاحَةَ؛ فَهَذَا يَقُومُونَ بِحَقِّهِ وَيُظْهِرُونَ مِنَ الْوَرَعِ جَمِيعُهُمْ بِالْقِيَامِ بِحَقُوقِ السَّبْتِ؛ وَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ لَا يَجُوزُ لَهُمْ فِيهِ كَذًا وَكَذَا، وَيَتْرَكُونَ الطَّهَارَةَ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ فِي الْعِبَادَاتِ؛ وَكَذَلِكَ النَّصَارَى لَا يَقْرَبُونَ الْمَاءَ أَبَدًا إِلَّا مَرَّةً فِي الْعُمْرِ وَهُوَ الْغُسْلُ عِنْدَ دُخُولِهِمْ فِي دِينِ النَّصَارَى؛ الْمُسْمَى بِالْمَاءِ الْمَغْمَدَانِ.

وَكَمْ مِنْ مُسْلِمٍ فِي الدُّنْيَا، وَجَبَ عَلَيْهِ الْغُسْلُ، يَقُومُ مِنْ فَرَاشِهِ عِنْدَ السَّحَرِ، فِي أَيَّامِ الْبَرْدِ، وَلَا يَجِدُ سَبِيلًا لِنَسْخِيقِ الْمَاءِ، وَيَغْتَسِلُ بِهِ بَارِدًا، لِيَلَّا

(١) فِي الْأَصْلِ: يَنْبِيرُ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: وَعُلَمَائِهِمْ مَلْعُونِينَ.

تُقَوُّهُ صَلَاةُ الصُّبْحِ؛ وَالْمُوَظُّبُونَ عَلَى الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا، لَا يَنَامُونَ إِلَّا بَعْدَ آدَاءِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، وَيَتَرَكُونَ مَضَاجِعَهُمْ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ؛ وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢): «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ لَيْلَةٍ؛ وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّهُ صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ». فَيَبْرَكَتِهِمْ لَمْ يَزَلِ الْعِزُّ لِلْإِسْلَامِ فِي الدُّنْيَا وَبِرَكَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي قَالَ^(٣): «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»؛ وَقَالَ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ بَابَ الْجَنَّةِ»؛ وَلِذَلِكَ قَالَ فِي التَّوْرَةِ: «يَدْخُلُ اللَّهُ جَنَّا الْجَنَّةِ»؛ إِذْ هُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهَا وَبَعْدَهُ مَنْ كَانَ مِنَ السُّعَدَاءِ.

وَفِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ مِنَ التَّوْرَةِ فِي الْبَابِ السَّابِعِ وَالْأَرْبَعِينَ قَالَ: «إِنَّ سَيِّدَنَا يَغْفُوبُ كَانَ يَذْكُرُ لِأَوْلَادِهِ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا؛ وَقَالَ عَلَى الْيَهُودِ: يَكُونُ لَهُمُ الْأَمْرُ وَالْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا إِلَى أَنْ يَأْتِيَ شِلْوُهُ؛ وَالنَّصَارَى تَقُولُ: إِنَّ شِلْوُهُ كَانَ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمَلِكَ كَانَ لَهُمْ بَعْدَهُ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَفِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَزَلْ بِالْكُلِّيَّةِ إِلَى أَنْ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذْ وَقَعَ لَهُمْ مَعَهُ حَرْبٌ وَشَرٌّ بِخَيْبَرَ؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ الْيَهُودَ حَارَبُوا أَحَدًا.

وَفِي التَّوْرَةِ؛ فِي الْكِتَابِ الْمُسَمَّى دُوتَرْنِيمِي فِي الْبَابِ الْأَرْبَعِينَ، قَالَ: «ارْعَوْا أَرْوَاحَكُمْ؛ لَا تَزُورُوا أَضْنَامًا»؛ وَقَالَ أَيْضًا: «لَا تَقْطَعُوا وَتَضْنَعُوا لَكُمْ صُورًا وَلَا أَضْنَامًا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الصُّورِ: صُورَةَ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى؛ وَلَا صُورَةَ دَوَابِّ الْأَرْضِ؛ وَلَا صُورَةَ طَيْرٍ مِنَ الَّتِي تُطِيرُ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا صُورَةَ دَابَّةٍ تَنْجُرُ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا صُورَةَ حَيَاتَانِ الْمَاءِ، وَلَا تَسْجُدُوا وَلَا تَعْبُدُوا الْقَمَرَ وَلَا الشُّجُومَ».

(١) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٢) أبو داود: صلاة ٤٧، والترمذي: مواقيت ٥٠.

(٣) الترمذي: تفسير سورة النساء: ١. وابن حنبل: ٣، ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥.

وَقَالَ فِي الْكِتَابِ الْمُسَمَّى بِلَبْتَقُ^(١) مِنْ كُتُبِ التَّوْرَةِ فِي الْبَابِ الْعَاشِرِ:
وَكَلَّمَ اللَّهُ لِهَارُونَ وَقَالَ: أَنْتَ وَلَا أَوْلَادَكَ؛ لَا تَشْرَبُوا خَمْرًا وَلَا مِزْرًا، يَغْنِي:
مُسْكِرًا، إِذَا أَرَدْتَ الدُّخُولَ فِي الْجَامِعِ لِيَتَبَيَّنَ الطَّاهِرُ مِنَ النِّجَسِ وَلَا تَمُوتَ؛
عَهْدٌ لِلْأَبَدِ يَكُونُ لِمَنْ يَتَّسِلُ مِنْكَ.

وفي كتاب آخر يسمى بِذَوْتَرْنَمِي^(٢)؛ فِي الْبَابِ السَّادِسِ؛ لِسَيِّدِنَا مُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «نَبِي مِنْ وَسْطِكَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ يُظْهِرُهُ اللَّهُ مِنْهُ تَسْمَعُونَ». وَقَالَ
فِي كِتَابِ «السَّيْفِ الْمَخْدُودِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ» فِي هَذَا الْمَعْنَى: نَبِيٌّ مِنْ بَنِي
إِخْوَانِكُمْ مِنْهُ تَسْمَعُونَ. وَفِي كِتَابِ «الْقَضَاءِ» مِنْ كُتُبِ التَّوْرَةِ فِي الْبَابِ الْخَامِسِ،
قَالَ: «نَبِيٌّ نَقِيضُهُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَانِهِمْ مِثْلُكَ؛ وَإِنَّا نَضَعُ كَلَامِي فِي فَمِهِ؛ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ
بِكُلِّ مَا نَأْمُرُ؛ وَمَنْ لَا يَسْمَعُ مِنْ كَلَامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ عَنِّي إِنَّا نُحَاسِبُهُ». فَهَذَا
ذَلِيلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وَفِي كِتَابِ «أَسْكِيل» مِنَ التَّوْرَةِ قَالَ دَانِيَالُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: «أَكْسِرِ الْأَصْنَامَ وَيَخْمُدْ وَيَفْنَى الْكُفْرَ»؛ وَفِي الْعَامِ الثَّانِي مِنَ تَوَلِيَّةِ
بُخْتِ نَصْرِ الْمَمْلَكَةِ، رَأَى رُؤْيَا بُخْتِ نَصْرَ وَنَسِيَهَا؛ وَأَمَرَ بِإِخْضَارِ الْكُهَّانِ.
وَالْمُنْجِمِينَ وَالسَّحَرَةَ^(٣) الْقِبْطِيِّينَ لِيُظْهِرُوا لِلسُّلْطَانِ الرُّؤْيَا، وَلَمَّا حَضَرُوا قَالَ لَهُمْ
السُّلْطَانُ: رَأَيْتُ جِلْمًا وَأَنَا مُتَّفَكِّرٌ لِنَعْلَمَ مَا رَأَيْتُهُ، قَالُوا: اذْكُرْ لَنَا مَا رَأَيْتَ
وَتَفْسِّرُهُ؛ قَالَ السُّلْطَانُ لِلْقِبْطِيِّينَ: ذَهَبَ عَنِّي مَا رَأَيْتُهُ؛ وَإِذَا لَمْ تُظْهِرُوا الرُّؤْيَا
نَقْتُلُكُمْ أَشْرَ قَتْلٍ؛ وَإِذَا ذَكَرْتُمُوهَا نَجُودُ عَلَيْكُمْ، قَالُوا مَرَّةً ثَانِيَةً: اذْكُرْ مَا رَأَيْتَ نُبَيِّنَ
تَفْسِيرَهُ، ثُمَّ قَالُوا: لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ الَّتِي لَا تَسْكُنُ فِي
الْأَجْسَادِ؛ فَغَضِبَ السُّلْطَانُ؛ وَأَمَرَ بِقَتْلِ جَمِيعِ عُلَمَاءِ بَغْدَادَ. وَشَهَرَ الْأَمْرَ؛ وَقَبَضُوا
الْعُلَمَاءَ وَطَلَبُوا عَلَى دَانِيَالٍ وَأَصْحَابِهِ لِيَقْتُلُوهُمْ؛ حِينَئِذٍ تَكَلَّمَ مَعَ الرُّبُوجِ الْقُبْطَانِ
الْمُتَكَفِّلِ بِحَرَصِ السُّلْطَانِ وَقَالَ: مَا السَّبَبُ فِي سُرْعَةِ هَذَا الْأَمْرِ؟ فَبَيَّنَتْ لَهُ، وَدَخَلَ
دَانِيَالٌ لِلسُّلْطَانِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَمْهَلَ عَلَيْهِمْ؛ وَأَنَّهُ يَبَيِّنُ لِلسُّلْطَانِ مَا طَلَبَ.

(٢) اسمه بالإنجليزية: Deuteronomy.

(١) اسمه بالإنجليزية: Leniticus.

(٣) فِي الْأَصْلِ: وَالسَّحَرَةَ.

حِينَئِذٍ مَسَىٰ ذَانِيَالُ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ وَذَكَرَ الْأَمْرَ لِأَصْحَابِهِ أَنَانِيَشُ وَمَسَائِلُ وَإِلَىٰ قُرَيْشٍ لِّيَطْلُبُوا الرِّحْمَةَ مِنَ إِلَهِ السَّمَاءِ، وَاللُّطْفَ لِئَلَّا يَهْلِكَ ذَانِيَالُ وَأَصْحَابَهُ وَعُلَمَاءُ بَغْدَادٍ؛ حِينَئِذٍ أَوْحَىٰ اللَّهُ الْمَسْأَلَةَ لِذَانِيَالٍ بِرُؤْيَا فِي اللَّيْلِ؛ وَشَكَرَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ وَقَالَ: «الْبَرَكَهَ فِي اسْمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي كُلِّ قَرْنٍ وَزَمَنٍ؛ لَهُ هِيَ الْحِكْمَةُ وَالْقُوَّةُ؛ وَهُوَ الَّذِي يُبَدِّلُ الْأَزْمِنَةَ؛ وَيُزِيلُ الشَّدَائِدَ وَيَضَعُهَا؛ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ لِلْحُكَمَاءِ وَالْعِلْمَ لِلْأَفْهَامِ؛ وَهُوَ يُوجِي مَا كَانَ مَسْتُورًا وَمَكْنُونًا؛ يَعْلَمُ وَيُمَيِّزُ مَا كَانَ فِي الظُّلُمَاتِ وَالثُّورِ وَمَا فِيهِمَا؛ إِلَيْكَ يَا إِلَهَ آبَائِي أَشْهَدُ وَأَشْكُرُكَ، إِنَّكَ أَعْطَيْتَنِي عِلْمًا، وَأَعْلَمْتَنِي مَا طَلَبْنَا مِنْكَ، وَبَيَّنْتَ لِي أَمْرَ السُّلْطَانِ».

ثُمَّ كَلَّمَ وَزِيرَ السُّلْطَانِ، الَّذِي كَانَ لَهُ الْأَمْرُ عَلَى قَتْلِ عُلَمَاءِ بَغْدَادٍ، وَقَالَ لَهُ: لَا تَقْتُلِ الْعُلَمَاءَ، وَأَدْخِلْنِي بِحَضْرَةِ السُّلْطَانِ؛ وَأَنَا أُبَيِّنُ لَهُ مَا طَلَبَ؛ فَالْتَقَى بِهِ وَقَالَ السُّلْطَانُ لِذَانِيَالٍ؛ وَكَانَ اسْمُهُ بَلْتَشَرُ، تَقْدِيرُ تَبَيَّنَ لِي الرُّؤْيَا وَتَفْسَرُهَا؟ قَالَ ذَانِيَالُ لِلْسُّلْطَانِ: «الْأَمْرُ الَّذِي سَأَلْتَ عَنْهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إظهارِهِ عُلَمَاءُ وَلَا مُنْجُمُونَ، وَلَا سَحَرَةٌ وَلَا كُهَّانٌ؛ وَلَكِنْ فِي السَّمَاءِ إِلَهًا وَاحِدًا الَّذِي يُوجِي الْأَسْرَارَ؛ وَهُوَ يَعْلَمُ السُّلْطَانُ بُخْتِ نَصْرٍ مَا يَخْذُ وَمَا يَكُونُ بَعْدَ أَيَّامٍ وَأَزْمِنَةٍ. وَمَا رَأَيْتُ فِي فِرَاشِكَ هُوَ هَذَا: فَأَنْتَ يَا سُلْطَانُ فِي فِرَاشِكَ، كَانَ فِي فِكْرِكَ لَتَعْلَمَ مَاذَا يَكُونُ فِيمَا يَأْتِي؛ وَالَّذِي يُوجِي الْأَسْرَارَ وَالْعَجَائِبَ أَظْهَرَ لَكَ الَّذِي يَكُونُ. وَأَمَّا أَنَا فَأَظْهَرَ لِي هَذَا السِّرَّ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْعِلْمِ الَّذِي عِنْدِي أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنَ الْعِبَادِ؛ وَلَكِنْ لِنُظْهِرَ تَفْسِيرَهُ لِلْسُّلْطَانِ؛ وَلِتَعْرِفَ مَا كَانَ فِي فِكْرِكَ وَقَلْبِكَ. وَأَنْتَ يَا سُلْطَانُ رَأَيْتَ صَنْمًا عَظِيمًا جِدًّا؛ وَكَانَ لَهُ مَجْدٌ، وَهُوَ وَقِفٌ أَمَامَكَ وَبَصْرُهُ قَوِيٌّ؛ أَمَّا رَأْسُ الصَّنَمِ فَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ خَالِصٍ؛ وَصَدْرُهُ وَعِضْدَاهُ مِنْ فِضَّةٍ؛ وَبَطْنُهُ وَفَخْدَاهُ مِنْ مَعْدِنٍ؛ وَرِجْلَاهُ مِنْ حَدِيدٍ وَقَدَمَاهُ بَعْضُهَا مِنْ حَدِيدٍ وَبَعْضُهَا مِنْ فَخَّارٍ؛ وَأَنْتَ تَنْظُرُهُ؛ وَرَأَيْتَ حَجْرَةً قُطِعَتْ بِغَيْرِ أَيَادٍ وَضَرَبَتْ الصَّنَمَ فِي قَدَمَيْهِ مِنَ الْحَدِيدِ وَالْفَخَّارِ، وَطَحَنَتْهَا غَبْرَةُ الْحَدِيدِ وَالْفَخَّارِ وَالْمَعْدِنِ وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، وَرَفَعَهَا الرِّيحُ؛ فَمَا وَجَدَ لَهَا مَوْضِعَ؛ وَلَكِنَّ الْحَجَرَ الَّذِي ضَرَبَ الصَّنَمَ رَجَعَ جَبَلًا عَظِيمًا، حَتَّى عَمَّرَ وَمَلَأَ جَمِيعَ الْأَرْضِ؛ وَهَذَا هُوَ الْجِلْمُ أَوْ الرُّؤْيَا. وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ: فَتَذَكُّرُهُ أَيْضًا بِحَضْرَةِ السُّلْطَانِ:

أَنْتَ يَا سُلْطَانُ، أَنْتَ سُلْطَانُ السَّلَاطِينِ؛ لِأَنَّ إِلَهَ السَّمَاءِ أَعْطَاكَ الْقُدْرَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْعِظَمَةَ، وَكُلُّ مَا عَمَرَ أَبْنَاءَ الرُّجَالِ، وَدَوَابَ الْفَخْصِ وَطُيُورَ الْهَوَاءِ؛ وَضَعَهُ فِي يَدِكَ، وَجَعَلَكَ أَمِيرًا عَلَى جَمِيعِهِ، وَأَنْتَ هُوَ ذَلِكَ الرَّأْسُ مِنْ ذَهَبٍ؛ وَبَعْدَكَ تَقُومُ سُلْطَنَةٌ أُخْرَى أَقْلُ وَأَضْعَفُ مِنْكَ؛ فَالْصَّدْرُ مِنْ فِضَّةٍ؛ وَسُلْطَنَةٌ ثَالِثَةٌ مِنْ مَعْدِنٍ؛ وَتَتَحَكَّمُ عَلَى جَمِيعِ الْأَرْضِ؛ وَالسُّلْطَنَةُ الرَّابِعَةُ تَكُونُ قُوَّةً مِثْلَ الْحَدِيدِ - وَكَمَا أَنَّ الْحَدِيدَ يَغْلِبُ وَيَفْهَرُ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ وَيَكْسِرُهَا - فَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ يَكْسِرُهُ وَيَذْقُهُ.

وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ أَنَّ الْقَدَمَيْنِ وَالْأَصَابِعَ بَعْضُهَا فَخَّارٌ وَبَعْضُهَا حَدِيدٌ، فَالسُّلْطَنَةُ تَنْقَسِمُ: قِسْمٌ قَوِيٌّ وَقِسْمٌ ضَعِيفٌ؛ وَأَمَّا امْتِزَاجُ الْحَدِيدِ مَعَ شَقَبِ الْفَخَّارِ؛ فَيَمْتَزِجُونَ وَيَمْتَزِجُونَ الزَّرِينَةَ الْأَدَمِيَّةَ؛ وَلَكِنْ مَا تَلْتَصِقُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ، وَلَكِنْ فِي أَيَّامِ هَؤُلَاءِ السَّلَاطِينِ الْمُتَأَخِّرِينَ، الَّذِينَ لَا يَمْتَزِجُونَ لِتَكُونَ سُلْطَنَةُ قُوَّةٍ؛ الْإِلَهُ السَّمَاوِي يُقِيمُ سُلْطَنَةً لَا تَنْكَسِرُ وَلَا تَفْنَى أَبَدًا. وَهَذِهِ السُّلْطَنَةُ لَا تَتْرُكُ لِغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ؛ وَهِيَ الَّتِي تَهْرُسُ وَتَفْنِي جَمِيعَ هَذِهِ السُّلْطَنَاتِ؛ وَهِيَ تَدُومُ وَتَبْقَى إِلَى الْأَبَدِ، كَمَا رَأَيْتَ أَنَّ مِنَ الْجَبَلِ قُطْعَ الْحَجَرِ بِغَيْرِ يَدَيْنِ، وَهَرَسَ الْحَدِيدَ، وَالْمَعْدِنَ، وَالْفَخَّارَ، وَالْفِضَّةَ، وَالذَّهَبَ؛ الْإِلَهُ الْعَظِيمُ أَظْهَرَ لِلسُّلْطَانِ مَاذَا يَكُونُ فِي الْمَالِ، وَالْحِلْمِ حَقٌّ وَتَغْيِيرُهُ صِدْقٌ.

حِينَئِذٍ السُّلْطَانُ بُخِتَ نَصْرَ وَقَعَ عَلَى وَجْهِهِ وَرَكَعَ إِلَى ذَانِيَالٍ؛ وَأَمَرَ بِإِعْطَائِهِ هَدِيَّاتٍ وَتَبَاجِرَ؛ وَكَلَّمَ السُّلْطَانُ إِلَى ذَانِيَالٍ وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّ إِلَهَكَ هُوَ إِلَهُ الْإِلَهَاتِ وَرَبُّ السَّلَاطِينِ؛ مُظْهِرُ الْعَجَائِبِ وَالْمُعْجِزَاتِ، حَيْثُ قَدَرْتَ تَنْبِيئِي بِهِذِهِ الْمُعْجِزَةِ. قَالَ ذَانِيَالُ: «لَا تُبَيِّنْ لِي أَغْبَدُ أَصْنَامًا مَصْنُوعَةً بِالْيَدَيْنِ، وَلَكِنْ أَغْبَدُ الْإِلَهَ الْحَيَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَهُ أَمْرٌ عَلَى كُلِّ لَحْمٍ». انْتَهَى مَا تَرَجَمْنَاهُ مِنَ التَّوْرَةِ فِي هَذَا الْبَابِ.

قَالَ سَيِّدِي أَحْمَدُ زُرُقُ نَفَعَ اللَّهُ بِهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى: فَانْظُرْ هَذَا التَّضَرُّيْحَ الْجَلِيلِيَّ الْمُطَابِقَ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ ﷺ، إِذْ هُوَ الَّذِي بُعِثَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَهُوَ الَّذِي نُبْوءُهُ وَمُلْكُ أُمَّتِهِ أَبَدِيٌّ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ﷺ، وَلَا

نُسَخَ لِشَرْعِهِ الشَّرِيفِ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا؛ وَهُوَ الَّذِي بُعِثَ لِسَائِرِ الْأُمَمِ، وَظَهَرَ عَلَيْهَا كُلُّهَا، وَخَلَطَ بَيْنَ أَجْنَاسِهَا، وَجَعَلَهَا عَلَى اخْتِلَافٍ أَذْيَانِهَا، وَاخْتِلَافٍ لُغَاتِهَا جِنْسًا وَاحِدًا؛ وَعَلَى لُغَةٍ وَاحِدَةٍ وَدِينٍ وَاحِدٍ؛ إِذْ كُلُّهُمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَبِهَا يُصَلُّونَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَكُلُّهُمْ يَدِينُونَ بِدِينٍ وَاحِدٍ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ؛ انْتَهَى.

وَأَقُولُ: قَدْ سَمِعْتُ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، قَبْلَ خُرُوجِي مِنْهَا، مِرَازًا الْقَسِّيْسِينَ وَالرُّهْبَانَ يَخْتَطِبُونَ، وَيَذْكُرُونَ الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَى بُخْتُ نَصْرٍ. وَمَا فَسَّرَ النَّبِيُّ ذَانِيَالٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَقُولُونَ: إِنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا؛ وَأَنَّ دِينَهُ عَمَرُ الدُّنْيَا؛ وَسَلَاطِينُ دِينِهِ غَلَبُوا سَلَاطِينَ الدُّنْيَا؛ وَكَذَّبَهُمُ الْعِيَانُ بِصَحَّةِ الْبَرْهَانِ، بِمَا أَظْهَرَ فِي الدُّنْيَا الْمَلِكُ الدِّيَّانُ؛ لَهُ الشُّكْرُ وَالْفَضْلُ وَالْإِمْتِنَانُ عَلَى غُلُوِّ كَلِمَةِ تَوْحِيدِهِ، وَالْإِسْلَامِ وَخَالِصِ الْإِيمَانِ.

أَمَّا السُّلْطَانُ بُخْتُ نَصْرٍ، فَكَانَ فِي مَدِينَةِ بَغْدَادَ، وَالنَّصَارَى لَمْ تَمْلِكْ قَطُّ بَغْدَادَ، وَلَا كَانَ لَهُمْ فِيهَا دَارٌ مُلْكٍ كَمَا كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ. وَأَيْضًا إِنَّ السُّلْطَانَ رَأَى الْحَجَرَ الَّذِي هَرَسَ الصَّنَمَ، وَعَظَّمَ حَتَّى مَلَأَ الدُّنْيَا كُلُّهَا؛ وَكَذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَهْلُ دِينِهِ، لِأَنَّهُ هَرَسَ فِي مَكَّةَ الْمُشْرِفَةَ الْأَضْنَامَ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ، وَلَمْ يُغْبَذْ صَنَمٌ فِي الْبِلَادِ الَّتِي دَخَلَهَا الْإِسْلَامُ.

وَأَمَّا النَّصَارَى بَعْدَ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَا يَغْبُدُونَ إِلَّا أَضْنَامًا؛ وَمَا مِنْ كَنِيْسَةٍ إِلَّا لَهَا صَنَمٌ أَوْ أَضْنَامٌ كَثِيرَةٌ؛ وَفِي صَلَاتِهِمْ يَغْبُدُونَ قُرْصَةً مِنْ خَالِصِ الدَّقِيقِ وَالْحَمَرِ أَيْضًا - كَمَا تَقَدَّمَ - وَكَمَا شَاهَدْتُهُ سِنِينَ عَدِيدَةً. وَالرُّؤْيَا مُنْبِئَةٌ عَلَى الْحَجَرِ الَّذِي هَرَسَ الصَّنَمَ؛ وَهُوَ الْإِسْلَامُ؛ لَا عَلَى مَنْ أَقَامَ الْأَضْنَامَ وَعَبَدَهَا؛ وَهُمْ النَّصَارَى الضَّالُّونَ.

وَقَوْلُ النَّبِيِّ ذَانِيَالٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ أَيَّامَ السَّلَاطِينِ الْمُتَأَخِّرِينَ، يُقِيمُ اللَّهُ سُلْطَنَةً لَا تَتَكَبَّرُ؛ وَلَا تَفْنَى أَبَدًا، وَهِيَ الَّتِي تَكْسِرُ وَتَفْنِي جَمِيعَ هَذِهِ السُّلْطَنَاتِ،

وَهِيَ تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ؛ فَأَبَيْنُ مَا ظَهَرَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى قَدْرِ الْإِسْتِطَاعِ؛ وَأَنَا أَمَرَنِي الشَّيْخُ الْأَبِيرُ الشَّهِيرُ بِمَضَرٍّ وَغَيْرِهَا: أَنْ لَا نَكْتُبَ فِي الْمُخْتَصَرِ، إِلَّا مَا وَقَعَ لِي مَعَ الْكُفَّارِ مِنَ الْكَلَامِ، فَهَذِهِ بَيِّنَةٌ وَبُرْهَانٌ، بِأَنَّ الْإِسْلَامَ عَمَّرَ أَكْثَرَ بِلَادِ الدُّنْيَا الْمَعْرُوفَةِ فِي زَمَنِ الْقَدَمَاءِ، الَّذِي وَقَعَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا؛ اخْتِرَازًا عَلَى الدُّنْيَا الْجَدِيدَةِ، الَّتِي ظَهَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْمَغْرِبِ الْبَعِيدِ؛ حَيْثُ هِيَ الْهُنُودُ الْمَغْرِبِيَّةُ الَّتِي لَمْ يَدْخُلْهَا الْإِسْلَامُ؛ وَجَمِيعُ سُكَّانِهَا الْقَدَمَاءِ مَجُوسٌ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ أَكْثَرُهُمْ؛ إِلَى أَنْ أَدْخَلَ فِيهَا سُلْطَانٌ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ أَصْنَامَهُ وَشِرْكَهَ.

وَأَقُولُ: إِنَّ النَّصَارَى تَزْعُمُ أَنَّ الْحَجَرَ الَّذِي هَرَسَ الصَّنَمَ وَعَظَمَ وَعَمَّرَ الدُّنْيَا كُلَّهَا؛ كَانَ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ تَحَقَّقْنَا فِي ذَلِكَ مِنْ كُتُبِهِمْ، وَمِمَّا يَصُورُونَ فِي الْمَبَاتِ وَالْكُورِ الْأَرْضِيَّةِ، وَالرَّسَائِلِ الَّتِي قَرَأْتُ عَلَيْهَا.

فَاعْلَمْ أَنَّ الْقَدَمَاءَ، فِيمَا مَضَى، قَسَمُوا الدُّنْيَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ؛ وَكُلُّ قِسْمٍ سَمَوْهُ بِاسْمِهِ؛ فَسَمَوْا أَوْرُوبَةَ لِلرُّبْعِ الْجَوْفِيِّ، الَّذِي هُوَ إِلَى جِهَةِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ؛ وَابْتَدَأُوهُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ إِلَى آخِرِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ؛ وَفِي هَذَا الرُّبْعِ، هِيَ الْمَدِينَةُ الْعُظْمَى، الشَّهِيرَةُ فِي الدُّنْيَا أَنَّهَا أَعْظَمُ مُدُنِهَا بِاتِّفَاقِ جَمِيعِ الْمَلَلِ وَالْأَجْنَاسِ الْعَارِفِينَ: وَهِيَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَأَدَامَ عِزَّهَا إِلَى الْإِسْلَامِ مَا دَامَتْ الدُّنْيَا؛ وَالْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الرُّبْعِ عَلَى مَا قِيلَ لِي: نَحْوُ الْخَمْسِينَ يَوْمًا لِلْمَاشِيِّ الْمُتَوَسِّطِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ وَمَا عَدَا الْإِسْلَامَ فَهُوَ لِلنَّصَارَى؛ فَالْمَجَاوِرُ لِلْإِسْلَامِ هُوَ سُلْطَانُ الْأَمَانِيَّةِ؛ وَظَهَرَ لِي أَنَّهُمُ الصِّقَالِيَّةُ الْمَذْكُورُونَ فِي التَّوَارِيخِ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ وَبِلَادُ مُشْقُوِيَّةِ الْجَوْفِيَّةِ؛ وَبِلَادُ رُومَةِ بِاطَالِيَّةِ، وَبِلَادُ الْفَرَنْجِ، وَفَلَنْصُسْ، وَبِلَادُ الْإِنْجِلِزِ، وَبِلَادُ الْأَنْدَلُسِ بِمَا لَهَا مِنْ جُزُرٍ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَالْبَحْرِ الصَّغِيرِ.

وَأَمَّا الرُّبْعُ الثَّانِي فَيَسْمَى عَنْدهُمْ بِالرُّبْعِ الْإِفْرِيقِيِّ: اسْمٌ مَاخُودٌ أَوْ مُشْتَقٌّ مِنْ مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ، كَانَتْ فِيمَا مَضَى تُسَمَّى بِإِفْرِيقِيَّةِ، وَبِالْمُعْجَمِ أَفْرِقَهَ، كَانَتْ بِقُرْبِ ثُونِسِ الْمَخْرُوسَةِ بِاللَّهِ، وَفِي زَمَنِنَا هَذَا يُسَمَّى هَذَا الرُّبْعُ عِنْدَ الْعَامَّةِ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَابْتَدَأَ هَذَا الرُّبْعُ الثَّانِي مِنْ بَحْرِ سُونِسِ، وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ دَائِرٌ بِهِ مِنْ

الْقِبْلَةِ وَالْمَغْرِبِ وَالْبَحْرِ الصَّغِيرِ مِنْ جِهَةِ الْجَوْفِ وَالْمَشْرِقِ، وَفِي هَذَا الرَّبْعِ الْمَغْرِبِيِّ أَكْثَرُ سُكَّانِهِ الْمُسْلِمُونَ.

فَأَمَّا مَضَرُ الْمَخْرُوسَةِ بِاللهِ فَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ مُدُنِ الدُّنْيَا؛ هِيَ مِثْلُ بَرِيشَ بِفَرَنْصَةِ، إِذَا أَضَفْنَا إِلَيْهَا مَضَرَ الْعَتِيقَ وَبُولَاقَ؛ وَهِيَ تَحْتَوِي عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَرْيَةٍ؛ ثُمَّ مَغْرِبًا عَنْهَا إِسْكَندَرِيَّةٌ؛ ثُمَّ مَغْرِبًا عَنْهَا مَدِينَةُ طَرَابُلُسَ؛ وَمَغْرِبًا عَنْهَا مَدِينَةُ ثُونُسَ، بِمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْبِلَادِ وَبِلَادِ الْجَرِيدِ؛ ثُمَّ مَغْرِبًا عَنْهَا مَدِينَةُ الْجَزَائِرِ بِمَا تَحْتَ حُكْمِهَا مِنَ الْبِلَادِ؛ ثُمَّ تِلِمَسَانَ - وَإِنْ كَانَتْ تَحْتَ حُكْمِ الْجَزَائِرِ - فَكَانَتْ، فِيمَا تَقَدَّمَ، دَارَ مُلُوكَ، ثُمَّ مَغْرِبًا عَنْهَا مَدِينَةُ فَاسَ دَارَ الْمُلُوكِ، بِمَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا مِنَ الْبِلَادِ؛ ثُمَّ مَدِينَةُ مَرَّاكُشَ فِي صُفْعِهَا قَدَرُ بَرِيشَ بِفَرَنْصَةِ أَوْ أَقْلَ: دَارَ سَلَاطِينَ الشَّرَفَاءِ.

وَأَذْرَكْتُ خَمْسَ سِنِينَ مِنْ مُدَّةِ مَوْلَايَ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللهُ - الَّذِي كَانَ مِنْ يَوْمِ مَاتَ سُلْطَانُ بُرْتَقَالِ النَّصْرَانِي - حِينَ أَخْرَكَ إِلَى الْمَغْرِبِ بِجُيُوشٍ عَظِيمَةٍ - وَمَاتَ هُوَ وَبَقِيَ جَيْشُهُ هُوَ أَسَارَى بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ. وَبَقِيَ مَوْلَايَ أَحْمَدُ فِي الْمَمْلَكَةِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً إِلَى أَنْ مَاتَ عَامَ اثْنَتَيْ عَشَرَ وَأَلْفَ. وَكَانَتْ تَحْتَ طَاعَتِهِ سُلْطَنَةُ مَرَّاكُشَ، بِمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْأَقْطَارِ، وَسُلْطَنَةُ فَاسَ وَسُلْطَنَةُ سُوسَ الْأَقْصَى وَسُلْطَنَةُ سِجْلَمَاسَةَ الْمَعْرُوفَةَ الْآنَ بِتَافِلَلْتِ؛ وَبِلَادُ دَرْعَةَ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى مَرَّاكُشَ؛ وَبِلَادُ تَوَاتَ. وَكَانَ لَهُ بِبِلَادِ السُّودَانِ سُلْطَنَتَانِ اسْتَفْتَحَهَا هُوَ - أَعْنِي السُّلْطَانُ الْمَذْكُورَ رَحِمَهُ اللهُ - وَهِيَ مَدِينَةُ تُنْبُكْتُ بِمَا تَحْتَ حُكْمِهَا؛ وَمَدِينَةُ جَاغَ وَكُكِّي؛ وَلَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَطِّ الْاسْتِوَاءِ إِلَّا نَحْوُ عَشْرِ دَرَجٍ مِنَ الْعَرْضِ.

وَفِي بِلَادِ السُّودَانِ بِلَادٌ كَثِيرَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْهَا سُلْطَنَةُ مَلِي^(١)، وَهِيَ تَمْتَدُّ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ؛ ثُمَّ سُلْطَنَةُ عَظِيمَةُ بِالسُّودَانِ لِسُلْطَانِ بُزُنْ، وَبِلَادُ كَثِيرَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ مُمْتَدَّةٌ مِنْ سُلْطَنَةِ بُزُنْ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ الَّتِي هِيَ قِبْلَةُ

(١) هي جمهورية مالي الإفريقية.

وَمَشْرِقًا عَنْهَا؛ وَمَا بَقِيَ فِي هَذَا الرُّبْعِ فَهُوَ أَقَلُّهُ فِيهِ مَجُوسٌ وَأَيْضًا سُلْطَانُ نَصْرَانِي.

وَأَمَّا مَا تَقُولُهُ الْعَامَّةُ إِنَّ بَنِي آدَمَ السُّودَانِيِّينَ أَكْثَرُ مِنْ جَمِيعِ الْبَيْضِ فِي الدُّنْيَا؛ فَذَلِكَ بَاطِلٌ وَزُورٌ؛ وَأَظُنُّ أَنَّ السُّودَانِيِّينَ يَكُونُونَ قَدْرَ عُشُورِ الْبَيْضِ؛ وَكَذَلِكَ تَكْذِبُ الْيَهُودُ عَنْ وَادِي السَّبْتِ؛ وَأَنَّ وَرَاءَهُ سُلْطَنَةٌ عَظِيمَةٌ لِلْيَهُودِ؛ وَأَنَّ الْوَادِي لَا يَجْرِي يَوْمَ السَّبْتِ. وَقَدْ عَرَفَتِ النَّاسُ فِي زَمَانِنَا هَذَا أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَائِلِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا؛ فَأَمَّا الْيَهُودُ فَيَصْبِرُونَ نُفُوسَهُمْ عَنْ ذُلِّهِمْ وَخَزْيِهِمْ بِذِكْرِ وَادِي السَّبْتِ، وَإِذَا سُئِلُوا: فِي أَيِّ قُطْرٍ أَوْ جِهَةٍ مِنَ الدُّنْيَا هُوَ؟ فَلَا يَعْلَمُونَ مَا يَقُولُونَ.

وَيَمْتَدُّ هَذَا الرُّبْعُ الْإِفْرِيقِيُّ إِلَى طَرَفِ حُسْنِ الرَّجَا الَّذِي هُوَ سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً إِلَى الْجَنُوبِ مِنْ خَطِّ الاسْتِوَاءِ، وَيَضِيقُ الْأَرْضُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ إِلَى أَنْ يَكُونَ كَوْكُنَ وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ دَائِرَ بِهِ، وَأَيْضًا الْبَحْرُ الصَّغِيرُ، وَبَحْرُ سُورِسَ، كَمَا ذَكَرْنَا.

وَأَمَّا نِصْفُ الدُّنْيَا فَتُسَمَّى بِالْعَجَمِيَّةِ بِأَشْيَةٍ^(١)؛ وَفِيهَا لِلْمُسْلِمِينَ بِلَادُ الشَّامِ، وَمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالْحِجَازَ، وَالْيَمَنَ، وَبِلَادُ التُّرْكِ الشَّهِيرَةُ بِرَكَتِهَا - وَلَا أَعْرِفُ أَقْطَارَهَا - وَعِرَاقُ^(٢) عَرَبٍ، وَعِرَاقُ^(٢) عَجَمٍ، وَبَغْدَادُ وَمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنْ الْأَقْطَارِ، وَبِلَادُ هَرْمُوسَ وَسُلْطَانِ حَضْرَمَوْتِ، وَسُلْطَنَةُ قِشْنِ، وَسُلْطَنَةُ ضَفَرِ وَبِلَادُ الْإِمَامِ نُعْمَانَ، ثُمَّ بِلَادُ الْهِنْدِ، وَخُرَاسَانَ، وَبِلَادُ فَارِسَ وَمَا لَهَا مِنَ الْأَقْطَارِ، وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَسَمَرْقَنْدَ، وَبِخَارَةَ، وَأُسْبَكَ، وَبِلَادُ الطُّطْرَ، تَأْخُذُ مِنَ الدُّنْيَا حَقًّا وَافِرًا.

وَسُلْطَانُ جَلَالُ الدِّينِ فِي الْهُنُودِ: سُلْطَانٌ عَظِيمٌ، الَّذِي يَذْكُرُونَ عَنْهُ أَنَّ لَهُ أَقْبَالَاً لِلْحُرُوبِ؛ كَمَا ذَكَرَ لِي بَعْضُ الْهِنْدِيِّينَ فِي جَامِعِ الْأَزْهَرِ بِمِصْرَ، وَذَكَرَ لِي رَجُلٌ أَنْدَلُسِيٌّ بِمَكَّةَ الْمُشْرِفَةُ: أَنَّهُ خَدَمَ سُلْطَانَيْنِ مُسْلِمَيْنِ سِنِينَ غَيْرَ سُلْطَانِ جَلَالِ الدِّينِ.

(١) يريد قارة آسيا، كما تعرف بالإسبانية. (٢) في الأصل: عرق.

وَكَمْ مِنْ أَقْطَارٍ وَبِلَادٍ لِلْمُسْلِمِينَ غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا لِجَهْلِي بِهَا؟ وَكُلُّ مَا ذَكَرْنَا فِيهِ فِي الْأَرْضِ الْكُبْرَى الْمُتَّصِلَةَ^(١) لِلْمُسْلِمِينَ.

وفي المَبَات^(٢) الَّتِي تُصَوِّرُ النَّصَارَى؛ وَالْكُورِ الْأَرْضِيَّةِ فِيهَا: كُلُّ مَدِينَةٍ مُصَوَّرَةٍ وَمَكْتُوبٌ اسْمُهَا بِطُولِهَا وَعَرْضِهَا؛ وَكَذَلِكَ الْوُدْيَانُ^(٣) وَالْأَبْحُرُ - كَمَا تَقَدَّمَ -؛ وَفِيهَا فِي الْأَرْضِ الْكُبْرَى الْمُتَّصِلَةَ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ بِمَا تَأْخُذُ مِنَ الرَّبْعِ الْمَغْرِبِيِّ وَهِيَ نِصْفُ الدُّنْيَا الَّتِي قُلْنَا تُسَمَّى بِأَشْيِهِ نَحْوَ الْمَائَةِ وَأَرْبَعِينَ دَرَجَةً أَوْ أَكْثَرَ طَوْلًا، وَالْمَحْسُوبُ لِكُلِّ دَرَجَةٍ مِنَ الْأَرْضِ اثْنَانِ وَخَمْسُونَ مِيلًا وَنِصْفٌ لِلْمَاشِي عَلَى خَطِّ مُسْتَقِيمٍ مِنْ غَيْرِ صُعُودٍ جَبَلٍ وَلَا انْجِرَافٍ؛ وَيَكُونُ بِتَقْرِيبٍ لِكُلِّ دَرَجَةٍ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ لِلْمَاشِي الْمُتَوَسِّطِ، كَمَا قَدَرْنَا لِطُولِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ثَلَاثِينَ رَحْلَةً طَوْلًا؛ وَدَرَجَ طُولِهَا عَشْرٌ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً بِحِسَابِ الرِّحَالِ الْمَشْهُورَةِ فِيهِ ثَلَاثُونَ يَوْمًا بِتَقْرِيبٍ؛ وَجَاءَ لِكُلِّ دَرَجَةٍ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، كَمَا قُلْنَا؛ وَنَحْسِبُ لِلْأَرْضِ الْمُتَّصِلَةِ الْعَامِرَةِ بِالْمُسْلِمِينَ أَرْبَعُ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا.

وَقَدْ جَاءَ رَسُولٌ مِنْ بِلَادِ فَلَمْنِكَ إِلَى مَوْلَايَ زَيْدَانَ ابْنِ مَوْلَايَ أَحْمَدَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ - إِلَى مَدِينَةِ مَرَاكُشْ؛ وَكُتِبَ رِسَالَتُهُمْ عَجَمِي؛ وَأَمَرَنِي السُّلْطَانُ أَنْ أَعْرَبَهُ؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ الرَّسُولُ يُظْهِرُ لِي مَحَبَّةً. وَرَأَيْتُ عِنْدَهُ كُتُبًا بِالْعَرَبِيَّةِ؛ وَهُوَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ بِهَا؛ فَسَأَلْتُهُ أَيْنَ تَعْلَمُ ذَلِكَ؟

قَالَ: اغْلَمْ أَنَّي كُنْتُ فِي جَزِيرَةِ كَذَا مِنْ جُزُرِ الْهُنُودِ الْمَشْرِقِيَّةِ الَّتِي يَأْتُونَ مِنْهَا بِالْقَرْفَةِ وَالْقَرْنُفُلِ وَالْجُوزِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَبَازِيرِ وَهِيَ لِلْمُسْلِمِينَ؛ وَهُنَالِكَ تَعْلَمْتُ نَقْرًا.

قُلْتُ لَهُ: وَهَلْ فِي تِلْكَ الْجُزُرِ مُسْلِمُونَ؟

(١) في الأصل: المتصلة.

(٢) المبات: تعريب لكلمة Map وتعني الخريطة، وقد جمعها الحجري جمع تأنيث.

(٣) في الأصل: الوديان.

قَالَ: فِيهَا؛ وَفِي كُلِّ جَزِيرَةٍ سُلْطَانٌ مُسْلِمٌ؛ وَفِي بَعْضِ الْجُزُرِ سُلْطَانَانِ.

فَاسْتَعْرَبْتُ ذَلِكَ؛ وَحَلَفَ بِدِينِهِ وَمَا يَعْبُدُ أَنَّ فِي تِلْكَ الْجُزُرِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ آلَافِ جَزِيرَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ؛ فَتَوَقَّفْتُ فِي الْأَمْرِ؛ ثُمَّ قُلْتُ: ثَلَاثَةُ مَسَائِلَ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ: الْأُولَى: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ وَيَخْتِاجُ إِلَى ذَلِكَ سِنِينَ وَلَيْسَ بِفِلَنْضِسٍ إِلَّا الَّذِي سَنَذْكُرُهُ يَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَهُمَا رَجُلَانِ فَقَطْ، وَالثَّانِيَّةُ: أَنَّهُ كَانَ رَسُولًا وَالْمُلُوكُ لَا تَبْعُثُ مَنْ هُوَ سَفِيهٌ بِرِسَالَةٍ؛ الثَّالِثَةُ أَنَّهُ نَصْرَانِي عَدُوٌّ فِي الدِّينِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ النَّصَارَى تَعْظِيمُ الْمُسْلِمِينَ؛ وَإِذَا شَهِدَ لَكَ عَدُوُّكَ بِمَا تُحِبُّ فَيَقْضَى لَكَ بِالْغَلْبِ؛ وَإِذَا قُلْنَا هَذَا زَادَ كَثِيرًا؛ فَتَأْخُذُ الْعَشْرَ مِمَّا قَالَ وَيَبْقَى مِنَ الْحِسَابِ أَلْفُ جَزِيرَةٍ؛ كُلُّ وَاحِدَةٍ سُلْطَانٍ مُسْلِمٍ.

وَقَرَأْتُ فِي بَعْضِ كُتُبِ النَّصَارَى أَنَّ جُزَرَ الْهُنُودِ الْمَشْرِقِيَّةِ هِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ جَزِيرَةٍ.

وَقَدْ طَالَعْتُ كِتَابًا عَجَمِيًّا لِيَذَرُوا طُشَايِرًا^(١) - نَصْرَانِي -؛ وَذَكَرَ فِيهِ أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ بِبِلَادِ بُرْتُقَالٍ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ؛ وَمَشَى إِلَى الْهُنُودِ الْمَغْرِبِيَّةِ ثُمَّ مَشَى فِي بِلَادِهَا إِلَى أَنْ قَطَعَهَا بَرًّا، ثُمَّ رَكِبَ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ وَمَشَى فِيهِ مَغْرِبًا زَمَنًا فِي الْبَحْرِ، بَيْنَ الْجُزُرِ الْمَغْرِبِيَّةِ إِلَى أَنْ خَرَجَ بِقُرْبِ بَغْدَادٍ، وَجَاءَ فِي الْبَرِّ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَحْرِ الرُّومِ - أَظُنُّ أَنَّهُ ذَكَرَ إِلَى حَلَبٍ - وَرَكِبَ فِي الْبَحْرِ وَمَشَى إِلَى بِلَادِ النَّصَارَى؛ وَكَمَّلَ سَفَرَهُ بَرًّا وَبَحْرًا إِلَى أَنْ دَارَ بِالدُّنْيَا دَائِرَةً كَامِلَةً؛ وَكَانَ رَجُلًا حَكِيمًا، وَكَتَبَ مَا رَأَى.

وَمِنْ جُمْلَةِ مَا ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ: أَنَّهُ فِي جَزِيرَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ جُزُرِ الْمَشْرِقِ؛ دَخَلَ الْإِسْلَامَ فِيهَا، قَبْلَ هَذَا الْعَهْدِ بِنَحْوِ الْمِائَةِ وَالثَّلَاثِينَ سَنَةً؛ وَالْجَزِيرَةُ تُسَمَّى بِجَاوُشٍ وَصَارُوا مُسْلِمِينَ؛ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ بَنِي آدَمَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْلَمَنَا وَأَشْرَحَنَا بِعَمَارَةِ أَكْثَرِ الدُّنْيَا أَنَّهَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ الَّذِينَ لَا يَتَبَدَّلُ مُلْكُهُمْ إِلَى تَمَامِ الدُّنْيَا. وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْعَجَبِ فِي اخْتِذَاكَ تِلْكَ

(١) اسمه بدر و تيكسييرا، رَحَّالَةٌ بَرْتُغَالِيٍّ مِنْ أَصْلِ يَهُودِيٍّ. مَاتَ بَعْدَ سَنَةِ ١٦١٠ م.

الْجُزْرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ؛ لَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ مَأْمُورُونَ بِالْجِهَادِ لِلْكَفَّارِ
وَالْمُشْرِكِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(١)،
فَالْمُسْلِمُونَ مَنصُورُونَ مِنَ اللَّهِ بِالْجِهَادِ لِلْكَفَّارِ وَبِتَرْكِهِ يَنْتَلِيهِمُ اللَّهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛
لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا تَوَاطَأَ قَوْمٌ عَلَى تَرْكِ الْجِهَادِ إِلَّا ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ».
وَقَدْ شَاهَدْنَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.

وَبَقِيَ وَاضِحٌ أَنَّ الْحَجَرَ الَّذِي كَسَرَ الصَّنَمَ وَعَظَمَ حَتَّى عَمَرَ الدُّنْيَا كَانَ
النَّبِيُّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَهْلَ دِينِهِ، وَلَمْ يَكُنْ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَا النَّصَارَى
الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ.

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ سَلَاطِينِ النَّصَارَى، يَزْتَعِدُّ وَيَخَافُ مِنْ سَلَاطِينِ الْإِسْلَامِ
وَالدِّينِ، الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: وَهُمْ السَّلَاطِينُ الْفُضَّلَاءُ الْعُظَمَاءُ
الْعُثْمَانِيُّونَ التُّرْكِيُّونَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا ذِكْرُ مَا رَأَيْتُ وَفَهِمْتُ مِنَ النَّصَارَى، فِي
بِلَادِهِمْ، مِنَ الْخَوْفِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مِنْهُمْ؛ وَرَأَيْ مُلُوكَ النَّصَارَى أَنَّهُ
يَلِيقُ بِهِمْ صُخْبَتُهُمْ عَلَى وَجْهِ اللَّيْنِ وَاللُّطْفِ. حَتَّى إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَنْعَثُ
رَسُولَهُ لِيَقْعُدَ عَلَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ فِي الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ الْعُظْمَى، يَطْلُبُ مِنْهُمْ
الصُّلْحَ وَالرَّضَى عَنْهُمْ؛ وَهُمْ - نَصَرَهُمُ اللَّهُ، وَخَلَدَ مُلْكَهُمْ، وَجَعَلَ النَّصَارَى
وَالْكَفَّارَ الْأَعْدَاءَ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ - لَا يَنْعَثُونَ رَسُولًا لِكَافِرٍ عَلَى وَجْهِ الْقُعُودِ فِي
بِلَادِهِمْ، وَصَحَّ أَنَّ سُلْطَانَ إِشْبَانِيَّةَ - وَهِيَ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ - أَرَادَ أَنْ يَنْعَثَ رَسُولًا
لِلْقُعُودِ، مِثْلَ سَائِرِ مُلُوكِ النَّصَارَى وَلَمْ يَقْبَلُوهُ؛ لَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْ عِدَاوَتِهِ لِلْإِسْلَامِ،
وَعَذَرِهِ فِيمَا مَضَى، مِمَّا صَدَرَ مِنْهُمْ مَعَ سُلْطَانَ الْهُنُودِ الْمَغْرِبِيَّةِ بِمَدِينَةِ «مِشْقُ»
الْمُسَمَّى «مُتَشَمَّهُ»؛ إِذْ مَشَا إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ وَقَتْلُوهُ. وَالْعُهُودُ الَّذِي عَاهَدَ الْمُسْلِمِينَ
الْأَنْدَلُسَ حِينَ أَخَذَ بِلَادَهُمْ ثُمَّ نَكَّهَهَا. وَأَنْ حِينَ أَمَرَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ بِالْخُرُوجِ
مِنْ بِلَادِهِ؛ كُلُّ مَنْ عَلِمَ بِهِ أَنَّهُ يَمْشِي إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ أَخَذَ لَهُمُ الْأَوْلَادَ: كُلُّ
مَنْ كَانَ مِنْ أَقَلِّ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؛ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَ عَنْهُمْ فِي
أَخْذِ مَدِينَةِ مِلَانَ.

وَلَمْ يَكُنْ لِسُلَاطِينِ الْمُسْلِمِينَ أَعْدَاءُ وَلَا أَضُرُّ مِنْ سُلَاطِينِ إِشْبَانِيَّةَ. وَيَضُرُّونَ سُلَاطِينِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَذَلِكَ بِمَا لَهُ مِنَ الْقُوَّةِ بِالْمَالِ. نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ بِبَرَكَتِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ أَنْ يَنْصُرَ سُلَاطِينِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ نَصْرًا تُعِزُّ بِهِ الدِّينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِ الْجَنَشِيشِ مِنْ كُتُبِ التَّوَرَاةِ فِي الْبَابِ السَّادِسِ عَشَرَ؛ قَالَ: «وَكَلَّمَ الْمَلِكُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِهَاجَرَ فِي الْبَرِّيَّةِ بِقُرْبِ عَيْنِ مَاءٍ؛ قَرِيبًا مِنْ عَيْنِ طَرِيقِ الْقِبْلَةِ، وَقَالَ لَهَا: يَا هَاجِرُ مِنْ أَيْنَ جِئْتِ وَأَيْنَ تَمْشِينَ^(١)؟» قَالَتْ: هَرَبْتُ مِنْ شَرِّ سَيِّدَتِي. قَالَ لَهَا الْمَلِكُ: ازْجِعي إِلَى سَيِّدَتِكَ وَاخْضِعي إِلَيْهَا؛ وَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: تَكُونُ ذَرِيتُكَ حَتَّى لَا يُخْصَى عَدْدُهَا مِنْ كَثَرَتِهَا؛ وَقَالَ لَهَا: أَنْتِ حَمَلَتِ وَتَلِدِينَ^(٢) ابْنًا وَتُسَمِّيَنَّهُ إِسْمَاعِيلَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَمِعَ حُزْنَكَ؛ وَيَكُونُ رَجُلًا قَوِيًّا؛ يَدُهُ عَكْسُ الْكُلِّ وَأَيْدِي الْجَمِيعِ عَكْسُهُ. وَيَسْكُنُ قُدَّامَ جَمِيعِ إِخْوَانِهِ».

وَوَلَدَتْ هَاجَرَ إِسْمَاعِيلَ لِسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَسَمَّى ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ. وَلَمَّا بَلَغَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ مِائَةَ سَنَةٍ وُلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ مِنْ سَارَةَ. وَقَالَ فِي الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ فِي الْبَابِ الْوَاحِدِ وَالْعِشْرِينَ: «وَقَامَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ مِنَ الصُّبْحِ وَأَخَذَ خُبْرًا وَجَلَدَ مَاءً وَأَعْطَاهُ إِلَى هَاجَرَ وَوَضَعَ الطُّفْلَ ابْنَهُ عَلَى كَتِفِهَا وَبَعَثَهَا وَمَشَتْ وَتَلَقَّتْ فِي فَحْصِ بَرْشَبَا وَفَرَّغَ لَهَا الْمَاءَ مِنَ الْجِلْدِ وَتَرَكْتَ الطُّفْلَ؛ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَذَهَبَتْ؛ وَجَلَسَتْ قُبَالَتَهُ عَلَى بُعْدِ رَمِي قَوْسٍ؛ وَهِيَ تَقُولُ: مَا نَرَى إِلَّا الطُّفْلَ يَمُوتُ. وَجَلَسَتْ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ وَسَمِعَ اللَّهُ صَوْتَ الطُّفْلِ وَقَالَ مَلِكُ اللَّهِ مِنَ السَّمَاءِ: مَا لَكَ يَا هَاجَرَ؟ لَا تَخَافِي إِنَّ اللَّهَ سَمِعَ صَوْتَ الطُّفْلِ مِنْ حَيْثُ هُوَ؛ فَقُومِي وَارْفِعي ابْنَكَ وَخُذِيهِ^(٣) مِنْ يَدِهِ لِأَنَّهُ فِي كَبِيرِ قَوْمٍ يَكُونُ. حِينَئِذٍ فَتَحَ اللَّهُ عَيْنَيْهَا وَأَبْصَرَتْ عَيْنَ مَاءٍ، وَعَمَّرَتْ الْجِلْدَ مِنَ الْمَاءِ، وَأَعْطَتْ الْوَلَدَ يَشْرَبُ؛ وَأَصْلَحَ اللَّهُ الْوَلَدَ؛ وَكَبَّرَ فِي الْخَلَاءِ؛ وَكَانَ رَامِيًا بِالْقَوْسِ».

(٢) فِي الْأَصْلِ: وَتَلَدَ ابْنًا وَتَسْمِيَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: تَمْشِي.

(٣) فِي الْأَصْلِ: فَقَمِ وَارْفِعي ابْنَكَ وَخُذْهُ.

وَقَالَ فِي الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ فِي بَابِ خَمْسَ وَعِشْرِينَ: «وَهَذِهِ أَسْمَاءُ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: أَوَّلُ أَوْلَادِ سَيِّدِنَا إِسْمَاعِيلَ كَانَ نَبِيًّا فَتَخَّ وَأَسَدَزْ وَأَدَبَ وَالْإِمْبَشَمَ وَمَشْ وَمَبْدَ مَشْمَشًا أَذْ أَتَهُمَا اجْتَهَرُ وَنَافِشَ وَوَسَدَمًا. فَهِيَ أَسْمَاؤُهُمْ؛ فَكَانُوا فِي بِلَادِهِمْ وَدِيَارِهِمْ اثْنِي عَشَرَ: جَمِيعُ الْإِخْوَانِ وَكُلُّ وَاحِدٍ عَمِلَ قَبِيلَةً وَبَلَدًا وَخَدَةً، انْتَهَى.

وَذَكَرَ فِي التَّوْرَةِ فِي الْكِتَابِ الثَّانِي لِلْمَلُوكِ فِي الْبَابِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ: «إِنَّ السُّلْطَانَ يُشِيْشُ كَانَ بِنَيْتِ الْمَقْدِسِ؛ بَقِيَ بِهِ سُلْطَانًا إِحْدَى وَثَلَاثِينَ سَنَةً. وَفِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ عَشَرَ بَعَثَ السُّلْطَانُ لِسَافْنَ بْنِ أَرْزَلِيَّةَ - مِنَ الْكِتَابِ - لِلْبِنْتِ الْمَقْدِسِ لِيَنْبُتُوا وَيُضْلِحُوا مَا فَسَدَ فِيهَا. وَقَالَ الْحَبْرُ حِلْكُهُ لِسَافَانَ: وَجَدْتُ كِتَابَ الدِّينِ فِي بِنْتِ اللَّهِ وَهُوَ هَذَا أَعْطَاهُ لِلْسُّلْطَانِ. فَقَالَ: حِلْكُهُ الْحَبْرُ أَعْطَانِي هَذَا الْكِتَابَ. وَقَرَأَهُ السُّلْطَانُ؛ وَلَمَّا سَمِعَهُ قَطَعَ اللَّبَاسَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ بِكَسْرِ الْأَصْنَامِ. وَأَمَرَ جَمِيعَ النَّاسِ أَنْ يَغْمَلُوا عِيدًا. وَلَمْ يَغْمَلْ مِثْلُهُ فِي زَمَنِ السُّلَاطِينِ إِلَّا فِي زَمَنِ الْحُكَّامِ حِينَ كَانُوا فِي التَّيَّةِ».

وَيُظْهِرُ مِنْ هَذَا أَنَّ التَّوْرَةَ لَيْسَ [هِيَ الَّتِي] ^(١) كَانَتْ عِنْدَ النَّاسِ فِي تِلْكَ الْأَزْمِنَةِ؛ وَكَيْفَ يُبْتَنُونَ أَتَاهَا ^(٢) هِيَ الَّتِي كَانَتْ فِي زَمَنِ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ لَهُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ كَانَ فِي كُلِّ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مَوْجُودًا؛ وَكَانَ عِنْدَنَا بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَعَ الْحُكْمِ الْقَوِي، وَالْجَرِصِ الشَّدِيدِ مِنَ الْكُفَّارِ، عَلَى مَنْ يَظْهَرُ عِنْدَهُ، يَقْتُلُونَهُ وَيَأْخُذُونَ مَالَهُ وَيَخْرِقُونَهُ. وَمَضَتْ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ حِينَ مَنَعُوهُ وَهُوَ مَوْجُودٌ. وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ^(٣).

وَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ فِي الْكِتَابِ الْمُسَمَّى بِلَبْتَقٍ مِنْ كُتُبِ التَّوْرَةِ فِي الْبَابِ الْعَاشِرِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّامِنَةِ، قَالَ: «كَلَّمَ اللَّهُ هَارُونَ قَائِلًا: أَنْتَ وَأَوْلَادُكَ مَعَكُمْ لَا تَشْرَبُوا خَمْرًا وَلَا مُسْكِرًا، إِذَا أَرَدْتُمْ الدُّخُولَ فِي الْجَامِعِ وَمَا تَمُوتُونَ؛ هَذَا أَمْرٌ إِلَى

(٢) فِي الْأَصْلِ: أَنْ هَذَا.

(١) إِضَافَةٌ اقْتَضَاهَا السِّيَاقُ.

(٣) سُورَةُ الْحَجَرِ، آيَةٌ: ٩.

الْأَبَدِ لِكُلِّ مَنْ يَتَسَلَّ مِنْكُمْ. هَذَا لِيُفَرِّقُوا وَتُمَيِّزُوا بَيْنَ الصَّالِحِ وَالْفَسَادِ، وَبَيْنَ الطَّاهِرِ وَالنَّجِسِ، وَلِتُعَلِّمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتُبَيِّنَ لَهُمْ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ عَلَى يَدَيِ مُوسَى».

فَانْظُرْ هَذَا الْقَوْلَ الصَّرِيحَ عَلَى الْخَمْرِ وَالْمُسْكِرِ أَنَّهُ نَجِسٌ وَأَنَّهُ مُفْسِدٌ وَجَمِيعُ الْيَهُودِ يَشْرَبُونَهُ. وَانْظُرْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ الْمَلِكِ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى سَيِّدِنَا زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ قَبْلَ دُعَاكَ وَأَمْرَاتِكَ الْيَاصِبَاتِ تِلْدُ ابْنًا يُدْعَى بِاسْمِهِ يُوحَنَّا - وَعِنْدَنَا فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ اسْمُهُ يَحْيَى - وَيَكُونُ لَهُ فَرْحٌ عَظِيمٌ وَتَهْلِيلٌ؛ وَكَثِيرٌ يَفْرَحُونَ بِمَوْلَاهُ؛ وَيَكُونُ عَظِيمًا قُدَّامَ الرَّبِّ لَا يَشْرَبُ خَمْرًا وَلَا مُسْكِرًا»، وَهَذَا فِي الْإِنْجِيلِ.

فَالْيَهُودُ تَتَعَامَى عَلَى مَا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْمَنَعَ وَالتَّبْيِينِ إِنَّهُ نَجِسٌ؛ وَيُحَلِّلُونَهُ لِنُفُوسِهِمُ النَّجِسَةِ. وَالتَّصَارِي تَقْرَأُ هَذَا النَّصَّ فِي التَّوْرَةِ وَتَقْرَأُ أَيْضًا مَا فِي الْإِنْجِيلِ مِنْ قَوْلِ الْمَلِكِ عَنْ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ لَا يَشْرَبُ خَمْرًا وَلَا مُسْكِرًا. وَتَعْتَقِدُ الْجَلِيَّةَ وَالطَّهَارَةَ فِي الْخَمْرِ؛ حَتَّى لَا تَجُوزُ الصَّلَاةَ عِنْدَهُمْ إِلَّا بِهِ. فَاشْكُرْ اللَّهَ أَيُّهَا الْأَخُ الْحَبِيبُ عَلَى مَا وَجَدْتَ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ التَّبْيِينِ، عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، إِنَّهُ خَيْرُ الْأَدْيَانِ.

وَالْتَقَيْتُ بِمُسْتَرْضَمٍ^(١) بِفُلَنْزِسَ بِحَبْرِ مُفْتِي الْيَهُودِ؛ مَشَى إِلَيْهِمْ مِنْ بِلَادِ الْمَشْرِقِ. وَقَالَ لِي: - فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ عَنْ سَيِّدِنَا مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ عَمَلٌ ذَنْبًا عَظِيمًا.

قُلْتُ لَهُ: الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُنْزَهُونَ عَنِ الذُّنُوبِ؛ وَكَيْفَ تَقُولُ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ؟

قَالَ: نَعَمْ، لِأَنَّهُ كَانَ يُوَبِّخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ وَيَقُولُ فِيهِمْ: إِنَّهُمْ قَوْمٌ فَاسِقُونَ، لَا تُهْمُ أَهْلُ اللَّهِ، وَلَا عَلَتْ دَرَجَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِسَبِّهِمْ.

وَهَذَا بُزْهَانٌ فِي مَا قُلْنَا: إِنَّ فِيهِمُ الْكِبْرَ، حَتَّى إِنَّهُمْ يُعَظِّمُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَالَ لِي هُنَالِكَ يَهُودِيٌّ آخَرُ: إِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ يَتِمُّ فِيمَا هُوَ قَرِيبٌ.

قُلْتُ لَهُ: مَنْ قَالَ هَذَا؟

قَالَ: التَّوْرَةُ، إِنَّ كُلَّ مَنْ يَأْتِي بِدَعْوَةٍ بَاطِلَةٍ لَمْ تَبْلُغْ وَلَا تَدُومُ أَلْفَ سَنَةٍ.

قُلْتُ لَهُ: هَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ؛ لِأَنَّ دَعْوَةَ نَبِيِّنَا ﷺ جَارَتْ أَلْفَ سَنَةٍ بِأَكْثَرِ مِنْ

عِشْرِينَ سَنَةً!.

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ نَزَلَ عَلَيْهِ الذُّلُّ وَالْخِزْيُ وَالتَّغْيِيرُ وَخَابَ ظَنُّهُ فِيمَا كَانَ

يَرْجُوهُ.

وَقَدْ وَصَّى عَبْدُ الْحَقِّ الْإِسْلَامِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ

الْمُسَمَّى بِـ «السِّيفِ الْمَخْدُودِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ» لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَحَفَّظُوا مِنْ

أَطْعَمَةِ الْيَهُودِ بِمَا عَلِمَ مِنْ غُشِّهِمْ.

أَيْضًا فِي كِتَابِ نَسِيتُ اسْمَ مُؤَلِّفِهِ مِنْ كُتُبِ الْمُسْلِمِينَ طَلَبَ مِنِّي وَاحِدٌ مِنْ

فُقَهَاءِ الْأَنْدَلُسِ، أَنْ أُتَرْجِمَهُ لَهُ بِالْعَجْمِيَّةِ مِنَ الْعَرَبِيِّ بِسَلَاً بِالْمَغْرِبِ،

وَذَكَرَ فِيهِ مِنْ غُشِّ الْيَهُودِ شَيْئًا كَثِيرًا؛ وَحِكَايَاتٍ مِمَّا وَقَعَ لِلْمُسْلِمِينَ مَعَهُمْ تَرَكُّبُهَا

لِلتَّنَطُوبِ، وَنَذَكَّرُ مَا ذَكَرَ لِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِمَضَرِّ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَكَابِرِ

الْعُلَمَاءِ يَغْرِفُهُ.

قَالَ: إِنَّهُ كَانَ يَمْشِي إِلَى حَوْمَةِ دِيَارِ الْيَهُودِ لِدَارِ حَبِيرٍ مِنْ أَكَابِرِ عُلَمَائِهِمْ

يَقْرَأُ عَلَيْهِ عِلْمَ الْمَنْطِقِ، لِأَنَّهُ كَانَ بِالْعَا فِيهِ. وَمَشَى يَوْمًا كَمَا كَانَتْ مِنْ عَادَتِهِ؛ فَلَمَّا أَنْ

دَخَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ، خَرَجَ إِلَيْهِ الْيَهُودِي، وَأَخْرَجَهُ مِنْ دَارِهِ بِسُرْعَةٍ، وَسَدَّ الْبَابَ

فِي وَجْهِهِ. وَمَشَى الْعَالِمُ مُتَعَجِّبًا وَمُتَغَيِّرًا مِمَّا وَقَعَ لَهُ. ثُمَّ لَقِيَهُ بَعْدَ ذَلِكَ

الْيَهُودِي؛ وَقَالَ لَهُ فِي سِرٍّ: لَا تَأْخُذْ عَلَيَّ فِيمَا عَمِلْتُ مَعَكَ؛ لِأَنَّا عِنْدَنَا فِي دِينِنَا

أَنَّ الْيَهُودِي الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى قَتْلِ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى دِينِهِ وَلَا يَقْتُلُهُ، فَهُوَ يَزْتَدُّ عَنْ

دِينِ الْيَهُودِ، وَأَنْتَ يَا سَيِّدِي، فِي الْيَوْمِ الَّذِي جِئْتَ إِلَى دَارِي لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي

الدَّارِ وَكُنْتُ قَادِرًا عَلَى قَتْلِكَ لَوْ دَخَلْتَ عِنْدِي، وَأَسْرَعْتُ بِرَدِّكَ لِئَلَّا نَقْتُلَكَ أَوْ

نَزْتَدُّ.

فَانْظُرْ وَتَأَمَّلْ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَلَا تَأْمَنْهُمْ فِي شَيْءٍ؛ لَا سِيَّمَا أَنْ تُنَادِيَ طَبِيبًا مِنْهُمْ يُعَالِجُكَ؛ أَوْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ دَوَاءً لِأَنَّهُ يَنْسَهُلُ عَلَيْهِ قَتْلَ الْعَلِيلِ وَلَا يَلْزُمُهُ شَيْءٌ. وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَضُرُّ بِالْإِنْسَانِ، انْتَهَى الْكَلَامُ عَلَى الْيَهُودِ.

وَأَمَّا الْحَوَائِجُ الَّتِي كَانَتْ مَطْرُوحَةً بِبُزْضِيُوش، الَّتِي نَهَبَ الرَّائِسُ لِأَهْلِ الْحَجَرِ الْأَحْمَرِ؛ فَاتَّصَلْتُ بِهَا بَعْدَ أَنْ جَازَ عَلَيْنَا نَحْوَ الْعَامِ وَنِصْفِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَنْ كُلَّ مَنْ وَكَّلَنِي مِنْ جَمِيعِ الْأَنْدَلُسِ وَصَلَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الدَّرَاهِمِ.

وَلَمَّا تَقَضَيْنَا مِنْ أُمُورِنَا بِبُزْضِيُوش وَلَيْنَا إِلَى بَرِيش، بَلَدَ السُّلْطَانِ، وَالتَّقَيْتُ هُنَاكَ بِأَكْبَرِ الْمُتَجَمِّينَ فِي الْأَحْكَامِ التُّجُومِيَّةِ وَقَالَ لِي: هَذَا الْعِلْمُ لَمْ تَرَ لَهُ نَتِيجَةً أَبَدًا فِي الْأَحْكَامِ، وَقَدْ جَرَّبْتُ كَثِيرًا مِنَ الْاِخْتِيَارَاتِ، وَلَمْ يَصْدُقْ فِيهَا وَاحِدٌ؛ وَلَمْ تَتْرُكْ شَيْئًا مِنَ التَّحْقِيقِ فِي التَّضَبَّاتِ وَأَخَذِ الْاِزْتِفَاعَ لِلْبُرُوجِ فِي الطَّالِعِ مِمَّا قَالَ الْمُؤَلَّفُونَ لِلْكِتَابِ؛ وَعِنْدِي أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ تَأْلِيفٍ فِي الْفَنِّ، وَتَنْفَهُمَ مَا فِيهَا. وَلَمَّا قُتِلَ السُّلْطَانُ بِبَرِيشِ أَبُو لُوشِ الَّذِي هُوَ الْآنَ سُلْطَانٌ؛ قُلْتُ فِي نَفْسِي: الشَّمْسُ الَّتِي يُنْسَبُ الْحُكْمُ إِلَيْهَا عَلَى السُّلَاطِينِ تَكُونُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا مُتَّصِلَةً بِنَحْسٍ. وَلَمَّا نَظَرْتُ ذَلِكَ وَجَدْتُهَا مَعَ الزُّهْرَةِ وَهِيَ سَعْدٌ، وَلَا يَخْهُمُ لِلْسُّلْطَانِ بِذَلِكَ إِلَّا بِسَعْدٍ إِذَا كَانَتْ الزُّهْرَةُ مُقْتَرِنَةً أَوْ مُتَّصِلَةً بِالشَّمْسِ؛ وَالْعُلَمَاءُ الَّذِينَ وَضَعُوا هَذِهِ الْقَوَاعِدَ وَالْأَقَاوِيلَ وَالْأَحْكَامَ، فَلَا نَتِيجَةَ بَعْدَ الْعَمَلِ عَلَى مُقْتَضَى أَقْوَالِهِمْ، بَلْ نَجِدُ الْمَسْأَلَةَ بِالْعَكْسِ مِمَّا قَالُوا، انْتَهَى.

وَأَقُولُ: اَعْلَمَ أَنِّي كُنْتُ قَرَأْتُ شَيْئًا فِي عِلْمِ الْأَحْكَامِ عَلَى الْفَقِيهِ أَحْمَدَ الْمَضْيُوبِ الْفَاسِي الْأَنْدَلُسِيِّ نَسَبًا، وَكَانَ بَالِغًا فِي الْفَنِّ فِي عِلْمِ التَّنْجِيمِ وَالْخَطِّ الرَّمْلِيِّ، وَعِلْمِ الْجَدُولِ الْعَدْدِيِّ وَالْحَرْفِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ مِنَ الْكِتَابِ فِي تِلْكَ الْفُنُونِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، لِأَنَّ السُّلْطَانَ مَوْلَانِي أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ظَهَرَ لِي أَنَّهُ كَانَ يَمُدُّهُ بِالْكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِ الَّتِي قَالُوا نِهَايَةَ كُتُبِهَا اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ كِتَابًا؛ وَقَالَ لِي الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِرَارًا إِذَا سَأَلَنِي السُّلْطَانُ شَيْئًا فِي الْأُمُورِ الْمُغَيَّبَاتِ تَتْرُكُ الْكِتَابَ كُلُّهَا وَتَعْمَلُ جَدُولًا مُحَمَّسًا وَتُعَمِّرُهُ بِخَمْسَةِ أَسْمَاءٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَهِيَ:

الِهَادِي، الْخَبِيرُ، الْمُبِينُ، عَلَامُ الْغُيُوبِ، بِالتَّدَاخُلِ فِي الصَّنْعَةِ بِحَيْثُ يُقْرَأُ طَوْلًا وَعَرْضًا وَقُطْرًا عَلَى هَذَا الثَّغْبِ:

الطَّيِّبُ	الْخَبِيرُ	الْمُبِينُ	عَلَامُ	الْغُيُوبِ
عَلَامُ	الْغُيُوبِ	الطَّيِّبِ	الْخَبِيرِ	الْمُبِينِ
الْخَبِيرِ	الْمُبِينِ	عَلَامُ	الْغُيُوبِ	الِهَادِي
الْغُيُوبِ	الطَّيِّبِ	الْخَبِيرِ	الْمُبِينِ	عَلَامُ
الْمُبِينِ	عَلَامُ	الْغُيُوبِ	الطَّيِّبِ	الْخَبِيرِ

ثُمَّ نَقَرْنَا مَا تَنْقُطُ جَمِيعُ الْحُرُوفِ بِالْجَزْمِ الْكَبِيرِ، وَإِذَا فَرَعْتُ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي اللَّيْلِ قَبْلَ النَّوْمِ؛ فَتَضَعُ الْجَدُولَ تَحْتَ رَأْسِي، وَيَأْتِينِي فِي النَّوْمِ مَنْ يُخْبِرُنِي بِالْجَوَابِ مِمَّا أَضْمَرْتُهُ فِي نَفْسِي نَذْكُرُ حَاجَتِي جَهْرًا. قَالَ: إِنَّهُ يَصْدُقُ فِيمَا يُجَاوِبُ^(١) بِهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ كَانَ يَغْمَلُ نَضْبَةً عَلَى الْمَسْأَلَةِ وَيُظْهِرُهَا لِيُظَنَّ أَنَّ الْجَوَابَ اسْتَخْرَجَهُ مِنْهَا.

وَقَدْ حَكَمَ عَلَى تَارِيخِ وَلَا دَتِي بِإِشْبِيلِيَّةِ زَوْجٍ مِنْ أَكَابِرِ الْمُتَجَمِّينَ بِأَنَّهُ عُمَرِي يَكُونُ مِنْ أَرْبَعِينَ إِلَى خَمْسِينَ سَنَةً، وَوَجَدَ فِي مَرَاكُشِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الْمُصْنُوبِ سِتٍّ وَسِتِّينَ سَنَةً، وَالْيَوْمَ بَلَغْتُ إِلَى أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً قَمَرِيَّةً، وَمَا زِلْنَا فِي رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَمِمَّا رَأَيْتُ بِبَرِيشِ امْرَأَتَيْنِ ثُرَكِيَّتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا عَجُوزَةٌ وَالْأُخْرَى مِنْ نَحْوِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَهِيَ مُشْغُولَةٌ بِالْأَشْغَالِ الْعَجِيبَةِ لِلْسُلْطَانَةِ. وَكَانَتْ النِّسَاءُ جَمِيعًا

(١) فِي الْأَصْلِ: يَجُوبُ.

تَتَعَجَّبَنَّ مِنْ حُسْنِ شُغْلِهَا وَظَرْفِهَا فِي الرَّفْمِ. وَكَانَتْ تَأْخُذُ مِنْ عِنْدَ السُّلْطَانَةِ كُلَّ يَوْمٍ رِيَالَةً كَبِيرَةً. وَسَأَلَتْهَا عَنِ السَّبَبِ الَّذِي جَاءَ بِهَا مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ.

قَالَتْ: كُنَّا فِي الْبَحْرِ قَاصِدِينَ الْحَجَّ وَأَخَذْنَا النَّصَارَى وَأَتَوْا بِنَا إِلَى الْبُنْدُوقِيَّةِ. وَكَتَبَ رَسُولُ سُلْطَانِ فَرَنْجَةِ وَأَعْلَمَ السُّلْطَانَةَ بِشُغْلِنَا؛ وَبَعَثَتْ لَهُ أَنْ يُرْسِلَنَا إِلَيْهَا؛ ثُمَّ إِنَّ السُّلْطَانَةَ وَنَسَاءَ الْأَكَابِرِ دَعَوْهَا إِلَى دِينِهِمْ وَدَخَلَتْ فِيهِ.

فَقُلْتُ لَهَا: مَا أَلْهَمَنِي اللَّهُ فِي أُمُورِ الْأَدْيَانِ؛ وَإِنَّهُ لَا يَنْجُو إِلَّا أَحَدٌ إِلَّا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ؛ وَأَتَيْتُ لَهَا بِبَرَاهِينَ عَلَى ذَلِكَ. وَهِيَ كَانَتْ تَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْعَجُوزُ كَذَلِكَ؛ قَالَتْ: إِنَّهَا كَانَتْ مِنَ الدَّارِ الْكَرِيمَةِ لِلْسَّلَاطِينِ بِإِضْطَبُولٍ؛ وَنَادَتْني يَوْمًا؛ وَبَعْدَ الطَّعَامِ الْعَجِيبِ قَالَتْ لِي: أَطْلُبُ مِنْكَ حَاجَةً لِرُؤُوسِهِ اللَّهُ تَعَالَى.

قُلْتُ لَهَا: أَذْكَرِي حَاجَتَكَ!

قَالَتْ لِي: تُدَبِّرْ عَلَيَّ لِنَمُشِي إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ.

قُلْتُ لَهَا: وَتَسْمَحُ لَكَ السُّلْطَانَةُ فِي الْإِثْتِقَالِ؟

قَالَتْ: مَا تَسْمَحُ لِي أَبَدًا!

قُلْتُ لَهَا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ أُدَبِّرُ عَلَيْكُمَا حَتَّى تَرْجِعَا إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، حِينَئِذٍ وَدَعْنَهُمَا. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي شَأْنِهِمَا.

فَمَشِينَا مِنْ بَرِيشَ إِلَى مَدِينَةِ رُوانَ؛ ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَرْسَى الْبَرَكَةِ أَيْنَ كَانَ نُزُولُنَا مِنَ الْبَحْرِ، حِينَ جِئْنَا إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ، وَرَكِبْنَا الْبَحْرَ وَمَشِينَا إِلَى فَلَنْضُسَ، وَبَلَّغْنَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ أَوْ أَكْثَرَ. وَكُنَّا فِي مُرُورِنَا ذَاهِبِينَ إِلَى جِهَةِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ، وَبِلَادِ فَرَنْجَةِ عَنْ يَمِينِنَا، وَبِلَادِ الْإِنْجِلِزِ عَنْ يَسَارِنَا، وَنَرَى^(١) الْبَرَيْنِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ.

البَابُ الحَادِي عَشَرَ

فِي ذِكْرِ بِلَادٍ فَلَنْضِيسَ

اعْلَمْنَا أَنَّنَا مَسِينَا وَقَصَدْنَا تِلْكَ الْبِلَادَ وَهِيَ أَبْعَدُ عَن بِلَادِنَا مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعِيدَ مِنْ غَيْرِهِ أَوْ مِنْ نَفْسِهِ. وَلَمَّا رَأَيْتُ وَتَحَقَّقْتُ مِنْ عَمَلِ الْفَرَنْجِ الْبَحْرِيَّةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، قُلْتُ: لَا تُؤَلِّي إِلَى بِلَادِنَا فِي سُفُنِهِمْ؛ بَلْ نَمْشِي إِلَى فَلَنْضِيسَ لِأَنَّهُمْ لَا يَضُرُّونَ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ يُحْسِنُونَ إِلَيْهِمْ - كَمَا سَيَأْتِي.

وَلَمَّا بَلَّغْنَا إِلَى مَدِينَةِ مُسْتَرْضَامَ؛ رَأَيْتُ الْعَجَبَ فِي حُسْنِ بُنْيَانِهَا وَنَقَائِهَا وَكَثْرَةِ مَخْلُوقَاتِهَا؛ كَادَتْ أَنْ تَكُونَ فِي الْعِمَارَةِ مِثْلَ مَدِينَةِ بَرِيشَ بِفَرَنْجَةِ. وَلَمْ تَكُنْ فِي الدُّنْيَا مَدِينَةً بِكَثْرَةِ السُّفُنِ مِثْلَهَا. قِيلَ: إِنَّ فِي جَمِيعِ سُفُنِهَا؛ صِغَارًا وَكِبَارًا؛ سِتَّةَ آلَافٍ سَفِينَةٍ. وَأَمَّا الدِّيَارُ: كُلُّ وَاحِدَةٍ مَرْسُومَةٌ وَمُرَوَّقَةٌ مِنْ أَغْلَاهَا إِلَى أَسْفَلِهَا بِالْأَلْوَانِ الْعَجِيبَةِ؛ وَلَنْ تُشَبَّهِ وَاحِدَةٌ أُخْرَى فِي صُنْعِ رَفِيمِهَا؛ وَالْأَرْقَةُ كُلُّهَا بِالْأَخْجَارِ الْمُتَبَتَّةِ. وَالتَّقِيْتُ بِمَنْ رَأَى بِلَادَ الْمَشْرِقِ وَبِلَادِ الصَّقَالِبَةِ وَرُومَةَ، وَغَيْرَهَا مِنْ بِلَادِ الدُّنْيَا، وَقَالَ لِي: إِنَّهُ مَا رَأَى مِثْلَهَا فِي الزَّيْنِ وَالْمَلَاخَةِ.

وَاعْلَمْنَا أَنَّ هَذَا فَلَنْضِيسَ؛ هِيَ سَبْعَ عَشْرَةَ جَزِيرَةً، وَجَمِيعُهَا كَانَتْ لِسُلْطَانِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ. وَبَعْدَ أَنْ ظَهَرَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ رَجُلٌ عَالِمٌ عِنْدَهُمْ يُسَمَّى بِلُطْرِي وَعَالِمٌ آخَرُ يُسَمَّى بِقَلْبِنَ. وَكَتَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَا ظَهَرَ لَهُ فِي دِينِ النَّصَارَى عَنِ التَّحْرِيفِ، وَالْخُرُوجِ عَنِ دِينِ سَيِّدِنَا عِيسَى وَالْإِنْجِيلِ، وَأَنَّ الْبَابَا بِرُومَةَ يُضِلُّونَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَبِمَا يَزِيدُونَ فِي الدِّينِ بِمَنْعِ الْقَسِيسِينَ وَالرُّهْبَانِ مِنَ

التَّزْوِيجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كَثِيرٌ. وَدَخَلَ فِي هَذَا الْمَذْهَبِ جَمِيعُ أَهْلِ فَلَنْضُسَ - أَغْنِي الْجُزْءَ السَّبْعَةَ - وَقَامُوا عَلَى سُلْطَانِهِمْ إِلَى الْآنَ.

وَهُمْ أَيْضًا عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ أَهْلُ سُلْطَنَةِ الْإِنْجِلِزِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ بِفَرَنْجَةِ، وَحَذَرَهُمْ عُلَمَاءُؤُهُمْ مِنَ الْبَابَا، وَمِنْ عُبَادِ الْأَضْنَامِ، وَأَنْ لَا يُبْغِضُوا الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ سَيَفُ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ عَلَى عُبَادِ الْأَضْنَامِ. وَيَسَبِّ ذَلِكَ لَهُمْ مِثْلُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ. وَأَمَّا السَّبْعُ عَشْرَةَ جَزِيرَةً؛ فَالسَّبْعُ مِنْهَا قَامَتْ عَلَى سُلْطَانِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ قَبْلَ هَذَا الْعَهْدِ بَنَحُو السَّبْعِينَ سَنَةً، وَمَا قَدَّرَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَيْسَ مِنْهُمْ. وَهُمْ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِ النَّصَارَى فِي الْبَحْرِ بِالسُّفُنِ. وَكُلُّ جَزِيرَةٍ، الْبَحْرُ دَائِرٌ بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ وَهُوَ الْمُحِيطُ.

وَلَمَّا دَخَلْنَا مَدِينَةَ لَيْدَا رَأَيْنَا فِيهَا مَدَارِسَ لِقِرَاءَةِ الْعُلُومِ، وَوَجَدْتُ فِيهَا رَجُلًا كَانَ يَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَيُقَرِّ بِهَا غَيْرَهُ، وَيَأْخُذُ رَاتِبًا عَلَى ذَلِكَ؛ وَكُنْتُ عَرَفْتُهُ بِفَرَنْجَةِ؛ وَحَمَلَنِي إِلَى دَارِهِ. وَكَانَ يَتَكَلَّمُ مَعِيَ بِالْعَرَبِيَّةِ - يُعَرِّبُ الْأَسْمَاءَ وَيُصَرِّفُ الْأَفْعَالَ - وَكَانَ لَهُ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ بِالْعَرَبِيَّةِ. وَمِنْ جُمْلَتِهَا الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ. فَأَخَذْنَا فِي الْكَلَامِ؛ وَهُوَ يُثَبِّتُ قَوْلَهُ بِالتَّثْلِيثِ فِي الْأَلُوْهِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ فِي ذَلِكَ مَعَ الْبَابَا وَاتِّبَاعِهِمْ. وَكَانَ يَشْكُرُ وَيَمْدَحُ دِينَهُ كَثِيرًا بِالْمَدْحِ النَّامِ لِسَيِّدِنَا عِيسَى.

قُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَقُولُ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَمَدْحٍ؛ فَتَحْنُ مُتَّفِقُونَ مَعَكُمْ فِيهِ إِلَّا قَوْلَكَ إِنَّهُ إِلَهٌ؛ أَوْ ابْنُ اللَّهِ حَقِيقَةً.

وَذَكَرَ أَيْضًا الرُّوحَ الْقُدُسَ. قُلْتُ لَهُ: الرُّوحُ الْقُدُسُ هُوَ الْبَارَقْلِيْطُ الْمَذْكُورُ فِي الْإِنْجِيلِ؟

قَالَ: نَعَمْ! هُوَ.

قُلْتُ لَهُ: أَنْتَ تَعْرِفُ الْأَلْسْنَ وَاللُّغَاتِ؛ مَا مَعْنَى الْبَارَقْلِيْطِ؟

قَالَ: هِيَ كَلِمَةٌ لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ اللَّطِينِ، إِنَّمَا هِيَ مِنْ لُغَةِ الْيُونَانِ؛ وَمَعْنَاهَا بِالْعَرَبِيَّةِ: شَفِيعٌ.

قُلْتُ لَهُ: هَذَا مِنْ أَسْمَاءِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وَهَذَا اسْمٌ يَدُلُّ عَلَى اسْمِ شَخْصٍ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قُلْتُ: وَلِمَاذَا تَجْعَلُونَهُ إِلَهًا وَتَقُولُونَ ثَلَاثَةً وَوَاحِدٌ مَعْنَى شَيْءٍ وَاحِدٌ؟

ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ حَكِيمٌ مَشْهُورٌ فِي الطَّبِّ وَالْعُلُومِ. قَالَ لِي: نَحْنُ عِنْدَنَا الْقُرْآنُ مُتَرَجَمٌ بِاللُّطِينِ، وَلَيْسَ فِيهِ مُعْجَزَاتٌ لِنَبِيِّكُمْ كَمَا عِنْدَنَا فِي الْإِنْجِيلِ! وَقَالَ: هَلْ عِنْدَكُمْ كُتُبٌ فِي مُعْجَزَاتِ نَبِيِّكُمْ؟

قُلْتُ: عِنْدَنَا! وَوَاحِدٌ مِنَ الْكُتُبِ الْمَشْهُورَةِ فِي ذَلِكَ لِلْقَاضِي عِيَّاضٍ، وَذَكَرْتُ لَهُ شَيْئًا؛ وَأَنْ عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ؛ وَكَانَ ﷺ يَعْمَلُهَا بِحَضْرَةِ أَقْوَامٍ كَثِيرَةٍ، وَلَمَّا رَأَى النَّاسُ فَضْلَهُ وَبَرَكَاتِهِ وَصِدْقِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَتَوْجِيدِهِ؛ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ يَقْرَأُ، فَدَخَلَتْ النَّاسُ فِي دِينِهِ. وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْصُرُ الْحَقَّ حَتَّى أَظْهَرَ دِينَهُ عَلَى الْأَذْيَانِ. وَأَكْثَرُ مَعْمُورِ الدُّنْيَا عَلَى دِينِهِ.

قَالَ الْحَكِيمُ: وَاللَّهُ إِنَّنَا تَمَنَّيْتُ نَقْرَأَ هَذَا الْكِتَابَ! ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ الْمُعْجَزَاتُ فِيهَا اخْتِمَالَاتٌ، لِأَنَّ كَثِيرًا يَصْنَعُونَ مَسَائِلَ بِوَاسِطَةِ الشَّيْطَانِ!.

قُلْتُ: وَلَيْسَ فِي عِلْمِكُمْ بِمَا تُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمُعْجَزَةِ النَّبَوِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، أَوِ الشَّيْطَانِيَّةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ أَوْ بِالشُّعُودَةِ؟

قَالَ لِي: اذْكُرْ لِي أَنْتَ كَيْفَ يُعْرِفُ ذَلِكَ؟

قُلْتُ: أَمَّا النَّبِيُّ فَلَمْ يَعْمَلْ مُعْجَزَةً إِلَّا إِذَا طُلِبَتْ مِنْهُ، وَغَالِبًا يُنْتَجُ مِنْهَا نَفْعٌ بَاطِنٌ وَظَاهِرٌ. أَمَّا الْبَاطِنُ: فَحُصُولُ الْيَقِينِ فِي الْقُلُوبِ، وَالصَّدَقُ لِمَا ذَكَرَ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمْرُهُمْ^(١) بِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْهُ. وَأَمَّا الظَّاهِرُ: فَيَكُونُ فِيهِ نَفْعٌ ظَاهِرٌ لِلنَّاسِ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَغِيثَ جَيْشًا مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَاءِ أَوْ بِالطَّعَامِ. وَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَمَاتُوا جَمِيعًا؛ كَمَا وَقَعَ لِنَبِيِّنَا ﷺ مَرَارًا، فَهَذَا نَفْعٌ ظَاهِرٌ، أَوْ يَطْلُبُ الْمَطَرُ، أَوْ يَشْفِي مَرِيضًا. وَأَمَّا مَا يَكُونُ مُسْتَعْمَلًا مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ بِالنَّفْعِ^(٢) إِلَّا عَلَى خَاصَّةٍ نَفْسِهِ لَا لِغَيْرِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: وَأَمَارِهِمْ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: النَّفْعُ.

وَأَمَّا بِالشُّعُودَةِ: فَإِنَّهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُطْلَبَ مِنْهُمْ وَلَا يَخْصَلُ مِنْهَا نَفْعٌ حَقِيقِي أَبَدًا - لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا - وَهُمْ الَّذِينَ يَجْذِبُونَ النَّاسَ لِيَرَوْا مَا يَعْمَلُونَهُ. وَإِذَا طَلَبَهُمْ أَحَدٌ أَنْ يَصْنَعُوا شَيْئًا مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ غَيْرِ الَّذِي يُظْهِرُونَ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا وَصَاحِبُ الشُّعُودَةِ يَعْمَلُ الْعَجَائِبَ لَعَلَّهُ بِذَلِكَ يُفْرَحُ النَّاطِرِينَ وَيُعْطُونَهُ شَيْئًا لِيَعِيشَ بِهِ. وَلَوْ قِيلَ لَهُ: عَلَّمَنِي هَذَا الَّذِي أَنْتَ تَعْمَلُهُ وَأَعْطَيْكَ دَرَاهِمَ فَيَعْلَمُهُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَهُ فِي الْعَمَلِ.

حِينَئِذٍ قَالَ الْحَكِيمُ: صَدَقْتَ فِيمَا قُلْتَ! هَذَا هُوَ الْحَقُّ.

وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ هُنَالِكَ؛ أَتَوْنِي بِكِتَابٍ عَرَبِيٍّ، قَالُوا لِي: أَتَعْرِفُ تَقْرَأُ هَذَا؟

فَلَمَّا طَالَعْتُهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِي التَّصَوُّفِ؛ وَأَنْ بَعْضُ الصَّالِحِينَ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْجَامِعِ مَعَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَإِذَا احتَاجَ أَنْ يَرُدَّ الْجَوَابَ يَخْرُجُ إِلَى بَابِ الْجَامِعِ، وَيَرُدُّهُ. قُلْتُ لَهُمْ: فَهَمْتُ مَا فِيهِ؛ وَأَقْدِرُ أَنْ أَتَرْجِمَهُ بِالْأَعْجَمِيَّةِ.

فَتَعَجَّبُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَقَالُوا لِي: هَذَا الْكِتَابُ سَاقُوهُ مِنْ جَزِيرَةِ كَذَا مِنْ الْهُنُودِ الْمَشْرِقِيَّةِ الَّتِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فِي الْبَحْرِ زَمَنٌ طَوِيلٌ؛ أَقَلُّ مِنْ سَنَةٍ فِي الْبُلُوغِ إِلَيْهَا. وَهَذَا عَجَبٌ! لِأَنَّ بَيْنَ بِلَادِكَ وَبَيْنَهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ وَأَنْتَ تَفْهَمُ مَا فِي الْكِتَابِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ لِسَانٌ وَاحِدٌ عَامٌّ فِي كُلِّ بَلَدٍ. وَكَلَامُنَا فِي هَذِهِ الْبِلَادِ مُخْتَلِفٌ لِسَانِ الْأَلْسِنِ^(١)؛ لِأَنَّ فِي بِلَادِ الْإِنْجِلِزِ كَلَامٌ وَاحِدٌ؛ وَأَهْلُ فَرَنْجَةِ بِلُغَةٍ أُخْرَى، وَكَذَلِكَ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ عَجَمِيَّةٌ أُخْرَى، وَكَذَلِكَ فِي إِيطَالِيَّةِ وَالْأَمَانِيَّةِ وَمُسْقِيَّةِ، وَكُلُّ لِسَانٍ مُخْتَلِفٌ عَنْ غَيْرِهِ. وَهَذَا الْعَرَبِيَّةُ وَاحِدَةٌ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالُوا الْحَقُّ فِي ذَلِكَ فَهُوَ كَلَامٌ مُبَارَكٌ؛ وَمَنْ يَتَكَلَّمُ بِهَا لَا بُدَّ يَذْكُرُ اللَّهَ، وَلِلذَلِكَ كَانَ يَقُولُ بَعْضُ مَنْ الْأَنْدَلُسِ: لَا عَرَبِيَّةَ بِلَا اللَّهِ وَلَا عَجَمِيَّةَ بِلَا

شَيْطَانٍ؛ لِأَنَّ النَّصَارَى يَذْكُرُونَهُ كَثِيرًا فِي كَلَامِهِمْ. وَلَا يُكْرَهُ الْعَرَبِيَّةَ وَالْكَلامَ بِهَا إِلَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ فَضْلَهَا وَبَرَكَتَهَا؛ انْتَهَى. وَصَحَّ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي أَتَوْا بِهِ مِنَ الْجَزْرِ الْمَشْرِقِيَّةِ أَنَّ^(١) سَكَانَهَا مُسْلِمُونَ.

ثُمَّ مَشِينَا مِنْ مَدِينَةِ لَيْدَا إِلَى مَدِينَةِ الْهَيْةِ، فِيهَا دَارُ أَمِيرِهِمْ وَالْدِيَّوَانُ، وَالتَّقْنِيتُ هُنَالِكَ بِرَسُولِ الْأَمِيرِ، كُنْتُ عَرَفْتُهُ بِمَرَاكُشٍ، وَكَانَ شَاكِرًا لِي كَثِيرًا؛ عَلَى مَا وَقَفْتُ مَعَهُ فِي سِجْنِهِ حَتَّى خَلَصْتُهُ مِنْهُ. وَسَبَبُ قُدُومِهِ إِلَى مَرَاكُشٍ؛ أَنَّ سُلْطَانَ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ بَعَثَ الْأَغْرِبَةَ إِلَى الْجَزْرِ الَّتِي قُلْنَا إِنَّهَا عَلَى غَيْرِ طَاعَتِهِ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ الْجَزْرِ وَأَخَذُوا الْأَغْرِبَةَ؛ وَرَمَوْا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ النَّصَارَى فِي الْبَحْرِ - كَذَا قِيلَ - وَفَكُّوا كُلَّ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ مِائَةٍ؛ وَجَعَلُوهُمْ فِي سَفِينَةٍ عَظِيمَةٍ، وَبَعَثَهُمْ أَهْلُ فَلَنْضِسَ هَدِيَّةً إِلَى سُلْطَانَ مَرَاكُشٍ - وَكَانَ ابْنُ مَوْلَايَ أَحْمَدَ اسْمُهُ بُو قَارِسَ وَكَانَ ذَلِكَ؛ فِي نَحْوِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً وَأَلْفَ.

وَمَشَى بِهِمْ رَسُولًا بِدُرِّ مَرَّتَيْنِ الَّذِي التَّقْنِيتُ بِهِ مِنْ غَيْرِ ظَنٍّ وَذَلِكَ بِالْهَيْةِ؛ وَهِيَ بِبِلَادِهِ. وَبَعْدَ أَنْ جَلَسَ هَذَا الرَّسُولُ بِمَرَاكُشٍ سِنِينَ، فِي زَمَنِ الْهَرَجِ وَالشَّرِّ، ثُمَّ ثَبَّتَ فِي الْمَمْلَكَةِ السُّلْطَانُ مَوْلَايَ زَيْدَانَ، فَسَجَنَ هَذَا الرَّسُولَ، لِأَنَّهُ مَا مَشَى بِالْهَدِيَّةِ فِي زَمَانِهِ؛ وَبَعْدَ أَنْ جَارَ زَمَنَ عَلَى الرَّسُولِ فِي سِجْنِهِ، بَلَغَنِي الْخَبَرُ وَتَذَكَّرْتُ الْخَيْرَ الَّذِي عَمِلُوا لِلْمُسْلِمِينَ حِينَ بَعَثُوهُمْ هَدِيَّةً إِلَى مِلَّتِهِمْ. وَوَقَفْتُ وَدَبَّرْتُ وَكَلَّمْتُ الْمُفْتِيَّ الْعَالِمَ الشَّهِيرَ مُحَمَّدًا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؛ وَكَلَّمْتُ السُّلْطَانَ وَانْطَلَقَ مِنْ السُّجْنِ.

فَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ بِبِلَادِهِ مَشَى إِلَى الْأَمِيرِ وَأَعْلَمَهُ وَحَمَلَنِي إِلَى عِنْدِهِ، وَاسْمُ الْأَمِيرِ مَوْرِسِيٍّ - وَأَقْبَلَ عَلَيَّ؛ وَعَرَى رَأْسَهُ وَأَخَذَ بِيَدِي وَأَجْلَسَنِي مَعَهُ؛ وَرَزَنَتْهُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ. وَبَعْدَ أَنْ جَلَسْتُ يَوْمًا قَالَ لِي: مَاذَا تَعْرِفُ مِنَ الْأَلْسُنِ؟ قُلْتُ لَهُ: الْعَرَبِيَّةَ وَلِسَانَ إِشْبَانِيَّةَ وَلِسَانَ أَهْلِ بُرْتُقَالٍ؛ وَكَلَامَ الْفَرَنْجِ نَفْهَمُهُ وَلَكِنْ مَا نَعْرِفُ تَتَكَلَّمُ بِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: أَنَّهُمْ.

قَالَ لِي: فَأَنَا نَعْرِفُ كَلَامَ الْفَرَنْجِ، وَنَفْهَمُ كَلَامَ إِشْبَانِيَّةَ - وَهُوَ كَلَامُ أَهْلِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ كَمَا قُلْنَا مِرَارًا - وَلَا أَعْرِفُ أَتَكَلَّمُ بِهِ؛ وَإِلَى هَذَا فَأُكَلِّمُكَ بِالْفَرَنْجِ وَتُكَلِّمُنِي بِلِسَانِ أَهْلِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ الْعَجِيبِ.

قُلْتُ: نَعَمْ!.

قَالَ لِي: مَا السَّبَبُ الَّذِي ظَهَرَ لَكَ حَمَلَ سُلْطَانِ إِشْبَانِيَّةَ عَلَى إِخْرَاجِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ بِلَادِهِ؟

قُلْتُ: اَعْلَمُ أَنَّ الْأَنْدَلُسَ كَانُوا مُسْلِمِينَ فِي خَفَاءٍ مِنَ النَّصَارَى، وَلَكِنْ تَارَةً يَظْهَرُ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامُ؛ وَيَحْكُمُونَ فِيهِمْ، وَلَمَّا تَحَقَّقَ مِنْهُمْ ذَلِكَ لَمْ يَأْمَنَ فِيهِمْ؛ وَلَا كَانَ يَحْمِلُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَى الْحُرُوبِ، وَهِيَ الَّتِي تَفْنِي كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ. وَكَانَ أَيْضًا يَمْنَعُهُمْ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ لِئَلَّا يَهْرَبُوا إِلَى أَهْلِ مِلَّتِهِمْ. وَالْبَحْرُ يَفْنِي كَثِيرًا مِنَ الرُّجَالِ. وَأَيْضًا فِي النَّصَارَى كَثِيرُونَ قَسِيسُونَ وَرُهَبَانٌ وَمُتْرَهَبَاتٌ؛ وَيَتَزَكَّيهِمُ الزَّوْجُ يَنْقَطِعُ فِيهِمُ النَّسْلُ؛ وَفِي الْأَنْدَلُسِ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ قَسِيسُونَ وَلَا رُهَبَانٌ وَلَا مُتْرَهَبَاتٌ، إِلَّا جَمِيعُهُمْ يَتَزَوَّجُونَ وَيَزْدَادُ عَدَدُهُمْ بِالْأَوْلَادِ وَيَتَزَكَّى الْحُرُوبُ وَرُكُوبُ الْبَحْرِ. وَهَذَا الَّذِي ظَهَرَ لِي حَمَلَهُ عَلَى إِخْرَاجِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ بِطُولِ الزَّمَنِ يَكْثُرُونَ.

ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَتَفْهَمُ كَلَامِي؟

قَالَ لِي بِالْفَرَنْجِ: كُلُّ مَا قُلْتُ فَهَيْمَتُهُ وَمَا ذَكَرْتُ هُوَ الْحَقُّ.

قَالَ لِي: لَوْ أَتَّفَقْنَا مَعَ كُبَرَاءِ الْأَنْدَلُسِ، وَنَبَعْتُ لَهُمْ عِمَارَةً مِنْ سُفُنٍ كَبِيرَةٍ لِيَزْكَبُوا فِيهَا مَعَ جُودِنَا نَأْخُذُ إِشْبَانِيَّةَ؟

قُلْتُ: لَا يُمْكِنُ لِلْأَنْدَلُسِ أَنْ يَتَّفِقُوا عَلَى هَذَا إِلَّا بِإِذْنِ السُّلَاطِينِ الَّذِينَ خَرَجُوا بِبِلَادِهِمْ وَسَكَنُوا بِهَا.

قَالَ: لَوْ كُنَّا نَتَّفِقُ مَعَ سُلْطَانِ مَرَاكُشَ وَنَبَعْتُ لِلْسَّيِّدِ الْكَبِيرِ - أَغْنِي السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ وَالْدِّينِ - وَنَتَّفِقُ جَمِيعًا عَلَى سُلْطَانِ إِشْبَانِيَّةَ نَظْفَرُ بِهِ وَنَأْخُذُ بِلَادَهُ.

قُلْتُ لَهُ: هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ لَوْ حَصَلَ وَفِي تَخْصِيلِهِ شَكٌّ. وَأَمَّا لَوْ كَانَ هَذَا
الِاتِّفَاقُ فَيَأْخُذُونَ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ - أَعَادَهَا اللَّهُ إِلَى الْإِسْلَامِ!

وَقَالَ لِلرُّسُولِ: اكْتُبْ رَمَزًا فِي الْحُرُوفِ وَأَعْطِهِ نُسخَةً لِتَكُونَ الْمُكَاتَبَةُ بَيْنَنَا
وَبَيْنَهُ. وَأَعْطَانِي نُسخَةً.

ثُمَّ قَالَ لِي: تَمَنَّ عَلَيَّ؛ مَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ: اطْلُبْ مَا تُحِبُّ مِنِّي؛ - وَهِيَ
عَادَةٌ عِنْدَ مُلُوكِ النَّصَارَى - إِنْ قَالُوا لِلْإِنْسَانِ اطْلُبْ مِنِّي مَا شِئْتَ، إِنَّهُمْ يُعْطُونَهُ مَا
يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ؛ وَلَا يَقُولُونَ ذَلِكَ إِلَّا نَادِرًا لِمَنْ رَضُوا عَنْهُ غَايَةَ الرِّضَا.

قُلْتُ فِي نَفْسِي: النَّصَارَى تَقُولُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ إِنَّهُمْ طَمَاعُونَ كَثِيرًا فِي مَتَاعِ
النَّاسِ؛ وَهَذَا لَمْ يَرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ - وَأَنَا أَحَدُهُمْ - وَلَيَعْلَمَ وَيَتَحَقَّقُ
أَنَّ الَّذِي يَقُولُونَهُ فِيهِمْ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، وَأَنَّ فِيهِمْ مَنْ لَا يَطْمَعُ فِي مَالِهِ، فَلَا
نَطْلُبُ مِنْهُ مَالًا.

قُلْتُ لَهُ: اطْلُبْ مِنْ فَضْلِكُمْ مَسْأَلَةً أَوْ شَيْئًا.

قَالَ: مَا تَطْلُبُ؟

قُلْتُ: أَنْ تُوصِي بِنَا رَئِيسَ^(١) السَّفِينَةِ الَّتِي نَمْشِي فِيهَا.

قَالَ: هَذَا فَقَطُّ؟

قُلْتُ: نَعَمْ!.

قَالَ: فَأَبْحَثْ حَتَّى تَتَحَقَّقَ مِنَ السَّفِينَةِ الَّتِي تَمْشِي، وَاعْرِفْ اسْمَ الرَّئِيسِ
وَأَيْضًا اسْمَ التَّاجِرِ مَوْلَى السَّفِينَةِ؛ وَأَتْبِئِي.

فَأَخْبَرْتُهُ بِأَسْمَائِهِمَا، وَأَمَرَ لِكَاتِبِ السُّرِّ أَنْ يَكْتُبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بَرَاءَةً بِالْوَصِيَّةِ
عَلَيْنَا وَعَلَّمَ عَلَيْنَاهَا، وَفَرِحَ كُلُّ وَاحِدٍ بِكِتَابِهِ؛ فَالتَّاجِرُ اسْتَعْمَلَ لَنَا مِنَ السُّكْرِ أَنْوَاعًا
مِنَ الْأَطْعِمَةِ، وَأَعْطَانَا حَتَّى التَّمَرِ الَّتِي هِيَ غَرِيبَةٌ عِنْدَهُمْ، لِأَنَّهَا مَجْلُوبَةٌ مِنْ بِلَادِ
الْمُسْلِمِينَ، إِذْ لَيْسَ هِيَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا فِي بِلَادِهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ: رَائِسَ.

وَأَمَّا الرُّسُولُ الَّذِي فَرِحَ بِي فِي بِلَادِهِ؛ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ تَرْكِيبَيْنِ بِبِلَادِ الْفَرَنْجِ، بِبَرِيَشٍ وَاتَّفَقَ لَهُمَا أَنْ دَخَلْنَا فِي دِينِ النَّصَارَى؛ وَطَلَبْنَا مِنِّي أَنْ أُدَبِّرَ عَلَيْهِمَا حَتَّى تَرْجِعَا إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَأَنَا رَاجِعٌ إِلَى مَرَاكُشٍ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وَكَيْفَ يَكُونُ التَّدْبِيرُ عَلَيْهِمَا؟

قَالَ: اكْتُبْ لَهُمَا تَأْيِيدَانِ إِلَى دَارِي؛ وَأَنَا أُدَبِّرُ عَلَيْهِمَا حَتَّى تَرْجِعَا إِلَى بِلَادِهِمَا.

وَكَتَبْتُ لَهُمَا بِذَلِكَ، وَبَعَثْتُ الْبَرَاءَةَ إِلَى رَجُلٍ أُنْدَلُسِي؛ وَبَلَّغَهَا لَهُمَا؛ وَسَتَرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الطَّرِيقِ مِنَ الْفَرَنْجِ حَتَّى بَلَّغْنَا إِلَى فَلَنْضُسَ. وَوَقَعَ التَّدْبِيرُ مَعَ الْأَمِيرِ وَبَعَثَهُمَا فِي سَفِينَةٍ تُجَارٍ إِلَى إِصْطَنْبُولَ، وَبَلَّغْنَا سَالِمَتَيْنِ. وَصَنَعَ مَعَهُمَا ذَلِكَ، بَعْدَ أَنْ مَشَيْتُ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ وَلَا رَأَيْتُهُمَا، وَالْخَيْرُ يَأْتِي بِخَيْرٍ. وَأَمَّا الرَّئِيسُ كَانَ يَفْرَحُ بِنَا فِي سَفِينَتِهِ وَذَلِكَ مَقْصُودُنَا.

وَأَمَّا مَدِينَةُ «الْهَآيَةِ» الَّتِي كَانَ فِيهَا الْأَمِيرُ؛ فَعَرَضَهَا اثْنَانِ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً، وَذَلِكَ فِي الْإِفْلِيمِ السَّادِسِ مِنَ الدُّنْيَا. وَأَصَابَنَا الْحَالُ وَنَحْنُ فِيهَا فِي أَطْوَلِ أَيَّامِ الْعَامِ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِالسَّرَطَانِ وَلَيْسَ طُلُوعُ الشَّمْسِ وَغُرُوبُهَا كَهَذِهِ الْبِلَادِ - أَغْنِي مِضَرَ وَالْمَغْرِبَ وَالشَّامَ وَبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ - فَالْيَوْمَ هُنَاكَ مِنْ أَوَّلِ الْفَجْرِ مِنْ نَحْوِ تِسْعِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ بِتَقْرِيبٍ؛ وَلَا ظُلْمَةٌ فِي اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلَةٌ؛ وَغُرُوبُ الشَّمْسِ مُنْحَرِفٌ، وَتَبْقَى الْحُمْرَةُ فِي السَّمَاءِ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ؛ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَاعَةٍ وَنِصْفٍ بِتَقْرِيبٍ نُصَلِّي الصُّبْحَ.

وَيَطْوُلُ الْكَلَامُ عَلَى مَا رَأَيْنَا بِفَلَنْضُسَ، ذَكَرْنَا شَيْئًا فِي الرِّحْلَةِ، وَأَيْضًا حِكَايَةَ السَّتَّةِ رِجَالٍ الَّذِينَ جَاؤُوا فِي سَفِينَتِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْيَوْمُ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ لَا لَيْلَ فِيهَا. وَبِعَكْسِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الشِّتَاءِ لَا شَمْسَ فِيهَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ الزَّمَنِ مِنَ الشِّتَاءِ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُهُ فِي هَذَا الْبَابِ مِمَّا جَاوَبْتُ بِهِ لِلْأَمِيرِ فِي شَأْنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي حَمَلْتُ لِسُلْطَانِ النَّصَارَى عَلَى إِخْرَاجِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ بِلَادِهِ، فَتَذَكَّرُ هُنَا شَيْئًا، وَلَمْ نَذْكُرْهُ فِي الشُّنْخِ الَّتِي سَبَقَتْ لِهَذَا الْمُخْتَصَرِ.

اعْلَمْ أَنَّ سُلْطَانَ الْبِلَادِ الْمُسَمَّى : بِفِلِبِّ الثَّانِي ، مِنْ اسْمِهِ - أَغْنِي مِمَّنْ سُمِّيَ مِنَ السُّلَاطِينِ بِفِلِبِّ - وَبَيَّنْتُ هَذَا لِأَنِّي طَالَعْتُ بَعْضَ كُتُبِ التَّوَارِيخِ لِلْمُسْلِمِينَ ، فِيمَا وَقَعَ لَهُمْ مِنَ الْحُرُوبِ مَعَ سُلْطَانِ الْبِلَادِ الْمُسَمَّى بِالْفُنْشِ ؛ وَلَمْ يُبَيِّنُوا أَيُّهُمْ كَانَ؟ لِأَنَّ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ كَانَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ سُلْطَانًا مِنْ سُمِّيَ بِالْفُنْشِ ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ كُلَّ وَاحِدٍ بِحَسَابِهِ مِنَ الْأَسْمِ ، مِثْلُ أَنْ يَقُولُوا : الْفُنْشُ الرَّابِعُ أَوْ الثَّامِنُ أَوْ الْعَاشِرُ . وَالْمُؤَرِّخُونَ الْمُسْلِمُونَ لَا يَذْكُرُونَ دَرَجَةَ لِلْأَسْمِ . وَهَذَا فِلِبُّ الثَّانِي أَمَرَ فِي بِلَادِهِ كُلِّهَا ، قَبْلَ خُرُوجِي مِنْهَا ، أَنْ يُزَمِّمُوا جَمِيعَ الْأَنْدَلُسِ صِغَارًا وَكِبَارًا ؛ حَتَّى الْتَبَيَّ فِي رَحِمِ النِّسَاءِ بِظُهُورِ الْحَمَلِ . وَلَا عِلْمَ أَحَدٍ السَّرِّ فِي ذَلِكَ .

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَنَحُو السَّبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً عَمِلُوا زَمَانًا آخَرَ مِثْلَ الْأَوَّلِ - كَمَا أَعْلَمُونِي بِمَرَاكُشْ - وَلَمْ يَذَرِ أَحَدُ السَّرِّ فِي ذَلِكَ حَقِيقَةً ؛ وَلَكِنْ قَالَ لِسَانُ الْحَالِ : إِنَّهُمْ أَرَادُوا يَعْلَمُوا هَلْ كَانُوا فِي زِيَادَةٍ أَمْ لَا؟ وَلَبَّأَ وَجَدُوا زِيَادَةً كَثِيرَةً أَمَرُوا بِقُرْبِ ذَلِكَ بِإِخْرَاجِهِمْ . وَكَتَبَ السُّلْطَانُ فِلِبُّ الثَّالِثُ - مِنْ اسْمِهِ - كِتَابًا لِقَرِيبِهِ وَخَلِيفَتِهِ بِمَدِينَةِ بِلَنْسِيَةِ يَأْمُرُهُ أَنْ يَشْرَعَ فِي إِخْرَاجِ الْأَنْدَلُسِ . وَتَرَجَمْتُ نُسْخَةً مِنَ الْبَرَاءَةِ لِلْسُّلْطَانِ مَوْلَايَ زَيْدَانَ ابْنِ السُّلْطَانِ مَوْلَايَ أَحْمَدَ بِمَرَاكُشْ ، وَكَانَ تَارِيخُ الْكِتَابِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فِي أَوَّلِ عَامِ ثَمَانٍ عَشْرَةَ وَأَلْفٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، قَالَ فِيهِ :

«مَرَاكُشْ ذَا قَرَسَنَا قَرِيبُنَا وَخَلِيفَتُنَا فِي سُلْطَنَتِنَا بِلَنْسِيَةِ سَلَامًا!» .

فَدَ عِلِمْتُ مَا صُنِعَ وَعُمِلَ ، مَعَ النَّصَارَى الْجُدُودِ الْأَنْدَلُسِ أَهْلِ تِلْكَ السُّلْطَنَةِ وَقَسْتَالَهُ ، عَلَى طُولِ السِّنِينَ الْكَثِيرَةِ الْمَاضِيَةِ مِنَ التَّخْرِيطِ وَالْإِزْشَادِ لِإِثْبَاتِهِمْ فِي دِينِنَا الْمَجِيدِ وَإِيمَانِنَا . وَلَا نَفْعَ مَعَهُمْ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا لِأَنَّهُ لَمْ يَوْجَدْ فِيهِمْ وَاحِدٌ مِنْ هُوَ نَضْرَانِي حَقِيقَةً . وَالْعَرُورُ وَالشُّرُّ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَخْذُلَ بِسَبَبِ مَا تَعَامَيْنَا عَلَيْهِمْ ؛ قَدْ ذَكَرَهُ إِلَيْنَا رِجَالُ عُلَمَاءَ وَصُلَحَاءَ وَأَنَّهُ لَزِمَنَا إِضْلَاحُ ذَلِكَ الْأَمْرِ لِتَرْضَايَ بِهِ اللَّهُ ؛ وَتُرْبِيلُ غَضَبِهِ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَفْتَوَا فِيهِمْ أَنَّهُ يَجُوزُ لَنَا مِنْ غَيْرِ شَكٍّ أَنْ نُعَاقِبَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ؛ لِأَنَّ الْإِسْتِمْرَارَ عَلَى سُوءِ أَعْمَالِهِمْ ، خَتَمَ وَحَكَمَ

عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مُتَافِقُونَ وَأَعْدَاءُ لِلْمَقَامِ الإِلَهِيِّ وَالْإِنْسَانِيِّ، وَهَبْنَا قَادِرَ عَلَى أَنْ نَجَازِيَهُمْ وَنُعَاقِبَهُمْ بِمَا أَوْجَبَ سُوءُ فِعْلِهِمْ وَلَوْمَتِهِمْ. فَمَعَ ذَلِكَ اخْتَرْتُ مُعَامَلَتِهِمْ عَلَى طُرُقِ الْحِلْمِ وَاللِّينِ وَتَرَكْتُ الْمُوَاخَذَةَ، وَبَسَبَبِ ذَلِكَ أَمَرْنَا بِاجْتِمَاعِ الْمَحْفَلِ الَّذِي حَضَرَتْ فِيهِ مَعَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَكَابِرِ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ، لَعَلِّي نَجِدُ سَبِيلًا لِتَرْكِ إِخْرَاجِهِمْ مِنْ مَمْلَكَتِنَا؛ وَنَحْنُ فِي هَذَا تَحَقُّقْنَا وَصَحَّ مِنْ وَجُوهِ: أَنَّهُمْ بَعَثُوا لِلتُّرْكِيِّ الْكَبِيرِ بِإِضْطِنْبُول، وَمَوْلَايَ زَيْدَانَ بِمَرَاكُش رُسُلَهُمْ، يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَنْ يُنَجِّدُوهُمْ، لَأَنَّهُمْ عِنْدَهُمْ مَائَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفَ رَجُلٍ مُسْلِمِينَ؛ مِثْلَ الَّذِينَ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ الْأَفْرِقِيَّةِ؛ وَأَيْضًا بَعَثُوا لِأَعْدَائِنَا الْبَحْرِيَّةِ بِالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ الَّتِي تَحْتَ الْقُطْبِ، وَأَنَعَمُوا أَنَّهُمْ يُعِينُونَهُمْ بِسُفُنِهِمْ. وَأَمَّا سُلْطَانُ إِضْطِنْبُول فَقَدْ اضْطَلَحَ مَعَ سُلْطَانِ الْفَرَسِ لِأَنَّهُ كَانَ يُشْغَلُهُ؛ وَأَمَّا سُلْطَانُ مَرَاكُش فَقَدْ عَزَمَ عَلَى تَدْوِيخِ الْبِلَادِ وَتَسْكِينِهَا؛ وَإِذَا اتَّفَقُوا جَمِيعًا مَعَ هَؤُلَاءِ نَرَى نَفُوسَنَا فِي الْأَمْرِ الَّذِي لَا يَخْفَى.

وَلِلْقِيَامِ بِمَا لَزِمَنَا مِنْ حِفْظِ مَمْلَكَتِنَا، وَدَفْعِ مَا يَغْرُضُ لَهَا اتَّفَقَ نَظَرُنَا - بَعْدَ أَنْ دَعَوْتُ اللَّهَ وَأَمَرْتُ بِالْدُّعَاءِ لَهُ، طَامِعًا وَمُتَوَكِّلًا فِي تَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ، لِمَا يَجِبُ لِمَجْدِهِ وَقُضْلِهِ - عَلَى إِخْرَاجِ جَمِيعِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ هُمْ فِي تِلْكَ السُّلْطَنَةِ لَأَنَّهُمْ أَقْرَبُ لِلْعَرَبِ؛ وَالْإِنْجَازِ، بِذَلِكَ أَمَرْنَا بِإِشْهَارِ هَذَا الْأَمْرِ وَيُنَادَى بِهِ.

فَأَوَّلًا يُعْرِفُ مِنْهُ أَنَّ جَمِيعَ الْأَنْدَلُسِ فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ، رِجَالًا وَنِسَاءً، بِأَوْلَادِهِمْ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ شَهْرَةِ هَذَا الْأَمْرِ، بِالْبِلَادِ الَّتِي هُمْ سَاكِنُونَ أَنْ يَخْرُجُوا وَيَنْشُوا لِيَرْكَبُوا الْبَحْرَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُؤْمَرُ بِهِ؛ وَأَنْ يَحْمِلُوا مِنَ الْعُرُوضِ وَالْأَثَاثِ مَا يَسْتَطِيعُونَ عَلَيْهِ؛ لِيَرْكَبُوا فِي السُّفُنِ وَالْأَغْرِبَةِ الَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ لِحَمْلِهِمْ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ؛ وَيُنْزِلُونَهُمْ مِنْ غَيْرِ مَضَرَّةٍ لِأَحَدٍ فِي النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ، وَيَعْطُونَهُمْ مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ مَا دَامُوا فِيهَا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْمِلَ لِنَفْسِهِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَلْيَفْعَلْ. وَمَنْ يَتَعَدَّ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ فَلْيُقْتَلْ فِي الْحِينِ.

وَأَنَّ كُلَّ مَنْ يُوجَدُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، الَّتِي يُنَادَى بِالْأَمْرِ، خَارِجًا عَنْ بَلَدِهِ؛ يَجُوزُ لِكُلِّ مَنْ لَقِيَهُ أَنْ يَنْهَبَ مَا عِنْدَهُ؛ وَيُسَلِّمَهُ لِلْحُكَّامِ، وَإِنْ اِمْتَنَعَ يَجُوزُ لَهُ قَتْلُهُ.

وَأَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْمَعُ الْبِدَاءَ لَا يَخْرُجُ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَمْشِيَ مَعَ مَنْ يَقُودُهُمْ إِلَى رُكُوبِ الْبَحْرِ.

وَأَنَّ كُلَّ مَنْ يَذْفُنْ شَيْئًا مِنْ أَمْتِعَتِهِ، إِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الرُّفُودَ مَعَهُ؛ أَوْ يَحْرِقْ شَيْئًا مِنَ الزَّرْعِ أَوْ الْأَشْجَارِ، أَنْ يُقْتَلَ عَلَى ذَلِكَ؛ وَأَمَرْنَا جِيرَانَهُ بِتَنْفِيذِ الْحُكْمِ فِيهِمْ.

وَلَمَّا يَصْلُحُ بِالْبِلَادِ مِنْ مَعَاصِرِ السُّكْرِ وَالرُّزِّ وَسَقَى الْبِلَادِ لِيُعْلَمُوا السُّكَّانُ الْجُدْدُ؛ أَمَرْنَا بِقُعُودِ سِتَّةٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ بِأَوْلَادِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَتَزَوَّجُوا، فِي كُلِّ بَلَدٍ يَكُونُ مِنْ مِائَةِ دَارٍ وَالْأَمْرِ فِي ذَلِكَ لِتَغْيِينِهِمْ فَهُوَ لِمَوْلٍ كُلِّ بَلَدٍ وَيَكُونُ مِنَ الْفَلَاحِينَ الْقُدَمَاءِ الَّذِينَ ظَهَرَ عَلَيْهِمُ الْقُرْبُ وَالْمَيْلُ لِدِينِنَا، وَيُرْجَى فِيهِمُ الثَّبَاتُ عَلَيْهِ.

وَأَنَّ الرِّمَاءَ وَالنَّصَارَى الْقُدَمَاءَ لَا يَأْخُذُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يَقْرُبُونَ إِلَى نِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَلَا يَكْتُمُونَ مِنْهُمْ أَحَدًا فِي دَارِهِ؛ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يُجْعَلُ فِي مُقَدَفِ الْأَغْرِبَةِ سِتِّ سِنِينَ، وَيَزَادُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَظْهَرُ لَنَا.

وَلِيُعْلَمُوا أَنَّ السُّلْطَانَ مَا مُرَّادُهُ إِلَّا إِخْرَاجُهُمْ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ؛ فَلَا يَضُرُّهُمْ أَحَدٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ وَأَنَّهُ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ وَيَحْمِلُهُمْ فِي سَفِينِهِ، وَإِذَا بَلَّغُوا فَلْيَزَجِعُوا عَشْرَةَ مِنْهُمْ لِيُعْلَمُوا لِعَاجِلِهِمْ، وَكُتَبَاءُ الْأَغْرِبَةِ وَالسُّفُنَ فَلْيَعْمَلُوا بِهَذَا الْأَمْرِ.

وَأَنَّ الصُّبِّيَّانَ وَالْأَيْتَامَ، مِنْ أَقَلِّ مِنْ أَرْبَعِ سِنِينَ؛ إِذَا أَرَادُوا الْقُعُودَ بِرِضَاءٍ وَكَلَائِهِمْ وَالْأَوْصِيَاءَ؛ فَلْيَقْعُدُوا.

وَأَنَّ الصُّبِّيَّانَ الَّذِينَ يَكُونُونَ أَوْلَادَ نَصَارَى، لَا يُخْرَجُونَ وَلَا أُمَهَاتِهِمْ مَعَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ أُنْدَلُسِيَّةً. وَإِنْ كَانَ أَبُوهُمْ أُنْدَلُسِيًّا وَأُمُّهُمْ نَصْرَانِيَّةً فَتَقْعُدُ الْمَرْأَةُ بِأَوْلَادِهَا الَّتِي مِنْ سِتَّةٍ فَأَقَلُّ وَهُوَ يَذْهَبُ وَيَخْرُجُ.

وَشَهْرَ هَذَا الْأَمْرِ وَتُودِي بِهِ فِي الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ سَبْتَمْبَرٍ مِنْ عَامِ تِسْعٍ وَسِتِّ مِائَةٍ وَأَلْفٍ مِنْ مِيلَادِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ انْتَهَى.

وَبَعْدَ أَنْ حَرَجَ أَهْلُ سُلْطَنَةِ بِلْنِيسِيَّةٍ؛ فَأَمَرَ بِالْخُرُوجِ لِلَّذِينَ كَانُوا بِالْأُنْدَلُسِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ الْقَرِيبَةِ إِلَيْهَا أَنْ يَخْرُجُوا. وَبَعْدَ أَنْ أَكْتَرُوا السُّفُنَ - وَهُمْ فِي وَادٍ

إِسْبِيلِيَّة - بَعَثَ السُّلْطَانُ أَمْرًا عَكْسَ الْأَوَّلِ؛ وَقَالَ إِنَّ كُلَّ مَنْ اكْتَرَى سَفِينَةً،
لِيَمْشِيَ لِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَأْخُذُوا لَهُمْ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَقْلٍ مِنْ سَبْعِ سِنِينَ
مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْبَنَاتِ. وَأَخْرَجُوا كُلَّ مَنْ كَانَ فِي عِشْرِينَ سَفِينَةً. وَأَخْذُوا لِأَهْلِ
الْحَجَرِ الْأَحْمَرِ نَحْوَ أَلْفٍ مِنَ الْأَوْلَادِ، وَكُلَّ مَنْ جَازَ إِلَى طَنْجَةِ وَسَبْتَةِ، فَأَخْذُوا
لَهُمْ أَوْلَادَهُمْ مِثْلَ الْآخَرِينَ. وَاللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى اخْذِ الْحَقِّ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا،
عَلَى يَدَيَّ مَنْ فَضَّلَهُ اللَّهُ وَاخْتَارَهُ مِنْ سُلَاطِينَ الْمُسْلِمِينَ.

البَابُ الثَّانِي عَشَرَ

فِيمَا اتَّفَقَ لَنَا فِي مِصْرَ مَعَ رَاهِبٍ عَالِمٍ كَانَ بِالْعَا فِي فُنُونِ الْعِلْمِ
وَيُفْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ . وَأَيْضًا مَا وَقَعَ لِي مِنَ الْمُكَاتَبَةِ لِرَاهِبٍ مِنْ أَكَابِرِ عُلَمَاءِ
النَّصَارَى بِمَرَّاكُشَ

وَذَلِكَ أَنَّهُ جَاءَ فِي الْبَحْرِ فِي سَفِينَةٍ مِنَ الْهُنُودِ قَاصِدًا إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ،
لِيَخْضَرَ مِنَ الدِّيَّوَانِ الْكَبِيرِ لِلْقَسِيسِينَ ، لِيَبْعَثُوا الرُّهْبَانَ لِأَقْطَارِ الدُّنْيَا ، كَمَا
هِيَ مِنْ عَادَتِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَهُمْ لِلسُّكْنَى فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَمْشُونَ إِلَيْهَا إِلَّا نَحْوَ
الْعَامِينَ أَوْ ثَلَاثَ ؛ ثُمَّ يُرْحَلُونَهُمْ ؛ إِلَى بِلَادٍ غَيْرِهَا .

وَرَرِيسُ السَّفِينَةِ جَاءَ إِلَى مَرْسَى «أَزْمُور» مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، وَظَنَّ أَنَّهَا
مِنْ بِلَادِ النَّصَارَى ، وَدَخَلَ فِيهَا وَبَقِيَ أَسِيرًا هُوَ وَجَمِيعُ مَنْ كَانَ فِي
السَّفِينَةِ ؛ وَمِنْ جُمْلَتِهِمُ الرَّاهِبُ الْكَبِيرُ ؛ وَأَتَوْا بِالْجَمِيعِ إِلَى مَرَّاكُشَ ؛ وَقَبْلَ أَنْ
جَاءَ ، كُنْتُ تَكَلَّمْتُ مَعَ السُّلْطَانِ مَوْلَايَ زَيْدَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي فِدَاءِ رَاهِبٍ
أَسِيرٍ ؛ وَدَفَعَ الْمَالَ فِي فِدَائِهِ ؛ وَذَهَبَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَفَرِحْتُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ
يُثْبِتُ كُلَّ مَنْ يَسْلِمُ مِنَ النَّصَارَى فِي دِينِ الْكُفَّارِ فِي خَفَاءٍ مِنَ النَّاسِ ؛ وَلَوْ
تَحَقَّقَ سَلَاطِينَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ سُوءِ فِعْلِ الْقَسِيسِينَ وَالرُّهْبَانِ ، وَأَنَّهُمْ يَخْتَالُونَ
عَلَى أَكْثَرِ مَنْ يَزِجُ مُسْلِمًا مِنَ النَّصَارَى ، لِيَزْتَدَّ فِي خَفَاءٍ عَنِ دِينِ
الْإِسْلَامِ ؛ وَأَنْ يَكُونَ عَدُوًّا لِلْمُسْلِمِينَ ؛ لَا يَتْرُكُونَ أَبَدًا وَاحِدًا مِنْهُمْ فِي
بِلَادِهِمْ . وَهَذِهِ نَصِيحَةٌ مِنِّي إِلَيْهِمْ ؛ وَمَا قُلْتُ فِيهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ لَا شَكَّ
فِيهِ .

ثُمَّ إِنَّ الرَّاهِبَ الَّذِي جَاءَ مِنَ الْهِنْدِ بَلَغَهُ الْخَبَرُ بِأَنِّي تَكَلَّمْتُ فِي فِدَاءِ
الرَّاهِبِ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ وَانْقَدَا وَمَشَى . وَبَعَثَ لِي كِتَابًا بِالْأَعْجَمِيَّةِ يَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أَكَلِّمَ

السُّلْطَانُ فِي فِدَائِهِ، وَقَرَأْتُ الرِّسَالَةَ؛ وَبَانَ لِي مِمَّا كَتَبَ أَنَّهُ مِنْ أَكْبَارِ عُلَمَائِهِمْ. وَكَانَ فِي أَعْلَى الْبَرَاءَةِ صَلِيبٌ مَكْتُوبٌ كَمَا هِيَ مِنْ عَادَتِهِمْ. فَكَتَبْتُ لَهُ الْجَوَابَ وَقُلْتُ لَهُ: أَنْ يَضْبِرَ حَتَّى نَجِدَ مَفْصَلًا لِلْكَلامِ مَعَ السُّلْطَانِ؛ وَلَمَّا أَنَّهُ صَدَرَ فِي أَعْلَى كِتَابِهِ الشُّرْكَ بِصُورَةِ الصَّلِيبِ الَّذِي يَعْْبُدُونَهُ؛ كَتَبْتُ أَنَا فِي أَعْلَى الْكِتَابِ تَوْحِيدَ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ ضِدَّ الشُّرْكَ؛ وَكَتَبْتُ بِالْأَعْجَمِيَّةِ: بِسْمِ اللَّهِ الْوَاحِدِ فِي ذَاتِهِ، وَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ، وَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ.

وَبَعْدَ أَنْ قَرَأَ الْجَوَابَ كَتَبَ لِي بَرَاءَةً ثَانِيَةً؛ وَذَكَرَ فِيهَا كَلَامًا عَنْ الذَّاتِ الْكَرِيمَةِ وَالصُّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ؛ مُوَافِقًا لِتَوْحِيدِ الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى هَيْئَتِهِ أَوْ عَلَى مِثَالِهِ. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ ابْتِدَاءُ شُرْكِهِمْ، لِأَنَّ مُرَادَهُمْ بِالشَّيْبِ أَنْ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ أَضَلُّ فِي تِلْكَ الْخِلْقَةِ لِلْأَلُوْهِيَّةِ الَّتِي يَقُولُونَ فِيهِ - لَعْنَهُمُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُمْ!.

ثُمَّ كَتَبْتُ لَهُ الْجَوَابَ عَلَى الْكُفْرِ الَّذِي ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ؛ وَقُلْتُ لَهُ: اللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الشَّيْبِ وَالْمِثَالِ؛ وَبُزْهَانٌ ذَلِكَ أَنَّ أَبَانَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا شَيْءَ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ فَلَا يُشَبَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ. أَمَّا ذَاتُ الْإِنْسَانِ فَهِيَ حَادِثَةٌ؛ وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدِيمٌ وَالْإِنْسَانُ فَإِنْ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى بَاقٍ عَلَى الدَّوَامِ؛ وَالْإِنْسَانُ مُفْتَقِرٌ أَبَدًا إِلَى الْمَحَلِّ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْهُ وَقَائِمٌ بِنَفْسِهِ؛ وَالْإِنْسَانُ مُفْتَقِرٌ أَبَدًا وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْغَنِيُّ؛ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَلَهُ صِفَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ لِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَاإِنْسَانٌ لَهُ سَمْعٌ وَبَصَرٌ، وَكَلَامٌ وَقُدْرَةٌ حَادِثَةٌ وَعِلْمٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الصُّفَاتِ. أَمَّا السَّمْعُ فَيَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مَا هُوَ قَرِيبًا مِنْهُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ فِي حِينٍ وَاحِدٍ فَلَا يَفْهَمُ مَا يَقُولُونَ إِلَّا أَنْ يَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ وَخَدَهُ؛ وَيَكُونُ الْكَلَامُ بِاللُّغَةِ الَّتِي يَعْرِفُ هُوَ؛ وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَسْمَعُ الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ، وَمَا تَقُولُهُ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ بِلِسَانِ الْمَقَالِ وَلِسَانِ الْحَالِ، وَمَا فِي الضَّمَائِرِ فِي حِينٍ وَاحِدٍ؛ وَلَا يُشْغِلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ.

وَأَمَّا الْبَصَرُ فَلَا إِنْسَانٌ يُبْصِرُ الْقَرِيبَ بِشُرُوطٍ مِثْلَ الضُّوءِ، وَأَنْ لَا يَكُونَ حَائِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ. وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَرَى الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ، وَمَا تَخْتِ الثَّرَى، وَمَا فِي دَاخِلِ الْأَرْحَامِ. وَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَلَا يَعْلَمُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا؛ وَاللَّهُ تَعَالَى أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا. وَكَذَلِكَ سَائِرُ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، كُلُّهَا نَاقِصَةٌ مَحْدُودَةٌ عَاجِزَةٌ قَانِيَةٌ؛ كُلُّهَا مُخْتَلِفَةٌ لِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا فِعْلُ الْإِنْسَانِ فَلَا يَخْرُجُ عَنْ عَادَتِهِ فِي الْأَعْمَالِ إِلَّا نَادِرًا، حَتَّى إِنْ الْخَطُّ الَّذِي يَكْتُبُ يَكُونُ مَعْرُوفًا لَهُ حَتَّى يَشْهَدَ النَّاسُ وَيَقُولُونَ^(١): هَذَا خَطُّ فُلَانٍ؛ وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْعَمَالَاتِ وَالصَّنَائِعِ. وَانْظُرْ وَتَأَمَّلْ فِي أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى الْخَالِقِ الْعَظِيمِ؛ إِنْ جَمِيعَ مَخْلُوقَاتِهِ لَا يُشَبِّهُ أَحَدًا أَحَدًا؛ وَلَوْ اجْتَمَعَ كُلُّ مَنْ خَلَقَ مِنْ بَنِي آدَمَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يَخْلُقُ، فَلَا يُشَبِّهُ إِنْسَانًا آخَرَ غَيْرَهُ، وَإِذَا شَبَّهَهُ فِي بَعْضِ الْأَعْضَاءِ لَا بُدَّ أَنْ يَخْتَلِفَ عَنْ غَيْرِهِ فِي شَيْءٍ؛ إِمَّا فِي الصَّوْتِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ؛ لَا شَبِيهَ لَهُ.

وَنَزِيدُ فِي هَذَا الْمَعْنَى شَيْئًا؛ وَلَا تَذَكَّرْتُ هَلْ كَتَبْتُهُ فِي الْبَرَاءَةِ أَمْ لَا؟ وَهُوَ أَنَّ [الْإِنْسَانَ]^(٢) إِذَا دَخَلَ فِي غَايَةِ أَشْجَارٍ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ، مِثْلَ الصَّنَوْبَرِ أَوْ قَسْطَلٍ أَوْ بَلُوطٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ وَيَنْظُرُ فِي الْأَشْجَارِ فَيَرَى كُلَّ شَجَرَةٍ مُخْتَلِفَةً عَنْ جَمِيعِهَا فِي الطُّوْلِ أَوْ الْعَرْضِ أَوْ بَعْضِ الْأَغْصَانِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. وَهَذَا ظَاهِرٌ لِلْعَيْنِ؛ دَلٌّ هَذَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا نِهَايَةَ وَلَا حَدَّ لَهُ فِي عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَجَمِيعِ صِفَاتِهِ.

وَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَبِخِلَافِ ذَلِكَ فِي فِعْلِهِ وَعَمَلِهِ. وَقَدْ رَأَيْتُ يَوْمًا رَجُلًا اشْتَرَى بَعْضَ الصَّبَابِطِ أَوْ رَوَاجِي صِغَارًا لِصَبْيَانِهِ؛ وَفِي الزُّنْفَةِ التَّمْيِ بِمُعَلِّمِ خَرَّازٍ؛ قَالَ لَهُ: هَذِهِ الصَّبَابِطُ مِنْ دُكَانِي؟ قَالَ لَهُ: وَكَمْ مِنْ حَوَانِيتِ فِي مَرَاكُشٍ عَامِرَةٍ بِمِثْلِ هَذَا! قَالَ الْخَرَّازُ: لَوْ كَانَ شُعْلِي بَيْنَ مَائَةِ مِثْلِهِ أَغْرِفُهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: وَتَقُولُ.

(٢) زِيَادَةٌ لَمْ تَرِدْ فِي الْأَصْلِ، وَقَدْ اقْتَضَاهَا السِّيَاقُ.

وَقَالَ رَجُلٌ فَخَّارٌ: كُنَّا نَخْدُمُ نَحْوَ الثَّمَانِيَةِ مِنَ الصُّنَّاعِ فِي عَمَلِ الْقِلَلِ أَوْ قُدُورٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاعِينِ مِنْ عَجَنَةٍ وَاحِدَةٍ، لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الطِّينُ وَالْمَاءُ. وَالْمَوَاعِينِ عَلَى مِقْدَارٍ وَاحِدٍ؛ وَبَعْدَ الْعَمَلِ؟ فَتَعْرِفُ وَنُمَيِّزُ شُغْلَ كُلِّ وَاحِدٍ، وَمَنْ هُوَ الَّذِي عَمَلَهُ مِنَ الصُّنَّاعِ. وَهَذَا مِنْ جُمْلَةٍ مَا ذَكَّرْنَا مِنْ حَطِّ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يُعْرِفُ كَاتِبَهُ.

وَبَعْدَ أَنْ فَرَعْتُ مِنَ الْجَوَابِ لِلرَّاهِبِ، كَتَبْتُ لَهُ سُؤَالَ فِي دِينِهِ - لِمَا عَلِمْتُ مِنْ سُوءِ اغْتِقَادِهِمْ - وَهَذَا مَعْنَاهُ: مَا قَوْلُكُمْ فِي دِينِكُمْ فِي رَجُلٍ زَنَا بِامْرَأَةٍ مُخَصَّنَةٍ وَحَمَلَتْ مِنْهُ وَلَدَتْ، وَزَوْجُ الْمَرْأَةِ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْمَوْلُودَ كَانَ ابْنَهُ حَتَّى كَبُرَ زَوْجُهُ وَأَعْطَاهُ حَطًّا مِنْ مَالِهِ؛ وَاشْتَكَى يَوْمَ الْحِسَابِ لَهِىَ سُبْحَانَهُ مِنْ زَوْجَتِهِ، وَمِمَّنْ زَنَى بِهَا وَالْمَالُ الَّذِي أَنْفَقَ وَأَعْطَى لِابْنِ الَّذِي زَنَى بِهَا؛ فَأُخْضِرَ الرَّائِي وَالزَّائِنَةُ، وَقِيلَ لَهُمَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: أَنَا ذَكَّرْتُ ذَنْبِي لِلْقَسِيسِ الْفُلَانِي وَعَفَّرَ لِي؛ وَقَالَ الرَّائِي: إِنَّهُ ذَكَرَ ذَنْبَهُ لِقَسِيسٍ فِي الدُّنْيَا وَعَفَّرَ لَهُ ذَنْبَهُ. وَالسُّؤَالُ مِنْكُمْ - أَيُّهَا الرَّاهِبُ الْعَالِمُ فِي دِينِهِ - هَلْ بَقِيَ لِلرَّجُلِ الْمَظْلُومِ مَا يَطْلُبُ أَمْ لَا؟

وَكَتَبَ الْجَوَابَ وَقَالَ: لَيْسَ لِلرَّجُلِ مَا يَطْلُبُ مِنْ زَوْجَتِهِ وَلَا مِمَّنْ زَنَى بِهَا بَعْدَ اسْتِفْرَاحِهِمَا فِي الدُّنْيَا لِلْقَسِيسِ مِنَ الذُّنُوبِ لِأَنَّهُ عَفَّرَ لَهُمَا؛ وَلَمْ يَبْقَ لِلزَّوْجِ حَقٌّ عَلَيْهِمَا؛ انْتَهَى.

فَانْظُرْ هَذَا الْاِغْتِقَادَ الْفَاسِدَ الَّذِي عِنْدَهُمْ فِي دِينِهِمْ؛ الْأَضْلَ فِيهِ يَقُولُونَ بِاللَّوْهِيَّةِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّ الْبَابَا خَلِيفَتَهُ وَجَمِيعَ أَيْمَةِ دِينِهِمْ كُلِّ وَاحِدٍ خَلِيفَةُ الْبَابَا. وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ فِي كُلِّ عَامٍ، فِي أَيَّامِ صِيَامِهِمْ، أَنْ يَمْشِيَ كُلُّ مَنْ هُوَ بَالِغٌ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى إِلَى الْكَنِيسَةِ؛ وَيَذْكُرُ لِلْقَسِيسِ جَمِيعَ ذُنُوبِهِ، وَيُعْطِيهِ بَرَاءَةً بِالْمَغْفِرَةِ وَيَأْخُذُ الدَّرَاهِمَ عَلَيْهَا، حِينَئِذٍ يَذْهَبُ مَغْفُورًا لَهُ. وَفِي سَائِرِ الْأَيَّامِ، إِذَا كَانَ مَرِيضًا يَمْشِي إِلَيْهِ الْقَسِيسُ إِلَى بَيْتِهِ وَيَغْفِرُ لَهُ وَيَأْخُذُ أُجْرَتَهُ دَرَاهِمًا. وَقَدْ طَالَعْتُ كِتَابَ التَّرْجُمَانِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَقَالَ فِي الْقَاعِدَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ كِتَابِهِ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى، وَذَكَرَ مِثْلَ هَذَا.

وَأَنِّي أُعْطِيتُ دَرَاهِمَ سِنِينَ عَدِيدَةً فِي بَرَائَاتٍ^(١) الْغُفْرَانَ مُعْتَقِدًا فِي كُفْرِهِمْ، وَلَكِنْ كَانُوا يَطْلُبُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بَرَائَتَهُ بَعْدَ أَيَّامِ الصَّيَامِ مَكْتُوبٌ فِيهَا أَنْ فَلَانَا اسْتَقَرَّ لِلْقَيْسِ الْفَلَانِي بِذُنُوبِهِ وَأَنَّهُ عَفَرَ لَهُ؛ وَيُعَلِّمُ بَرَائَتَهُ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ الْبَرَائَةُ يُحْكَمُ فِيهِ.

وَأَمَّا رَاهِبٌ مِصْرِي؛ فَكَانَ يَفْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَ عِنْدَهُ الْقَامُوسُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْعَجَمِيَّةِ. وَقَدْ تَقَيَّنَتْ بِهِ مِنْ أَجْلِ كِتَابِ «تَغْدِيلِ الْكَوَاكِبِ»؛ لِنَعْرِفَ مِنْهُ فِي أَيِّ يَوْمٍ تَكُونُ الْوَقْفَةُ بِعَرَفَةِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ الْأَهْلَةِ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَمَلُ بِقَوْلِ الْمُتَجَمِّينَ فِي الْأَهْلَةِ إِلَّا بِالرُّؤْيَةِ لِلْهَلَالِ؛ فَلَا يَضُرُّ النَّظَرُ فِي ذَلِكَ.

وَسَأَلَنِي الرَّاهِبُ عَنْ اغْتِقَادِنَا فِي الْجَنَّةِ: هَلْ فِيهَا أَكْلٌ وَشَرْبٌ؟ قُلْتُ لَهُ: نَعَمْ فِيهَا ذَلِكَ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ كَمَا شَهِدَ بِهِ الْإِنْجِيلُ الَّذِي عِنْدَكُمْ. لِأَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِتِلَامِذَتِهِ: «إِنِّي لَا أَشْرَبُ مِنْ عَصِيرِ هَذِهِ الْكَرْمَةِ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي أَشْرَبُهُ مَعَكُمْ فِي مَلَكُوتِ أَبِي». وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي الْإِنْجِيلِ: «مَلَكُوتِ اللَّهِ». قَالَ الرَّاهِبُ: لَيْسَ ذَلِكَ الْكَلَامُ عَلَى ظَاهِرِهِ! وَأَنْتَ كَرَرْتَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ؛ كَمَا هُوَ فِي اغْتِقَادِهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُ سَيِّدِنَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - «فِي مَلَكُوتِ أَبِي»، فَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَبُوهُ حَقِيقَةً؛ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ؛ كَمَا لِعَیْرِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ عَشْرَةِ مَوَاضِعٍ مِنَ الْإِنْجِيلِ.

الأول: فِي مَعْنَى الْعِبَادَةِ فِي شَهَادَةِ مَتَّى الَّذِي كَتَبَ رُبْعَ الْإِنْجِيلِ.

قَالَ فِي الْفَضْلِ السَّادِسِ: إِنَّ إِبْلِيسَ جَاءَ إِلَى سَيِّدِنَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَالَ لَهُ: هَذَا الْعَالَمُ وَمَجْدُهُ أُعْطِيَ لَكَ إِنْ سَجَدْتَ لِي؛ قَالَ لَهُ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «أَذْهَبْ يَا شَيْطَانُ؛ لِلرَّبِّ إِلَهِكَ أَسْجُدُ وَلَهُ وَخَدَهُ أَغْبُدُ» انْتَهَى. الْبُرْهَانُ فِي هَذَا الْقَوْلِ: إِنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ وَخَدَهُ، وَإِنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يَعْبُدُهُ؛ إِذْ هُوَ لَيْسَ بِإِلَهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: بِرَوَاتٍ.

وَأَمَّا مَا قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبُو الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ جُمْلَتِهِمْ سَيِّدُنَا عِيسَى؛ مِنْهَا فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ لِمَتَّى قَالَ: قَالَ سَيِّدُنَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «طُوبَى لِلنَّقِيَّةِ قُلُوبُهُمْ يُعَايُنُونَ اللَّهَ، طُوبَى لِصَانِعِي السَّلَامَةِ، فَإِنَّهُمْ يُدْعَوْنَ أَبْنَاءَ اللَّهِ». ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ آخَرَ: «هَكَذَا فليُضِيءَ نُورُكُمْ قُدَّامِ النَّاسِ لِيَرُوا أَعْمَالَكُمْ الصَّالِحَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاءِ».

وَأَقُولُ هَذِهِ التَّرْجَمَةَ وَعِبَارَتُهَا هِيَ مِنْ إِنْجِيلِ مَكْتُوبِ بِالْعَرَبِيَّةِ، كَانَ عِنْدَ الْقَسِيسِ الَّذِي وَقَعَ لِي الْكَلَامُ مَعَهُ بِمَضَرٍ كَتَبْتُ مِنْهُ كَمَا كَانَ. وَالْمَطْلُوبُ هُوَ الْمَعْنَى.

الْفَصْلُ التَّاسِعُ: أَحْسِنُوا إِلَى مَنْ أَبْغَضَكُمْ، وَصَلُّوا مَنْ يَطْرُدُكُمْ وَيَغْتَصِبُكُمْ، لِكَيْمَا تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَوَاتِ الَّذِي يُشْرِقُ شَمْسُهُ عَلَى الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ، وَيُمْطِرُ عَلَى الصَّادِقِينَ وَالظَّالِمِينَ.

وَقَالَ أَيْضًا: كُونُوا أَنْتُمْ مِثْلَ أَبِيكُمْ السَّمَائِيِّ فَهُوَ كَامِلٌ.

وَقَالَ أَيْضًا وَصِيَّاتٍ وَفِي آخِرِهَا: أَبُوكَ الَّذِي يَرَى مَا فِي الْخَفَاءِ يَجْزِيكَ عِلَاقَةً.

الْفَصْلُ الْعَاشِرُ: صَلِّ لِأَبِيكَ سِرًّا؛ وَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى السِّرَّ يُعْطِيكَ عِلَاقَةً.

وَقَالَ أَيْضًا: لِأَنَّ أَبَاكُمْ عَالِمٌ بِمَا تَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوهُ.

وَقَالَ أَيْضًا: فَهَكَذَا تَصِلُونَ أَنْتُمْ؛ أَبُونَا الَّذِي فِي السَّمَوَاتِ لِيَتَقَدَّسَ اسْمُكَ.

وَقَالَ أَيْضًا: فَإِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ خَطَايَاهُمْ، غَفَرَ لَكُمْ أَبُوكُمْ السَّمَاوِيُّ؛ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ خَطَايَاهُمْ، فَلَا أَبُوكُمْ يَغْفِرُ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ.

وَقَالَ: إِذَا صُمَّمْتُمْ فَلَا تَكُونُوا كَالْمُرَابِّينَ؛ لِأَنَّهُمْ يُعْبَسُونَ وَجُوهَهُمْ، وَأَنْتَ اغْسِلْ وَجْهَكَ.

وَقَالَ أَيْضًا: وَصِيَّاتٍ؛ وَلِئَلَّا يَظْهَرَ لِلنَّاسِ صِيَامُكُمْ، لَكِنْ لِأَبِيكَ الَّذِي فِي السِّرِّ وَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى السِّرَّ يُجَازِيكَ عِلَاقَةً.

الْفَضْلُ الثَّانِي عَشَرَ: قَالَ: انظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ وَأَبْوَكُمِ السَّمَاءِ يَقُوتُهَا.

الْفَضْلُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ: قَالَ: «عَضْفُورَانِ يُبَاعَانِ بِفَلْسٍ وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لَا يَنْسُقُ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِزَادَةِ أَبِيكُم؛ وَأَنْتُمْ فَشْعُورُ رُؤُوسِكُمْ كُلُّهَا مُخَصَّاةٌ، فَلَا تَخَافُوا! فَإِنَّكُمْ أَفْضَلُ مِنْ عَصَافِيرٍ كَثِيرَةٍ. كُلُّ مَنْ يَعْرِفُنِي قُدَّامَ النَّاسِ أَعْتَرِفُ أَنَا بِهِ قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاءِ»، انْتَهَى.

قَدْ بَانَ فِي سِتَّةِ عَشَرَ مَوْضِعًا مِمَّا كَتَبْنَا مِنَ الْإِنْجِيلِ، أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَخْتَصِ بِاسْمِهِ: «ابْنُ اللَّهِ» مِنْ دُونِ النَّاسِ، لِأَنَّهُ كَانَ مَخْلُوقًا مِثْلَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَبٌ؛ كَمَا كَانَتْ أُمُّنَا حَوَاءُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهَا أُمٌّ.

ثُمَّ أَخَذَ الرَّاهِبُ فِي ذِكْرِ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ فِيهِ: إِنَّهُ إِلَهٌ وَابْنُ اللَّهِ حَقِيقَةً، تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِ!.

وَجِئْتُ إِلَى الدَّارِ؛ وَتِلْكَ اللَّيْلَةُ قِيلَ لِي فِي النَّوْمِ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾^(١)، وَفُقْتُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَفَهِمْتُ أَنَّ الْقَوْلَ كَانَ عَلَى مَا قَالَ الرَّاهِبُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، مِنْ أَلُوْهِيَّةِ سَيِّدَنَا عِيسَى. وَانْظُرْ مَا فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(٢).

ثُمَّ مَشَيْتُ عِنْدَهُ بَعْدَ الصُّبْحِ؛ وَتَقَوَّى عَزَمِي مِنْ أَجْلِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَأَخَذْنَا فِي الْكَلَامِ.

وَقُلْتُ لَهُ: نَحْنُ فِي دِينِنَا، وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ، وَجَمِيعُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، لَمْ تَذْكُرْ إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا، وَأَنْتُمْ تَذْكُرُونَ ثَلَاثَةً.

قَالَ: أَيْضًا نَقُولُ وَاحِدًا!.

قُلْتُ لَهُ: هَذَا الْوَاحِدُ اتَّفَقْنَا فِيهِ لَا خِلَافَ بَيْنَنَا.

قَالَ: نَعَمْ!.

قُلْتُ: مَنْ هُمَا الْاِثْنَانِ اللَّذَانِ فِي الْاُلُوْهِيَّةِ؟ اذْكُرْ لِي وَاحِدًا مِنْهُمَا! وَأَنَا أَغْرِفُ مَاذَا يُجَاوِبُ بِهِ.

قَالَ: سَيِّدُنَا عِيسَى!.

قُلْتُ لَهُ: الْإِلَٰهَ يَجْهَلُ شَيْئًا؟

قَالَ: لَا!.

قُلْتُ: هِيَ صِفَةُ الْعِلْمِ فِي الْاُلُوْهِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةُ بِكُلِّ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ؟

قَالَ: نَعَمْ!.

قُلْتُ: قَالَ فِي الْإِنْجِيلِ: إِنَّ أَرْبَعَةً أَوْ خَمْسَةً مِنْ تَلَامِيذِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَوْا إِلَيْهِ فِي جَبَلِ الزَّيْتُونِ؛ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ يَفْتَنُ، قَالُوا: «أَعْلِمْنَا عَلَى وَجْهِ السَّرِّ مَتَى يَكُونُ انْقِضَاءُ الْعَالَمِ؟

قَالَ لَهُمْ: أَمَّا هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فَلَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ، حَتَّى مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ».

قُلْتُ: هَكَذَا هُوَ؟

قَالَ: نَعَمْ!.

قُلْتُ: قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ الْإِلَٰهَ لَا يَجْهَلُ شَيْئًا. وَهَذَا بُرْهَانٌ قَطْعِيٌّ وَبَاطِنٌ أَنَّهُ لَيْسَ بِالْإِلَٰهِ، وَبِهَذَا تَبَيَّنَ وَاتَّضَحَ أَنَّ أَحَدَ الْاِثْنَيْنِ اللَّذَيْنِ رِذَتْ لِلْوَاحِدِ ذَهَبَ. وَذَكَرَ الْمَلَائِكَةُ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْعِلْمِ، أَنَّهُمْ أَغْلَامٌ مِنْهُ. وَبَقِيَ لَنَا وَاحِدٌ مِنَ الْاِثْنَيْنِ، مَنْ هُوَ؟

قَالَ: هُوَ الرُّوحُ الْقُدُسِ.

قُلْتُ: هَذَا رُوحُ الْقُدُسِ هُوَ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْإِنْجِيلِ إِنَّهُ الْبَارَقْلِيْطُ؟

قَالَ: نَعَمْ هُوَ ذَلِكَ!.

قُلْتُ لَهُ: قَالَ سَيِّدُنَا عِيسَى: «إِذَا جَاءَ الْبَارَقْلِيْطُ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لِأَنَّهُ لَيْسَ يَنْطِقُ مِنْ عِنْدِهِ، بَلْ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ وَيُخْبِرُكُمْ بِمَا يَأْتِي».

قُلْتُ لَهُ: هَكَذَا هُوَ فِي الْإِنْجِيلِ؟

قَالَ: نَعَمْ!.

قُلْتُ لَهُ: الْإِلَهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِمَا يَسْمَعُ، بَلْ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ؛ وَالَّذِي يَتَكَلَّمُ بِمَا يَسْمَعُ فَهُوَ نَبِيٌّ يَتَكَلَّمُ بِمَا يَسْمَعُ مِنْ جَانِبِ الْحَقِّ تَعَالَى؛ فَهَذَا أَيْضًا ذَهَبَ بِالْبُرْهَانِ. لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْوَاحِدُ الَّذِي لَا يَزُولُ.

فَخَرَسَ الرَّاهِبُ، وَقَالَ: الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ قَالُوا وَأَخْبَرُوا بِهِ - أَغْنَى سَيِّدَنَا عِيسَى.

قُلْتُ: لَمْ تَقُلِ الْأَنْبِيَاءُ ذَلِكَ!.

وَإِذَا قَالُوا: ابْنُ اللَّهِ؛ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا، وَعَمِلَ صَالِحًا كَانَ يُسَمَّى بَابْنِ اللَّهِ. وَقَالَ أَيْضًا فِي التَّوْرَةِ: إِنَّ الصُّلَحَاءَ هُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى. وَالنَّصُّ فِيْمَا ذَكَرْنَا أَنَّ تَلَامِيذَهُ سَأَلُوا سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ مَتَّى فِي الْبَابِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ: قَالَ سَيِّدَنَا عِيسَى: «فَإَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالسَّاعَةَ فَلَا يَعْرِفُهَا أَحَدٌ وَلَا الْمَلَائِكَةُ [الَّتِي فِي]»^(١) السَّمَوَاتِ إِلَّا الْأَبُ وَخَدَهُ». وَهَذَا إِفْرَازٌ مِنْ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَعْلَمُ مِنْهُ.

وَقَالَ مَرْكُشٌ فِي الْبَابِ الثَّالِثِ عَشَرَ، وَالْمَقَالَةَ اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ: سَأَلَ مَرْكُشٌ وَبِذْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَجُوانَ وَأَنْدَرَسَ سَيِّدَنَا عِيسَى، فِي جَبَلِ الزُّيْتُونِ، فِي خَفَاءٍ مِنَ النَّاسِ، عَنِ السَّاعَةِ مَتَّى تَكُونُ؟ قَالَ: «فَإَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلَا يَعْرِفُهَا أَحَدٌ، وَلَا الْمَلَائِكَةُ الَّتِي فِي السَّمَاءِ، وَلَا الْابْنُ إِلَّا الْأَبُ وَخَدَهُ». وَهَذَا بُرْهَانٌ الَّذِي قُلْتُ لِلرَّاهِبِ أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَيْسَ بِإِلَهِ كَمَا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَعْلَمُ مِنْهُ حَيْثُ قَالَ: «وَلَا الْمَلَائِكَةُ»، عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ.

وَأَيْضًا فِي الْإِنْجِيلِ؛ مَا يُنْسَبُ لِمَا قُلْتُ لِلرَّاهِبِ، أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْسَانٌ وَلَيْسَ بِإِلَهِ، قَالَ فِي الْفَضْلِ السَّابِعِ وَالسَّتِينَ لِمَتَّى: إِنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى

(١) زيادة لم ترد في الأصل.

عَلَيْهِ السَّلَامَ كَانَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَاعَ، وَنَظَرَ شَجَرَةً تَيْنِ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَاءَ إِلَيْهَا، فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا شَيْئًا، إِلَّا وَرَقًا. فَقَالَ لَهَا: لَا تَخْرُجْ مِنْكَ ثَمَرَةً إِلَى الْأَبَدِ، فَيَسِتَ تِلْكَ الشَّجَرَةُ لِلْوَقْتِ؛ فَلَوْ كَانَ إِلَهًا - كَمَا تَعْتَقِدُ الْكُفَّارُ أَنَّهُ إِنْسَانٌ وَإِلَهٌ - فَلَوْ كَانَ إِلَهًا لَعَلِمَ مِنْ مَوْضِعِهِ أَنَّ الْكَرْمَةَ لَيْسَ فِيهَا تَيْنٌ؛ أَلَيْسَ هَذَا بُرْهَانٌ أَنَّهُ إِنْسَانٌ مَقْهُورٌ يَجْهَلُ الْغَيْبَ وَلَا يُبْصِرُ إِلَّا الظَّاهِرَ فَقَطْ؟

وَأَيْضًا فِي الْإِنْجِيلِ إِنَّهُ كَانَ يَسْأَلُ عَنْ قَبْرِ لِعَازَرِ حَتَّى حَمَلُوهُ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا ذَكَرَ الْبَارَقْلَيْطُ فَهُوَ فِيمَا كَتَبَ يُوحَنَّا فِي الْفَضْلِ الثَّلَاثِ وَالْثَلَاثِينَ، وَخَمْسِ وَثَلَاثِينَ، قَالَ: «فَإِذَا جَاءَ رُوحَ الْحَقِّ ذَاكَ فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ جَمِيعَ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَنْطِقُ مِنْ عِنْدِهِ، بَلْ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ وَيُخْبِرُكُمْ بِمَا يَأْتِي، وَهُوَ يُمَجِّدُنِي لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا هُوَ لِي وَيُخْبِرُكُمْ».

وَقَدْ سَأَلْتُ الرَّاهِبَ: مَا مَعْنَى الْبَارَقْلَيْطِ؟

قَالَ: هُوَ اسْمُ يُونَانِي، وَمَعْنَاهُ: الشَّفِيعُ بِالْعَرَبِيَّةِ. فَهَذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ مِنْ ذَاتِهِ، بَلْ يَتَكَلَّمُ فِي أُمُورِ الدِّينِ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ مِنَ الْوَحْيِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا مَعْنَى مَا قَالَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْحَوَارِيِّينَ: «يُعَلِّمُكُمْ جَمِيعَ الْحَقِّ، وَيُخْبِرُكُمْ»؛ فَتَقُولُ النَّصَارَى: إِنَّهُ جَاءَ إِلَيْهِمْ؛ وَبِذَلِكَ قَالَ لِي قِسْيُسُ بِمَدِينَةِ بَرِيشَ حِينَ قُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْبَارَقْلَيْطَ شَخْصٌ يَتَكَلَّمُ، وَإِنَّهُ نَبِيُنَا ﷺ؛ وَالصَّحِيحُ أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ كَانَ يَتَكَلَّمُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ الْكَلَامُ مَعَهُمْ فَقَطْ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ مَا يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، بِقَوْلِهِ: إِذَا رَأَيْتُمْ كَذًا وَكَذَا، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُمْ لَا يَعِيشُونَ لِآخِرِ الزَّمَانِ. وَالْبُرْهَانُ فِي ذَلِكَ، قَالَ مَتَّى فِي الْفَضْلِ الثَّامِنِ وَالسَّبْعِينَ: فَجَاءَ إِلَيْهِ تَلَامِيذُهُ فِي خَلْوَةٍ قَائِلِينَ: قُلْ لَنَا مَتَى يَكُونُ هَذَا؟ وَمَا عَلَامَةُ مَجِيئِهِ وَانْقِضَاءِ الزَّمَانِ؟ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «انْظُرُوا لَا يَضِلُّكُمْ أَحَدٌ؛ كَثِيرٌ يَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ: أَنَا هُوَ الْمَسِيحُ، وَيَضِلُّونَ كَثِيرًا. فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِالْحُرُوبِ وَأَخْبَارِ الْحُرُوبِ انْظُرُوا! لَا تَفْلَقُوا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ». ثُمَّ

قَالَ: «فَإِذَا رَأَيْتُمْ رَذَلَةَ الْخَرَابِ الَّذِي قَبِلَ فِي ذَاتِنَالِ النَّبِيِّ قَائِمًا فِي الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ»؛ فَلْيَفْهَمِ الْقَارِئُ، وَالْكَلَامُ كَثِيرٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَهُوَ مِنْ عِلَامَاتِ الْقِيَامَةِ. وَكَانَ الْخِطَابُ لَهُمْ. وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ عَلَى الْبَارَقْلَيْطِ مَعَهُمْ بِأَنْ قَالَ: «يَأْتِيَكُمْ»؛ وَالْمَفْهُومُ: بَعْدَهُمْ، كَمَا ذَكَرَ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «كَثِيرٌ يَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ أَنَا هُوَ الْمَسِيحُ وَيَضِلُّونَ كَثِيرًا»، فَهَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ - هُمُ الْبَابَا؛ لِأَنَّهُمْ يَضِلُّونَ النَّاسَ، بِأَنْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ وَيَعْبُدُوا الْخُبَزَ وَالْخَمْرَ وَالْآلَتِ الصُّلَيْبِ وَالْأَنَامِ. وَسَيَدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، تَقَدَّمَ لَنَا؛ حِينَ جَاءَ إِلَيْهِ إِبْلِيسُ وَقَالَ لَهُ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ؛ قَالَ سَيَدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَكْتُوبٌ، هُوَ الْإِلَهِ وَخَذَهُ نَعْبُدُ وَإِلَيْهِ نَسْجُدُ». وَتَقَدَّمَ أَنِّي سَأَلْتُ الرَّاهِبَ: مَا مَعْنَى الْبَارَقْلَيْطِ؟ قَالَ: هُوَ اسْمُ يُونَانِي؛ وَمَعْنَاهُ بِالْعَرَبِيَّةِ: الشَّفِيعُ. وَهَذَا شَخْصٌ مَخْلُوقٌ يَشْفَعُ فِي الْمُذْنِبِينَ وَالْإِلَهِ كَيْفَ يَشْفَعُ؟ أَوْ مِمَّنْ يَطْلُبُ وَيَرْغَبُ؟ وَقَالَ يُوْحَنَّا فِي الْفَضْلِ الثَّالِثِ وَالْأَرْبَعِينَ: قَالَ سَيَدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِامْرَأَةٍ اسْمُهَا مَرْيَمَ مَضَالِيْن - وَلَيْسَتْ بِأُمِّ سَيَدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «امْضِي إِلَى إِخْوَانِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي صَاعِدٌ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَالْإِلَهِ وَاللَّهُكُمْ»، انْتَهَى. فَهَذَا كَلَامُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ بَيِّنٌ كَالشَّمْسِ بِغَيْرِ غَمَامٍ أَنَّهُ إِنْسَانٌ حَقِيقَةٌ، إِذْ قَالَ: «أَبِي وَأَبِيكُمْ وَالْإِلَهِ وَاللَّهُكُمْ»، انْتَهَى.

اعْلَمْ أَنَّ النَّصَارَى أَخَذُوا كُفْرَهُمْ وَشِرْكَهُمْ مِمَّا كَتَبَ يُوْحَنَّا الْمُنْجِيلِي؛ مِمَّا شَهِدَ فِي ابْتِدَاءِ كَلَامِهِ وَخُطْبَتِهِ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ؛ قَالَ: «الْبِدْءُ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْكَلِمَةُ، كَانَ هَذَا قَدِيمًا عِنْدَ اللَّهِ، كُلُّهُ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ، وَبِهِ كَانَتْ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ هِيَ نُورُ النَّاسِ، وَالنُّورُ أَضَاءٌ فِي الظُّلْمَةِ، وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ»، انْتَهَى.

هَذَا هُوَ الْأَسَاسُ إِلَى شِرْكِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ الْكَلِمَةَ إِلَهًا. وَقَالَ الْعَلَامَةُ الْإِسْكَنْدَرُ أَحْمَدُ الْفِيلَسُوفِي الدَّرِيُونِي^(١) فِي تَأْلِيْفِهِ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى: «كَلَامُ

(١) هكذا في الأصل، ولعله أراد أحمد الدريني الدميري المتوفى سنة ٦٩٧ هـ.

الله لَا يَنْحَصِرُ صِدْقُهُ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَطْ؛ بَلْ يَصْدُقُ عَلَى كَثِيرٍ؛ وَهُوَ مُوَافِقٌ بِآيَةِ كَرِيمَةٍ: ﴿يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(١)؛ وَلَيْسَ كَلَامُ الله عَيْنَ ذَاتِهِ اللهُ؛ إِذْ الْكَلَامُ غَيْرُ الْمُتَكَلِّمِ، لِأَنَّهُ شَبِيهُ الْكَلَامِ بِالْبَذْرِ وَالْمُتَكَلِّمِ بِالْحَرَاثِ.

فَإِذَنْ لَوْ كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَهًا عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهِ كَلَامُ اللهِ؛ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا أَصْدَقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ أَيْضًا إِلَهًا؟ فَحِينَئِذٍ لَزِمَ إِلَهَاتٌ مُتَعَدَّةٌ قَالَالْأَزْمُ بَاطِلٌ بِالْبِدَاهَةِ، وَالْمَلْزُومُ مِثْلُهُ. وَهُوَ مُوَافِقٌ بِآيَةِ كَرِيمَةٍ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٢)، انْتَهَى.

وَقَالَ لِي بِمَرَأَشْ شَيْخُنَا الْخَيْرُ الْإِمَامُ الْفَقِيه، سَيِّدِي أَحْمَدُ بْنُ الْحَاجِّ أَحْمَدُ التَّوَاتِي: إِنَّ فِقِيهًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ أَسِيرًا عِنْدَ كَافِرٍ نَضْرَانِي يَفْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ وَقَالَ لِلْمُسْلِمِ: عِنْدَكُمْ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ عِيسَى هُوَ رُوحٌ مِنَ اللهِ؛ وَأَتَى بِآيَةٍ قَالَ: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(٣)، وَعَزَمَ أَنَّهُ يَنْتَقِمُ مِنَ الْمُسْلِمِ إِذَا لَمْ يَأْتِ بِحُجَّةٍ تَفْكُهُ مِنْ يَدِهِ. قَالَ الْفَقِيه: إِنْ شَاءَ اللهُ بِالْقُرْآنِ الْعَزِيزِ نَنْجُوا مِنْهُ. فَتَوَضَّأَ، وَقَرَأَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾^(٤) فَفَرِحَ بِذَلِكَ؛ وَقَالَ لِلْكَافِرِ: اسْمَعْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ، وَقَرَأَ الْآيَةَ؛ وَقَالَ: هَذِهِ الْآيَةُ مِثْلُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾؛ فَكَمَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، خَلَقَ سَيِّدُنَا عِيسَى. وَلَمَّا رَأَى النُّضْرَانِي الْحَقَّ تَرَكَ الْمُسْلِمَ مِمَّا عَزَمَ عَلَيْهِ. وَلَوْ ذَكَرَ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٥)؛ وَكَذَلِكَ: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^(٦)؛ فَكَانَ يَنْجُو مِنَ الْكَافِرِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ النُّضْرَانِي فَتَّشُوا عَنْ بَرَهَانِ التَّثْلِيثِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ؛ وَلَا وَجْدُوهُ، لِأَنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا. وَقَالُوا: لَيْسَ لَنَا إِلَّا الْإِيمَانُ بِذَلِكَ، وَيَخْصُلُ بِهِ الْأَجْرُ. وَهِيَ قَاعِدَةٌ فِي دِينِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا فِي الْكَنِيسَةِ الْكُبْرَى الَّتِي بِرُومَةٍ؛ وَهِيَ عَامِرَةٌ

(١) سورة غافر، آية: ١٥.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٢٢.

(٣) سورة النساء، آية: ١٧.

(٤) سورة الجاثية، آية: ١٣.

(٥) سورة ص، آية: ٧٢.

(٦) في الأصل: وأيده. سورة المجادلة، آية: ٢٢.

بِالْأَصْنَامِ وَالصُّلْبَانِ؛ وَهِيَ الْبَابُ الْكَبِيرُ لِلدُّخُولِ فِي النَّيْرَانِ، يَقُودُهُمْ إِلَيْهَا وَلِيَهُمُ
الشَّيْطَانُ؛ لَعَنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿فَنَجْعَلَ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى
الْكَافِرِينَ﴾^(١).

(١) سورة آل عمران، آية: ٦١.

البَابُ الثَّالِثُ عَشَرَ

فِي ذِكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ مِنْ فَضْلِهِ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ
وغيرها مِنَ الْبِلَادِ

اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّ هَذَا الْبَابَ تَوَقَّفْتُ فِيهِ مِنْ وُجُوهِ. وَكُنْتُ
تَتَرَدَّدُ فِيهِ، بِمَا نَعَرِفُ فِي نَفْسِي مِنَ التَّقْصِيرِ وَالْجَهْلِ وَالذُّنُوبِ - نَسْأَلُ اللَّهَ
الْمَغْفِرَةَ وَالسَّعَادَةَ - وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيَّ، مِنْ الْيَقِينِ فِي
الْإِسْلَامِ؛ حَتَّى تَمَنَيْتُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَوْ كَانُوا كَذَلِكَ، فَعَزَمْتُ عَلَى كَتْبِهِ
وَكُنْتُ تَتَرَدَّدُ فِي ذِكْرِ بَعْضِ الْأُمُورِ، لِمَا ذَكَرَ السُّنُوسِيُّ - نَفَعَ اللَّهُ بِهِ - فِي شَرْحِ
الصُّغْرَى فِي التَّوْحِيدِ - فِي بَابِ ذِكْرِ اللَّهِ -: «إِنَّ بَعْضَ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ
الْمُلَاذِمِينَ لِقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَجِدُ تَحْتَ السَّجَادَةِ
دَرَاهِمَ حَتَّى شَهَرَ ذَلِكَ انْقَطَعَ عَنْهُ؛ وَكُنْتُ أَخَافُ أَنِّي إِذَا ذَكَرْتُ أَمْرًا مِمَّا أَنْعَمَ
اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ بِهِ يُعَيِّنِي عَلَى عِبَادَتِهِ يَذْهَبُ عَنِّي؛ حَتَّى رَأَيْتُ لَيْلَةً فِي النَّوْمِ أَنِّي
أَتْلُو آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ إِخْدَاهُنَّ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا يَنْعَمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(١)؛
وَالثَّانِيَّةُ: ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ
يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢). وَالثَّالِثَةُ: ﴿وَحِذِّ بِرَبِّكَ فَضَرْبَ بَرْبٍ
وَلَا تَحْنُتْ﴾^(٣).

(٢) سورة فصلت، آية: ٥٣.

(١) سورة الضحى، آية: ١١.

(٣) سورة ص، آية: ٤٤.

وَفَهِمْتُ مِنَ الْآيَتَيْنِ الْإِبَاحَةَ لِكُتُبِ الْبَابِ، بَلْ الْأَمْرُ بِذَلِكَ، فَلَايَةُ الْآخِرَةِ مَا فَهِمْتُ مَعْنَاهَا؛ وَتَكَلَّمْتُ مَعَ الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ عَلِيِّ الْأَجْهَوْرِيِّ بِذَلِكَ؛ وَقَالَ لِي: حَتَّى الْآيَةِ الْآخِرَةِ هِيَ مِثْلُ الَّتِي قَبْلَهَا بِالْأَمْرِ: أَنْ لَا تَتَوَقَّفُ، وَادْكُرْ، وَاكْتُبْ؛ فَفِي ذَلِكَ خَيْرٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَبَعْدَ أَنْ كَتَبْتُ وَذَكَرْتُ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي تُعَيِّنُنِي عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ؛ فَبَقِيَ الْأَمْرُ أَحْسَنُ مِمَّا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ - اللَّهُ الْمِنَّةَ وَالشُّكْرَ عَلَى نِعَمِهِ وَعَلَى فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ -؛ وَبَعْدَ أَنْ تَكَلَّمْتُ مَعَ الشَّيْخِ أَوْ بِقُرْبِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَوْ فِي اللَّيْلَةِ بِنَفْسِهَا ذَكَرْتُ الْأَمْرَ الَّذِي مَا ذَكَرْتُهُ قَطُّ إِلَّا لِوَاحِدِ مَرَّةٍ؛ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ لِي بَغْضَ الْأَسْرَارِ الرَّبَّائِيَّةِ فِيهِ اللَّيْلَةَ الَّتِي ذَكَرْتُهَا هُنَا بِمَضَرِّ رَأَيْتُ الْمَسْأَلَةَ فِي الْيَقِظَةِ عَلَى عَادَتِهَا. ثُمَّ ذَكَرْتُهَا لِأَخٍ مِنَ الْمُحِبِّينَ فِي اللَّهِ وَلَمْ تَذْهَبْ عَنِّي.

وَهَلْ يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ أَنْ قِرَاءَتِي فِي أَقَلِّ مِنْ يَوْمٍ وَاحِدٍ كَانَ ذَلِكَ هَيْبَةً وَتَوْفِيقًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَذَلِكَ بِبَرَكَاتِ الْأَنْدَلُسِ، كَمَا ذَكَرْنَا فِي الرَّخْلَةِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ يُسَهِّلُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى قَدْرِ حَالِهِمْ إِذْ لَيْسَ لِأَحَدٍ تَيْسِيرٌ فِي الْحَالِ لِيَقْرَأَ فِي الْأَلْوَاحِ وَمَا فِي الْوَرَقِ بِجَمْعٍ فِكْرٍ؛ فَإِذَا قَرَأَ يَخْفَى الْوَرَقُ [...] ^(١) مِنْ مِنْهُ. وَلَمَّا أَنْ جِئْتُ لِأَبِي قُلْتُ [...] قَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ لَهُ: هَذَا [...] فَكُنْتُ أَقْرَأُ الْأَسْمَاءَ الْمَذْكُورَةَ [...] لَهُ الْقَصِيدَةُ، قَالَ لِي: سِرْ عَنِّي [...] وَتَقُولُ إِنَّهَا فِي الْوَرَقِ؟ وَكُنْتُ [...] مِرَارًا، إِنَّ ذَلِكَ حَقٌّ؛ وَلَمْ يَذْهَبْ عَنْهُ الشُّكُّ حَتَّى جَاءَ إِلَى دَارِنَا ابْنِ عَمِّهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَقَالَ لَهُ: قَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَقَدْ كَتَبْتُ السَّبْعَ هَيَاكِلَ فِي وَرَقَةٍ وَجَعَلْتُهَا عَلَيَّ جِزْرًا، رَجَاءَ بَرَكَاتِهَا؛ وَنِمْتُ لَيْلَةً؛ وَعِنْدَ الصُّبْحِ فَتَشْتُ الْوَرَقَةَ فَلَمْ نَجِدْهَا، وَظَنَنْتُ أَنَّهَا وَقَعَتْ مِنِّي فَتَغَيَّرَتْ عَلَيْهَا مِنْ وُجُوهٍ، لِئَلَّا يَجِدَهَا نَضْرَانِي أَوْ يَنْضَرُّ الْمُسْلِمُونَ؛ وَأَيْضًا إِذَا أَصَابَهَا مُسْلِمٌ قَرُبًا يَعْرِفُ خَطِي، وَيَكْثُرُ الْكَلَامُ عَلَيَّ عِنْدَ الْأَنْدَلُسِ. وَلَمَّا أَنْ صَلَّيْتُ الصُّبْحَ أَخَذْتُ فِي الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مُتَضَرِّعًا بِنَبِيِّهِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ

(١) ما ورد بين معقوفتين ساقط في الأصل.

الْحِزْرَ؛ وَكُنْتُ أَقْرَأُ دُعَاءَ كَانَ الْوَالِدَانِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ يَحْفَظَانِي، فَلَمْ نُنْتَمِ بِالْقِرَاءَةِ،
وَالْوَرَقَةَ [...] كَانَتْ نَزَلَتْ فِي كَفِّي فَفَرَحْتُ فَرَحًا عَظِيمًا وَشَكَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى
عَلَى ذَلِكَ، وَازْدَادَ [...] أَنَّ أُخْتِي رَحِمَهَا اللَّهُ [...] فَرَفَعْتُ حَوَاجِ الْفِرَاشِ
وَوَجَدْتُ الْوَرَقَةَ، فَرَمْتُ بِهَا عَلَى بُعْدٍ؛ فَجَاءَتْ فِي الْهَوَاءِ وَنَزَلَتْ فِي كَفِّي وَهِيَ
مَبْسُوطَةٌ، وَمَرْفُوعَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ الْبَلَاءَ وَيَسْتَخْرِجُ بِهِ الدُّعَاءَ».

وَهَذَا هُوَ الدُّعَاءُ الْمُبَارَكُ الَّذِي كُنْتُ أَقْرَأُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا أَوَّلَ يَا قَدِيمَ، يَا قَرْدُ، يَا وَثْرُ، يَا أَحَدُ يَا صَمَدُ، يَا
اللَّهُ، يَا رَحْمَنُ، يَا رَحِيمُ، يَا حَيُّ، يَا قَيُّومُ، يَا عَزِيزُ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ،
يَا ثَوْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، يَا مَنْ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ
يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدُ، يَا كَافِي، يَا هَادِي، يَا بَارِي، يَا عَالِمُ، يَا صَادِقُ
[...] يَا حَمِيعِيقُ، يَا رَبَّ الْأَرْبَابِ يَا مُجْبِرِي السَّحَابِ يَا مَالِكَ الْمُلُوكِ يَا وَلِيَّ
الْعَالَمِينَ [...] اللَّهُمَّ يَا اللَّهُ، أَنْتَ [...] الْأَرْضِ وَلَا إِلَهَ فِيهِمَا غَيْرُكَ [...].
فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ [...] وَمَا بَيْنَهُمَا غَيْرُكَ؛ قُدْرَتُكَ فِي الْأَرْضِ
كَقُدْرَتِكَ فِي السَّمَاءِ. سُلْطَانُكَ فِي الْأَرْضِ كَسُلْطَانِكَ فِي السَّمَاءِ. أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ
بِاسْمِكَ الْكَبِيرِ، وَوَجْهِكَ الْمُنِيرِ، أَنْ تَجْعَلَ لِي مِنْ أَمْرِي قَرَجًا وَمَخْرَجًا إِنَّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ انْتَهَى.

وَمِمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِهِ أَنْ شَفَا لِي مَرَضِي بِالنَّشْرِ فَقَطُّ وَالرُّقَا بِآيَاتِ مَنْ
الْقُرْآنَ الْعَزِيزِ. وَلَنَذْكُرْ هُنَا بَعْضَ مَا تَذَكَّرْتُ إِلَيْهَا. وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَمْلُوكَةَ سُودَانِيَّةَ
اسْمُهَا مُبَارَكَةَ، كَانَتْ بِدَارِنَا بِمَرَاكُشٍ وَخَرَجَ فِي جَسَدِهَا الْبَرَصُ الْكَثِيرُ، وَهُوَ فِي
زِيَادَةٍ [...] كَمَا هِيَ الْعَادَةُ فِي تِلْكَ الْعِلَّةِ وَذَكَرْتُهَا لِطَبِيبٍ فَقَالَ: إِنَّ دَاءَهَا
صَعْبٌ وَتَحْتَاجُ أَدْوِيَةً كَثِيرَةً [...] الصَّنِيفُ يُلِيقُ الْعِلَاجَ. فَتَوَقَّفْتُ [...] فِي
كِتَابِ «الدَّرُّ النَّظِيمِ» فِي [...] الْوَادِيَّاشِي، قَالَ: [...] إِنَّ لَمْ يَذْهَبْ بِمَاءٍ وَرَدَ

وَرَزَعْفَرَان [. . .] الْبَرَصُ إِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ أَوْ يُوقَفُ [. . .] هَذَا دَوَاءٌ أَسْهَلُ وَأَقْرَبُ مِمَّا ذَكَرَ [. . .] فَكَتَبْتُ السُّورَةَ كُلَّهَا فِي إِنَاءٍ لَمْ يَدْخُلْهَا طَعَامٌ. وَمَحَوْتُ الْحُرُوفَ بِمَاءٍ نَقِيٍّ وَأَعْطَيْتُ الْمَاءَ لِلْمَبْرُوضَةِ وَشَرِبَتْهُ؛ وَلَكِنْ أَخَذْتُ مِنَ الْمَاءِ شَيْئًا وَنَسَرْتُ أَوْ وَضَعْتُ مِنْهُ عَلَى مَوَاضِعِ الْبَرَصِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ بَدَأَتْ كُلُّ لَمْعَةٍ تَصْغُرُ عَلَى قَدْرِهَا. وَبَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَوْ أَكْثَرَ صَارَتْ مَوَاضِعُ الْبَرَصِ حُمْرًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بَيْضًا، ثُمَّ اسْوَدَّتْ مِثْلَ سَائِرِ الْجَسَدِ؛ وَشَفَاهَا اللَّهُ.

وَبَعْدَ عَامَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ خَرَجَ فِيهَا الْبَرَصُ مَرَّةً ثَانِيَةً حَتَّى إِنْ بَغَضَ اللَّمْعُ كَانَتْ قَدَرِ الدُّيْنَارِ؛ فَكَتَبْتُ لَهَا مَرَّةً ثَانِيَةً السُّورَةَ الْمُبَارَكَةَ وَشَرِبَتْ مَاءَهَا، وَبَدَأَهَا الشِّفَاءُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ؛ وَلَمْ يَعْذِ إِلَيْهَا إِلَى أَنْ جَارَتْ نَحْوَ الْعَشْرِ سِنِينَ وَمَاتَتْ. وَهَذَا مِنَ الْعَجَبِ إِذْ لَيْسَ فِي هَذَا الْعِلَاجِ شَيْءٌ مِنَ الْعَقَاقِيرِ وَلَا مِنَ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي تُعَالَجُ بِهَا الْأَمْرَاضُ؛ إِنَّمَا ذَلِكَ شَيْءٌ مِنْ رَزَعْفَرَانِ مَحْلُولٍ فِي قَلِيلِ مَاءٍ وَزِدَ لِتُظْهَرَ الْحُرُوفُ فَقَطْ.

وَقَدْ جَاءَنِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ رَجُلٌ مَرِيضٌ بِالْإِسْتِسْقَاءِ، وَهُوَ مَنْفُوخٌ مَثْرُوكٌ مِنَ الْأَطِبَّاءِ، وَكَتَبْتُ لَهُ نَشْرَةَ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَمَحَوْتُهَا وَأَعْطَيْتُهُ الْمَاءَ وَشَرِبَهُ فِي نَحْوِ السَّبْعَةِ أَيَّامٍ وَبَرَأَ. وَجَاءَنِي وَقَالَ: مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّي أَبْرَأُ مِمَّا أَصَابَنِي؛ وَالْآنَ شَفَانِي اللَّهُ تَعَالَى بِالْمَاءِ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، وَلَيْسَ لِي بِمَا نَكْفِيكَ إِلَّا أَنْ تُحِبَّ أَنْ أَخْدَمَكَ فَأَكُونَ كَأَنِّي مَمْلُوكٌ لَكَ. وَأَحِبُّ مِنْكَ أَنْ تُخَيِّرَنِي بِمَا دَاوَيْتَنِي؟ قُلْتُ: لَا أَطْلُبُ مِنْكَ شَيْئًا، وَلَا أَقُولُ لَكَ بِمَا دَاوَيْتُكَ؛ وَدَهَبَ سَالِمًا فَارِحًا.

وَجَاءَنِي رَجُلٌ، وَاشْتَكَى أَنَّهُ مَهْمًا يَمُدُّ يَدَهُ لِلْوُضُوءِ وَابْتَدَأَ بِهِ تَبْطُلُ يَدُهُ الْيُمْنَى؛ وَكُنْتُ فِي مَوْضِعٍ مَا أَمْكَنَنِي أَنْ أَكْتُبَ لَهُ شَيْئًا؛ وَقَبَضْتُ يَدَهُ مِنْ مَرْفَقِهِ وَقَرَأْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ؛ وَبَدَأَ يَبْرَأُ مِنْ حِينِهِ إِلَى يَوْمٍ آخَرَ؛ قَرَأْتُ أَيْضًا وَلَا كَانَ يَخْتَاجُ ذَلِكَ، وَشَفَاهُ اللَّهُ.

وَمِمَّا اتَّفَقَ لِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ، بَعْدَ أَنْ جَارَتْ عَلَيْنَا السَّنَتَيْنِ وَنَحْنُ فِيهَا؛ أَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ حِسًا فِي الْبَيْتِ الَّذِي أَكُونُ فِيهِ وَخِدي فِي الْيَقْظَةِ، يَضْرِبُ فِي الْحَاطِطِ شَيْئًا أَوْ قَرِيبًا مِنِّي فِي لَوْحٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَبَيْنَ الضَّرْبَةِ وَالْآخَرَى قَدَرُ مَا

يَعُدُّ الْإِنْسَانُ ثَلَاثَةً مِنْ وَاحِدٍ إِلَى أَرْبَعَةٍ؛ وَدَخَلَ فِي قَلْبِي الْخَوْفُ وَالرُّغْبُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى خِفْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنْ يَضْرَعَنِي وَاشْتَعَلْتُ نَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى بِلَا فِتْرَةٍ؛ لَعَلِّي نَتَّقُوهُ بِذَلِكَ وَنَنْجُوا مِنَ الْجِنِّ؛ وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّ يَوْمٍ وَيَضْرِبُ فِي الْبَيْتِ وَفِي غَيْرِهِ، وَإِذَا أَكُونُ وَخَدِي وَنَغْضَبُ عَلَيْهِ، وَنَضْرِبُ إِلَى جِهَتِهِ، يَزِيدُ هُوَ فِي الضَّرْبِ. وَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ أَوْلَى بِي؛ وَلَا كُنْتُ أَذْرِي مَاذَا كَانَ مُرَادُهُ، ثُمَّ فَهِمْتُ أَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ بِلَادِ الْكُفَّارِ.

وَيَعْدُ أَنْ وَلَيْتُ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، كَانَ أَيْضًا يَعْمَلُ لِي حِسًّا يُلْهِمُنِي إِلَى الصَّلَاةِ إِذَا تَنَعَّطَلُ عَنْهَا، وَأَيْضًا بَغَضَ اللَّيَالِي عِنْدَ السَّحَرِ يَضْرِبُ فِي الْبَيْتِ إِلَى أَنْ أَقُومَ، أَوْ نَقْرَأُ فِي الْفِرَاشِ وَكُنْتُ مُتَحِيرًا فِي أَمْرِهِ، قُلْتُ: هَذَا جِنٌّ مُؤْمِنٌ، وَلَا اسْتَعْمَلْتُ قَطُّ عَزَائِمَ لِنَتَّخِذَ خَدِيمًا مِنَ الْجِنِّ؛ ثُمَّ بَانَ مِنْهُ إِذَا أَكُونُ وَخَدِي نَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ وَتَأْتِينِي سِنَّةٌ مِنَ التَّوْمِ حَتَّى يَلْتَوِي لِسَانِي بِالْقِرَاءَةِ فَيَضْرِبُ لِي فِي الْبَيْتِ لِنَفِيقٍ وَنَقْرَأُ. ثُمَّ إِذَا جَانِي التَّوْمُ يَضْرِبُ أَيْضًا حَتَّى نَخْتِمُ الْقِرَاءَةَ.

وَبَغَضَ اللَّيَالِي بِالسَّحَرِ لَا يَهْدَأُ عَنِ الضَّرْبِ إِلَى أَنْ أَقُومَ؛ وَتَارَةً إِذَا كَانَ أَحَدٌ مَعِي فِي الْفِرَاشِ يُطْلِقُ عَلَيَّ شَيْئًا قَلِيلًا مِنَ التُّرَابِ أَوْ حِجَارَةً صِغَارًا قَذَرِ الْحُمْصِ؛ وَيَضْرِبُ بِهِ قَرِيبًا مِنْ وَجْهِي؛ وَنَأْخُذُ الْحَجَرَةَ بَغَضَ الْمَرَاتِ بِيَدِي؛ وَنَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ مُرَادُهُ إِلَّا أَنْ أَقُومَ وَنَقْرَأُ فَقَط. وَإِذَا كَانَ فِي الْبَيْتِ الَّذِي نَبِيتُ فِيهِ نَجَاسَةً خَائِزَةً؛ فَيَضْرِبُ وَيَعُودُ لِلضَّرْبِ حَتَّى نُخْرِجُهَا، وَتَارَةً تَسْتَعْمِلُ مِنْ نَفْسِي أَنَّ التُّعَاسَ جَاءَنِي وَنُظْهِرُ ذَلِكَ بِالْقِرَاءَةِ وَهُوَ لَيْسَ بِالقَرَبِ مِنِّي لَعَلَّهُ يَضْرِبُ فَلَا يَضْرِبُ أَبَدًا إِلَّا عِنْدَ ابْتِدَاءِ التَّوْمِ حَقِيقَةً.

ثُمَّ تَحَقَّقْتُ مِنْهُ أَنَّهُ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، فَكَمْ مَرَّةً أَكُونُ أَقْرَأَ وَيَضْرِبُ؛ وَنَنْظُرُ مَاذَا أَقْرَأَ؟ وَنَرَى أَنَّهُ وَقَعَ مِنِّي غَلَطٌ فِي الْقِرَاءَةِ.

وَكُنْتُ يَوْمًا بِمَدِينَةِ مَرَاكُشْ، جَالِسًا أَتَرْجِمُ رِسَالَةَ بِاللُّطِينِ، تَتَكَلَّمُ عَلَى الْكُورَةِ الْأَرْضِيَّةِ وَالْفَلَكَيَّةِ، وَالْكَرَتَانِ كَبِيرَتَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ فِي كُرْسِيٍّ مَرْسُومٍ فِي السَّمَاءِ الثُّجُومِ الثَّوَابِتِ، وَالْبُرُوجِ فِي الْفَلَكَ، وَالصُّوَرِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ الْمُتَجَمِّينَ بِأَسْمَائِهَا، وَكَذَلِكَ فِي الْأَرْضِيَّةِ، كُلُّ مَدِينَةٍ مَعْرُوفَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْأَقْطَارِ وَالْبُلْدَانِ

وَالْأَقَالِيمَ، وَكُلُّ بَلَدٍ بِاسْمِهِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ، وَالْأَبْحُرُ وَالْأَنْهَارُ، كَانَ قَدْ أَمَرَنِي السُّلْطَانُ مَوْلَايَ زَيْدَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِتَرْجَمَةِ تِلْكَ الرُّسَالَةِ، قُلْتُ لَهُ: هِيَ بِلُغَةِ اللَّطِينِ، وَلَا نَعْرِفُهَا، قَالَ: مَنْ يَغْرِفُ اللَّطِينَ؟ قُلْتُ: أَسِيرٌ رَاهِبٌ مِنْ أَسَارَى الْمَقَامِ الْعَلِيِّ؛ قَالَ: يَفْعُدُ مَعَكَ.

وَكُنَّا فِي دَارِ السُّلْطَانِ نُتَرْجِمُ ذَلِكَ وَالرَّاهِبُ مَعِيَ، وَجَاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ؛ وَتَعَطَّلْتُ لِئَتِمَ بِالْكِتَابَةِ مَا بَقِيَ مِنْ وَجْهِ وَرَقَةٍ. وَسَمِعْتُ الضَّرْبَ فِي وَرَا لَوْحٍ مِنْ خَشَبٍ؛ قَالَ الرَّاهِبُ: مَا هَذَا الضَّرْبُ؟ قُلْتُ: لَا أَذْرِي. وَقَامَ مِنْ مَوْضِعِهِ وَمَشَى إِلَى ظَهْرِ اللُّوحِ الَّذِي كَانَ الضَّرْبُ فِيهِ؛ وَلَا رَأْيَ شَيْئًا وَبَقِيَ مُتَعَجِّبًا. وَعَلِمْتُ أَنَّ الضَّرْبَ كَانَ يَقُولُ لِي أَنْ أَتْرَكَ كُلَّ شَيْءٍ وَأُصْلِيَ الظُّهْرَ.

وَكَانَ ابْتِدَاءُ هَذَا الْأَمْرِ قَبْلَ هَذَا التَّارِيخِ بِخَوِ الْخَمْسِ وَعِشْرِينَ سَنَةً؛ وَنَعْرِفُ أَنَّهُ مَعِيَ إِنْشَاءً أَكُونُ وَلَا نَرَاهُ وَلَا يُجَاوِبُنِي بِأَمْرَةٍ؛ وَقَدْ طَلَبْتُهَا مِنْهُ، وَلَا ظَهَرَ لِي مِنْهُ انْتِقَالٌ إِلَّا يَزْعَى مَا نَقُولُ أَوْ مَا نَعْمَلُ، حَتَّى أَظُنُّ أَنَّهُ الْمَلِكُ الَّذِي عَلَى الْيَمَنِ؛ وَإِنْ كَانَ هَذَا الظَّنُّ غَرِيبًا وَبَعِيدًا، وَأَنَا مُتَعَجِّبٌ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ، وَتَحَقَّقْتُ مِنْهُ أَنَّهُ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ؛ وَتَارَةً أَقْرَأُ سُورَتَيْنِ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ؛ وَتَتْرَكَ الْقِرَاءَةَ وَيَضْرِبُ لِي أَنْ أَزِيدَ. وَأُظُنُّ أَنَّ بَغْضَ اللَّيَالِي، حِينَ يَضْرِبُ لِي أَنْ أَقُومَ أَنَّ تِلْكَ سَاعَةُ الْإِجَابَةِ لِلدُّعَاءِ.

وَكَُنْتُ لَيْلَةً أُرِيدُ أَنْ أَخْتِمَ الْقِرَاءَةَ إِلَى سُورَةِ «النَّاسِ»؛ وَكُنْتُ أَقْرَأُ حِزْبَ صَبْحٍ وَتَسْلُطَ عَلَيَّ النُّؤْمُ - وَكَانَ ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ الَّذِي كُنْتُ مَشْغُولًا بِتَأْلِيفِ هَذَا الْكِتَابِ - وَإِذَا قَرَأْتُ سُورَةَ أَوْ سُورَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ يَبْدُوْنِي الثُّعَاسُ قَلِيلًا مِنْ غَيْرِ تَرْكِ الْقِرَاءَةِ فَيَضْرِبُ حَتَّى تَنْقُوزَ؛ وَلَا خَتَمْتُ الْحِزْبَ حَتَّى ضَرَبَ نَحْوَ السَّتِّ مَرَّاتٍ. وَلَمَّا خَتَمْتُ وَقَفَ عَنِ الضَّرْبِ؛ وَالشُّكْرُ لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي مَنْ يَعِينَنِي عَلَى عِبَادَتِهِ. وَكُنْتُ أَوَّلَ الْحَالِ نَكْرَهُهُ أَشَدَّ الْكَرَاهَةِ؛ وَقَالَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(١).

وَأَزِيدُ فِي هَذِهِ النُّسخَةِ مَا لَا هُوَ فِي النُّسخِ الَّتِي كَتَبْتُ قَبْلَهَا، وَذَلِكَ أَنَّ فِي
عَامِ خَمْسِينَ وَأَلْفٍ، كُنْتُ بِمَدِينَةِ ثُوْنَسِ المَحْرُوسَةِ بِاللهِ، سَاكِناً فِي بَيْتٍ وَخَدِي؛
وَإِذَا خَرَجْتُ نَسُدُّ بِالْمِفْتَاحِ، وَوَجَدْتُ يَوْماً شُمْسِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ - أَغْنِي: مِمَّا يَنْتَظِمُ
فِي شِرْكَهٍ أَوْ قِلَادَةٍ؛ مِمَّا تَجْعَلُ النِّسَاءَ فِي العُنُقِ - وَعَلِمْتُ أَنَّ شَيْئاً رَبَّانِيّاً أَتَانِي
بِهَا؛ فَمَشَيْتُ إِلَى صَايغٍ وَقَالَ: هِيَ مِنْ ذَهَبٍ، فَرَفَعْتُهَا وَأَنَا أَقُولُ: لَا أَذْرِي مَا
الْمُرَادُ بِهِذَا؟ ثُمَّ بَعْدَ أَشْهُرٍ جَاءَ ابْنِي بِزَوْجَتِهِ مِنْ تَسْتُرْت - بِلَادٍ - وَنَزَلَ عِنْدِي.
ثُمَّ إِنَّ زَوْجَةَ ابْنِي أَرَادَتْ أَنْ تَمْشِيَ لِمَوْضِعٍ آخَرَ، وَأَوْدَعَتْ عِنْدِي شِرْكَهَ أَزَالَتِهَا
مِنْ عُنُقِهَا بِتَسْعِ شُمْسِيَّاتٍ مِثْلَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدِي مِنْ ذَهَبٍ. وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ
أَعْطَيْتُهَا الشِّرْكَهَ، وَقُلْتُ لَهَا: كَمْ فِيهَا مِنْ شُمْسِيَّاتٍ؟ قَالَتْ: تِسْعَةٌ؛ وَكَانَتْ
عَشْرَةً، وَقَبْلَ هَذِهِ الْأَيَّامِ بِأَشْهُرٍ ثَلَاثِ لِي وَاحِدَةٍ فِي تَسْتُرْت، فَأَخْرَجْتُ الَّتِي
كَانَتْ عِنْدِي وَأَعْطَيْتُهَا لَهَا، وَقُلْتُ: الْمُعْلَمُونَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ الَّتِي عِنْدَكَ. وَظَنَنْتُ
أَنْنِي^(١) أَمَرْتُ بِعَمَلِهَا. فَتَعَجَّبْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، كَيْفَ عَلِمَ حِينَ أَتَانِي بِالشُّمْسِيَّةِ
أَنَّ زَوْجَةَ ابْنِي سَتَأْتِي وَتَطْرُحُ عِنْدِي الْقِلَادَةَ الَّتِي خَصَّتْ مِنْهَا الَّتِي تَلِفْتُ؟
وَالْمَعْلُومُ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ وَقُوعِهِ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَوْ مَنْ يُوحَى إِلَيْهِ
ذَلِكَ.

وَمِمَّا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ بِهِ فِي الْعَامِ الْمَاضِي؛ وَكَانَ عَامَ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ
وَأَلْفٍ، فِي نَحْوِ الْعِشْرِينَ مِنْ شَوَّالٍ، يَوْمَ السَّبْتِ، وَأَنَا فِي مِضْرٍ؛ وَكَانَ لِي
كِتَابٌ كَتَبْتُهُ بِيَدِي، يَتَعَلَّقُ بِجُمْلَةِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، لِسَيِّدِي أَحْمَدَ زَرَّوقِ بْنِ
عُتْبَةَ الْحَضْرَمِيِّ - نَفَعَ اللهُ بِهِ - وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَجَعَلْتُهُ عَلَى نَفْسِي بَيْنَ قَفْطَيْنِ،
إِلَى جَانِبِ الْقَلْبِ وَمَشَيْتُ إِلَى دُكَانِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْعَاصِي الْأَنْدَلُسِيِّ؛ كُنْتُ
فِيهِ أَمِيناً عَلَى قَبْضِ مَا يَبِيعُ التَّاجِرُ الَّذِي كَانَ فِيهِ لِلْبَيْعِ؛ وَفِي الطَّرِيقِ، حِينَ
كُنْتُ مَاشِياً، اشْتَرَيْتُ رَغِيفاً، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَ الْكِتَابِ وَالْجَسَدِ؛ وَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى
الدُّكَانِ أَرَدْتُ نَقِضَ الْكِتَابِ وَالرَّغِيفَ وَلَا وَجَدْتُ كِتَاباً وَلَا رَغِيفاً. وَجَلَسْتُ
فِي حُزْنٍ وَتَغْيِيرٍ مَا لَا رَأَيْتُ ذَلِكَ مُنْذُ زَمَنٍ. وَتَذَكَّرْتُ إِلَى كُتُبٍ سُرِقَتْ لِي

بِمَرَاكُشٍ، مِمَّا كَتَبْتُ بِيَدِي فِي التَّوْحِيدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، بِقُرْبِ الْعَهْدِ الَّذِي جِئْتُ
أَوَّلَ مَرَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْكُفَّارِ؛ وَأَيْضًا لِلْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُ بِيَدِي وَمَشَتْ لِي مَعَ
الْجَمَلِ سَنَةً قَبْلَ ذَلِكَ فِي طَرِيقِ الْحَجِّ. وَتَذَكَّرْتُ لَمَّا قَرَأْتُ فِي كِتَابِ الْيَافِعِيِّ؛
وَهُوَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَارِفُ بِاللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ الْيَافِعِيُّ - نَفَعَ اللَّهُ بِهِ - قَالَ: سَمِعْتُ مِنْ
بَعْضِ الْعَارِفِينَ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنْ لِكُلِّ وَضْعٍ فِيهِ حَيٌّ وَهَابٌ، وَلِيٌّ، جَوَادٌ،
أَبْدَلٌ وَاجِدٌ بِجَوَادٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَنْقُطُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ»، انْتَهَى مَا كَتَبْنَا مِنْ كِتَابِ
الْيَافِعِيِّ ^(١).

وَلَمَّا أَنْ قَرَأْتُ مَا ذَكَرَ أَعْجَبَنِي كَثِيرًا، وَاخْتَرْتُ ذَلِكَ الْعَمَلِ، وَنَظَرْتُ فِي
أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَا تَنْقُطُ ثَلَاثًا وَخَمْسِينَ، وَهُوَ عَدَدُ اسْمِ أَحْمَدُ، وَوَجَدْتُ ذَلِكَ
فِي ثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ وَهِيَ وَاحِدٌ، هَادِي، وَهَابٌ. وَيَكُونُ بَدَلًا عَنْ «وَهَابٍ» «جَوَادٍ»،
وَبَدَلًا عَنْهُ أَيْضًا «وَاحِدٌ»، وَلَكِنْ وَرَدَ فِي «وَهَابٍ»: «إِنَّهُ الْاسْمُ الْأَعْظَمُ» لِقَوْلِ
سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي﴾ ^(٢).

وَأَمَّا السَّاعَةُ الَّتِي أَصَابَنِي فِيهَا التَّغْيِيرُ، عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي ذَكَرْتُ، أَنَّهُ وَقَعَ
مِنِّي فِي الطَّرِيقِ؛ فَالْهَمَنِي اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَقْرَأَ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ، وَكُنْتُ عَزَمْتُ عَلَى
أَنْ نَجْعَلَهُمْ فِي وَفْقٍ حَسَبًا ذَكَرَ مِنَ الْعَمَلِ لاسْمِ مُحَمَّدٍ، فَلَمْ يَتَيَسَّرْ فِي تِلْكَ
السَّاعَةِ؛ وَتَوَيْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَقْرَأَ الْأَسْمَاءَ وَنَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُعْطِيَنِي
عَوَضَ الْكِتَابِ الَّذِي ذَهَبَ لِي، وَالْهَمَّ الَّذِي أَصَابَنِي بِسَبَبِهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْخَيْرِ،
وَمَا عَايَنْتُ شَيْئًا. فَقَرَأْتُ «الْفَاتِحَةَ» ثَلَاثًا وَخَمْسِينَ مَرَّةً و«الْبَسْمَلَةَ» مَعَ كُلِّ
وَاحِدَةٍ، و«أَلَمْ نَشْرَحْ» ثَلَاثًا وَخَمْسِينَ وَالْأَسْمَاءَ ثَلَاثًا وَخَمْسِينَ مَرَّةً. وَجَلَسْتُ
الْيَوْمَ فِي الدُّكَّانِ إِلَى بَعْدِ الْعَصْرِ؛ وَجِئْتُ إِلَى الدَّارِ، وَوَجَدْتُ الْكِتَابَ فِي
الْمَوْضِعِ الَّذِي كُنْتُ أَجْلِسُ فِيهِ، فَقَرِخْتُ بِذَلِكَ قَرْحًا عَظِيمًا مِنْ وُجُوهِ.

وَلَا يَتَوَهَّمُ قَارِئُ هَذَا الْكِتَابِ، أَنِّي تَرَكْتُهُ فِي الدَّارِ، لِأَنِّي عَلَى يَقِينٍ بِأَنِّي
مَشَيْتُ بِهِ وَجَعَلْتُ الْفُرْصَةَ تَحْتَهُ. وَحَصَلَتْ الْإِجَابَةُ؛ وَلَا أَذْخُلُ الْأَسْمَاءَ فِي

(١) هو عبد الله بن أسعد بن علي البافعي، مؤرخ، باحث، متصوف، مات في مكة سنة ٧٦٨ هـ.

(٢) سورة ص، آية: ٣٥.

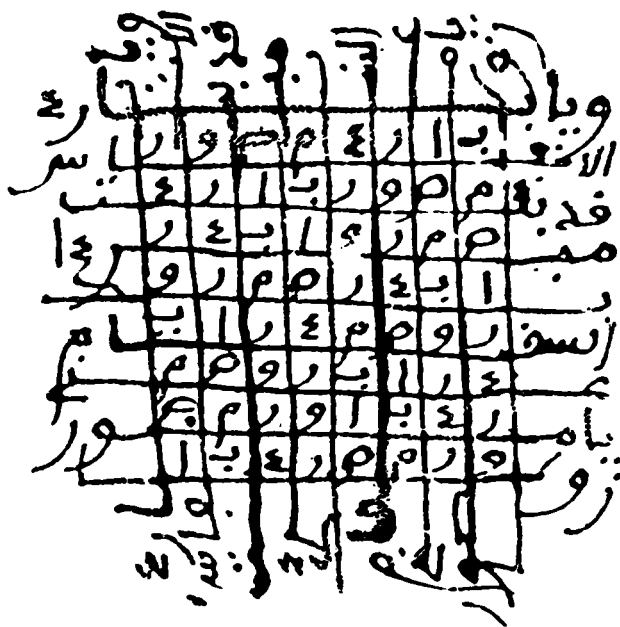
جَدُول؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ الْحَزْنَ الْمُضْطَرَّ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى جَدُولٍ. وَلَمْ تَتْرُكْ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرَ الْيَافِعِيُّ فِي الْعَمَلِ بَيْنَهُ النَّفْعُ لِلْإِخْوَانِ.

وَمِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ بِهِ أَنْ سَخَّرَ لِي مُلُوكَ الْمِلَّتَيْنِ، وَعُلَمَاءَهُمْ وَصُلَحَاءَ دِينِنَا.

وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيَّ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ بِهَا ثَلَاثُ عِلَلٍ: كَانَ [أُصِيبَ] ^(١) ظَهْرُ يَدِهَا وَأَصَابِعُهَا بِثَالُوثٍ كَثِيرَةٍ، فَكَتَبْتُ جَدُولًا مَثْمَنًا حَرْفِيًّا أَدْخَلْتُ فِيهِ أَسْمِينَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى؛ بَارِئًا، مُصَوِّرًا، وَمَرْجُئَةً بِكَلَامِ بَيْتٍ مِنَ الذَّمِّيَّاتِ ^(٢) وَهُوَ:

«وَيَا بَارِئَ الْأَنْفَاسِ قَدْ بَثْتُ مُبْرِنًا بِكَ السُّقْمَ عَنِّي يَا مُصَوِّرَ زُولا» وَجَعَلْتُهُ عَلَيْهَا. وَفِي نَحْوِ السُّتَةِ أَيَّامٍ لَمْ يَبْقَ فِي يَدَيْهَا أَثَرٌ لِلثَّالُوثِ، وَشَفَاهَا اللَّهُ مِنَ الْعِلَّةِ الْأُخْرَى، وَمِنْ الثَّالِثَةِ نَقَصَ مِنْ دَائِهَا.

وَهَذَا هُوَ الْجَدُولُ مَمْرُوجٌ فِيهِ الْبَيْتُ - كَمَا ذَكَرَ ابْنُ الْحَاجِّ فِي كِتَابِهِ لِلْمَزَجِ:



(٢) في الأصل: الضمياطي.

(١) ساقط في الأصل.

وَأَيْضًا رَأَيْتُ بُرْهَانًا لِلْبَيْتِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ :

«وَيَا مُقْسِطُ ثَبَّتْ عَلَى الْقِسْطِ نَبِيَّتِي وَيَا جَامِعُ اجْمَعْ لِي رِضًا سَائِرِ الْمَلَا»

ذَكَرَ فِي الْخَوَاصِّ لِهَذَا الْبَيْتِ أَنَّهُ نَافِعٌ لِلضَّلَالَةِ؛ فَكَانَ إِذَا تَلَفَ لِي شَيْءٌ نَقَرَاهُ وَبَرَدُهُ اللَّهُ عَلَيَّ بِبَرَكََةِ أَسْمَائِهِ؛ وَقَدْ تَلَفَ لِي مَجْمُوعُ آلَاتٍ، مِثْلُ مِقْصَصٍ وَخِذْمِي وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَشَشْتُهُ فِي اللَّيْلِ وَلَا وَجَدْتُهُ، فَقَرَأْتُ الْبَيْتَ مِرَارًا، وَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَنَّهُ كَانَ مَطْرُوحًا فِي بُسْتَانٍ كُنْتُ فِيهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ. وَمَشَيْتُ مِنَ الصُّبْحِ لِلْمَوْضِعِ بَعَيْنِي الَّذِي رَأَيْتُهُ فِيهِ وَوَجَدْتُهُ.

ثُمَّ مَرَّةً أُخْرَى تَلَفَ لِي - أَظُنُّهُ - مِقْصَصٌ عَجِيبٌ، وَقَشَشْتُهُ فِي حَوَائِجِي وَفِي الدَّارِ، وَمَا وَجَدْتُهُ؛ وَقَرَأْتُ الْبَيْتَ مِرَارًا، طَالِبًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ مَا تَلَفَ لِي. وَمَشَيْتُ إِلَى نَاحِيَةِ السُّوقِ بِمَرَاكُشٍ، فِي زَنْقَةٍ كُذِّبَتْ حُلُوانٌ، وَسَمِعْتُ حِسَّ الْمِقْصَصِ بَيْنَ قَدَمَيَّ فِي الْأَرْضِ، وَرَفَعْتُهُ مُتَعَجِّبًا؛ لِأَنِّي عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي؛ وَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِشَيْخِنَا الْفَقِيهِ الْخَيْرِ سَيِّدِي أَحْمَدَ بْنِ الْحَاجِّ الثُّوْتِيِّ، الَّذِي كَانَ يُقَدِّمُ لَطَلَبِ الْمَطَرِ إِذَا خَصَّ، وَقَالَ لِي: مَنْ سَأَلَهُ لَكَ؟ قُلْتُ: لَا أَذْرِي! قَالَ لِي: اللَّهُ تَعَالَى سَأَلَهُ.

وَمِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ بِهِ بِمَضَرٍ، فِي أَوَّلِ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ؛ صَلَّيْتُ يَوْمًا الظُّهْرَ، وَأَتَيْتُ بِسُجْدَتِي السَّهْوِ لِأَجْلِ مَا زِدْتُ فِي الصَّلَاةِ، ثُمَّ فِي الْيَوْمِ نَفْسِي^(١) فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَقَعَ لِي مِثْلُ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ وَرَفَعْتُهَا، فَأَخَذَنِي الْغَيْظُ عَلَى نَفْسِي، وَقُلْتُ: مَا كَانَ يَقَعُ مِنْكَ غَلَطٌ حِينَ كُنْتُ تَدْخُلِينَ إِلَى حَضْرَةِ السُّلْطَانِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ مِثْلُكَ! وَحِينَ تَقِفِينَ بِحَضْرَةِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ وَرَبِّ السَّلَاطِينِ وَخَالِقِهِمْ، تَتَكَلَّمِينَ بِحَضْرَتِهِ وَالْمَلَائِكَةُ حَاضِرُونَ! ثُمَّ تَنْتَقِلِينَ بِكَلَامِكَ إِلَى كَلَامِ فِي شَيْءٍ آخَرَ! ثُمَّ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَذْمُومَةِ بِحَضْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، الْمَوْلَى الْكَرِيمِ! حَتَّى تَقُولَ الْمَلَائِكَةُ عَنِّي إِنَّنِي مِنَ الْكَاذِبِينَ أَوْ مِنَ الْحَمَقَى أَوْ مِنَ الْمَجَانِينِ! حَتَّى تَفْسُدَ عَلَيَّ صَلَاتِي! وَلَكِنْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، نَشْتَرِي سَوَاطٍ مِنَ

(١) فِي الْأَصْلِ: بِنَفْسِهِ.

جَلِدْ وَنَضْرِبْ بِهِ عَلَى كُلِّ صَلَاةٍ بَعْدَ سَجْدَتَيْ السَّهْوِ، لَعَلَّكَ تَخَافِينَ مِنَ الضَّرْبِ أَكْثَرَ مِمَّا تَخَافِينَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ يَرَاكَ وَيَسْمَعُكَ.

وَلَمْ أَتَحَقَّقْ؛ هَلْ قُلْتُ لِنَفْسِي ذَلِكَ الْكَلَامَ جَهْرًا أَمْ سِرًّا. وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَعْدَ أَنْ صَلَّيْتُ الْمَغْرِبَ وَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَرَأَيْتُ مَعَ الشَّفَقِ، قَبْلَ أَنْ أَوْقَدْتُ السَّرَاجَ، قَضِيًّا نَزَلَ قُدَّامِي مِنَ الْهَوَاءِ، مِنْ عُودِ الطَّرْفَةِ، عَلَى طُولِ ذِرَاعٍ، وَقَبَضْتُهُ. وَفَهِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ بَدَلٌ عَنِ السَّوْطِ؛ كَأَنَّ لِسَانَ الْحَالِ يَقُولُ: لَا تُؤْخِرْكَ إِلَى أَنْ تَشْتَرِيَ سَوْطًا؛ خُذْ هَذَا وَاضْرِبْ بِهِ يَنْبُ^(١) عَنِ السَّوْطِ، لَعَلَّكَ تُدَاوِي نَفْسَكَ، وَتَخَافُ مِنْ ضَرْبِكَ إِيَّاهَا أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

وَرَجَعْتُ نَضْرِبُ نَفْسِي بَعْدَ سَجْدَتَيْ السَّهْوِ عَلَى رِجْلِي الْيُسْرَى بِالْقَضِيبِ، لِأَنَّ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّمَالِ، وَالْقَضِيبُ إِلَى الْآنَ عِنْدِي، فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ يَجْتَمِعُ فِكْرِي فِي الصَّلَاةِ بَعْضَ الْمَرَّاتِ وَانْتَفَعْتُ بِهِ نَفْعًا جَيِّدًا، وَحَصَلْتُ لِي قَائِدَةٌ بِالْبَرْهَانِ وَالْعِيَانِ بِأَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ مِنَ الْإِنْسَانِ قَوْلًا بِاللِّسَانِ، وَإِخْلَاصًا بِالْقَلْبِ، وَعَمَلًا بِالْجَوَارِحِ. وَفَهِمْتُ مِنَ الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرَهَا: ﴿وَعِذُّ يَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْتِثْ﴾^(٢) إِنَّهُ الْأَمْرُ بِالضَّرْبِ بِالْقَضِيبِ بَعْدَ تَرْفِيعِ الصَّلَاةِ عَلَى وَجْهِ التَّدَاوِي لِنَفْسِي عَلَى وَجْهِ الْاِخْتِصَاصِ. وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ كُلِّ بَدْعَةٍ غَيْرِ مُسْتَحْسَنَةٍ.

أَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ أَنْ يَغْفِرَ عَنِّي، فِيمَا خَصَّنِي مِنَ الْإِخْلَاصِ فِيمَا مَضَى، وَيُوفِّقَنِي فِيمَا بَقِيَ وَأَنْ يَسْتُرَ عُيُوبَنَا وَيَغْفِرَ ذُنُوبَنَا، وَيَخْتِمَ عَلَيْنَا بِخَوَاتِمِ السَّعَادَةِ؛ وَلِقَارِيءِ هَذَا الْكِتَابِ وَلِكَاتِبِهِ وَمُسْتَمِعِهِ، وَلِمَنْ رَأَى فِيهِ عَيْنًا حَقِيقَةً وَأَصْلَحَهُ؛ وَالْمَغْفِرَةَ لِلْوَالِدَيْنِ، وَلِكَاثَةِ أَيْمِنَنَا وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، الْأَخْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، بِفَضْلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَخَاتِمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُزْسَلِينَ وَحَبِيبِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﷺ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا.

وَقَدْ قَرَأْتُ هَذَا الْكِتَابَ بِمَضَرِ الْمَحْرُوسَةِ بِاللَّهِ عَلَى الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ عَلِيِّ الْأَجْهَوِيِّ؛ فَقِيهَ شَهِيرٍ فِي الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ يُثْنِي عَلَيْهِ فِي مِضَرٍ وَغَيْرِهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَقْطَارِ؛ الْمَرَّةَ الْأُولَى فِي الرُّحْلَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ؛ ثُمَّ مَرَّةً ثَانِيَةً اسْتَخْرَجْتُ هَذَا مِنْهَا عَلَى أَمْرِهِ، وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ كُلَّ مَا يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ لَائِقٍ أَنْ يَأْمُرَنِي بِإِسْقَاطِهِ؛ وَنَصَحَنِي وَنَفَعَنِي بِعِلْمِهِ وَنِيَّتِهِ الصَّالِحَةِ، وَدَعَا لِي بِالْخَيْرِ جَزَاهُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا كَثِيرًا، وَكَمَّلَ عَلَيْهِ بِالسَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ؛ آمِينَ.

وَقَدْ زِدْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ بِتَوْسُ مَا ظَهَرَ لِي أَنَّ فِيهِ نَفْعًا، وَطَالَعَهُ الْعَلَامَةُ الْمُفْتِي إِمَامُ جَامِعِ التُّرْكِ الشَّرِيفِ أَحْمَدُ الْحَنْفِي. وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ هَذَا التَّأْلِيفِ لِإِخْدَى وَعِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الثَّانِي مِنْ عَامِ سَبْعَةِ وَأَرْبَعِينَ وَأَلْفَ وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. وَلَمَّا كَتَبْتُ آخَرَ حَرْفٍ مِنْهُ سَمِعْتُ الْمُؤَذِّنَ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ لِلْأَذَانِ الْأَوَّلِ لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَاسْتَبَشَرْتُ بِخَيْرٍ وَبِقَبُولِ الْكِتَابِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْفَقِيهُ الْجَلِيلُ أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ بَابَ السُّودَانِي، فِي كِتَابِ عَمَلِهِ بِبِلَادِ دَرْعَةَ؛ وَهُوَ مَاشٍ إِلَى بِلَادِهِ، وَهِيَ بَتْنُبْتُ بِبِلَادِ السُّودَانِ، مِنْ مَرَاكُش. وَكُنْتُ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ مِنْهَا وَودَّعْنَاهُ وَهُوَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الَّذِي عَمِلَ شَرْحًا عَلَى مُخْتَصَرِ خَلِيل. وَسَمِعْتُ فِي مِضَرٍ؛ مَنْ ذَكَرَهُ وَاسْتَحْسَنَهُ، وَكَذَلِكَ بِتَوْسُ سَمِعْتُ مِنْ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ مَنْ شَكَرَهُ كَثِيرًا. وَبَعْدَ أَنْ مَشَى إِلَى بِلَادِهِ، كَتَبْتُ لَهُ وَأَعْلَمْتُهُ أَنِّي مَشَيْتُ إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَفَلَنْضُسَ لِأَغْرَاضِ قَضَائِهَا وَتَعَطَّلْتُ بِتِلْكَ الْبِلَادِ. وَكَتَبَ لِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَجَزَاهُ عَنِّي خَيْرًا وَدَعَا لِي وَلِأَوْلَادِي، وَقَالَ لِي: قَصُرْتُ حِينَ لَمْ كَتِبْتَ كُلَّ مَا رَأَيْتُ.

وَأَمَّا الْكِتَابُ الَّذِي عَمِلَ فِي بِلَادِ دَرْعَةَ؛ كَانَ أَجْوِبَةً عَلَى مَا سَأَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بُوَ مَحَلِّي، وَكَانَ رَجُلًا مِنَ الْعُلَمَاءِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لِلشَّيْخِ سَالِمِ السَّنْهَوِيِّ^(١) الْمَصْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَأَيْضًا لِكُلِّ مَنْ يُرِيدُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ أَنْ يُجَابِبَ عَلَيْهِ. وَالسُّؤَالَاتُ فِي شَأْنِ طَابَةِ الْمُسَمَّاتِ: بِالْذُّخَانِ وَالْعَفْيُونِ وَالْمُسْكِرَاتِ

وَالْمُحَدَّرَاتِ. وَذَكَرَ فِي عُشْبَةِ الدُّخَانِ أَنَّهَا حَلَالٌ لِذَاتِهَا فِي كِتَابِهِ وَقَالَ: إِنَّهُ فِي الْحِينِ الَّذِي خَتَمَهُ سَمِعَ الْآذَانَ لِلصَّلَاةِ، وَفَرِحَ بِذَلِكَ وَاسْتَبَشَرَ بِخَيْرٍ؛ وَكَذَلِكَ فَرِحْتُ حِينَ سَمِعْتُ التَّكْبِيرَ بَعْدَ أَنْ كَتَبْتُ آخِرَ حَرْفٍ مِنَ الْكِتَابِ.

وَكُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ فِقِيهَ زَمَانِهِ بِالْمَغْرِبِ، قَاضِي الْمُسْلِمِينَ بِمَدِينَةِ مَرَّاكُشَ فِي زَمَانِ السُّلْطَانِ مَوْلَايَ أَحْمَدَ الشَّرِيفِ الْحُسْنِيِّ، وَأَيْضًا فِي زَمَانِ مَوْلَايَ زَيْنَانَ السُّلْطَانَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا - فَقَالَ لِي الْقَاضِي، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّجْرَاجِي وَمَعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، الْأُسْتَاذُ الشَّهِيرُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَقَالَ لِي: بِمَاذَا أَنْتَ مَشْغُولٌ؟ قُلْتُ: أُوَلِّفُ كِتَابًا وَبِحَلْفٍ! قَالَ لِي: مُبَارَكَ؛ وَمَقْلُوبَ اسْمٍ «حَلْفٌ» فَهُوَ «فَلَحٌ».

وَفِي لَيْلَةٍ أُخْرَى؛ قَبْلَ أَنْ خَتَمْتُهُ بِنَحْوِ الْعِشْرِينَ يَوْمًا؛ قِيلَ لِي فِي النَّوْمِ؛ إِذَا تَمَّ الْكِتَابُ يَكُونُ الذَّهَبُ. وَيَوْمَ السَّبْتِ التَّالِي لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي خَتَمْتُهُ فِيهَا تَحَانَ كَمَا قِيلَ لِي.

نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَهُ نَافِعًا مَقْبُولًا مِنْهُ وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ نَاصِرًا لِلدِّينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَوْ كَتَمْتَ مَا ذَكَرْتَ فِي الْأَبْوَابِ الْأُخْرَى لَكَانَ خَيْرًا مِنْ ذِكْرِهِ، فَأَقُولُ: لَمَّا أُلْفِتُ الْكِتَابَ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى وَالْيَهُودِ مِنْ كُتُبِهِمْ؛ ذَكَرْتُ فِي الْبَابِ مَا اتَّفَقَ لِعَبْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ - وَأَنَا مِنَ الْمُذْنِبِينَ مِنْهُمْ - مَا لَا يَتَّفِقُ أَبَدًا بَعْدَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ لِنَصْرَانِي وَلَا لِيَهُودِي، وَانْظُرْ مَا يَقَعُ فِي كُلِّ زَمَانٍ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الصَّالِحِينَ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْمَوْلَى عَبْدُ الْوَهَّابِ الشُّغْرَانِي بِمَضْرٍ، فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِـ «كِتَابِ الْمَنَنِ» عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ، حَتَّى ذَكَرَ أَنَّ مِمَّا مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: إِنَّهُ لَا يَنَامُ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً الَّتِي فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا ثَلَاثَ سَاعَاتٍ فَقَطْ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ لِلْقُرْآنِ الْعَزِيزِ - فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَأَمَّا يَنْعَمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ»^(١): إِنَّ ذِكْرَ نِعْمَةِ تَعَالَى هُوَ مِنَ الشُّكْرِ لَهُ عَلَيْهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ لِي بِمَرَاكُشِ الْعَلَامَةِ الْفَقِيهِ النَّبِيِّ الْخَيْرِ قَاضِي الْمُسْلِمِينَ سَيِّدِي
عِيسَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّكْتِي أَنَّهُ مِنَ الْجِهَادِ الرُّدِّ عَلَى الْكُفَّارِ مَا يَقُولُونَهُ مِنَ
الْبَاطِلِ فِي الْأَذْيَانِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى مَا جَاهَدْنَا مَعَهُمْ. نَسْأَلُ اللَّهَ
الْعَظِيمَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ «السِّيفَ الْأَشْهَرِ عَلَى كُلِّ مَنْ كَفَرَ»؛ وَبُرْهَانَهُ يَظْهَرُ؛
يَا اللَّهَ يَا وَاحِدُ يَا هَادِي يَا وَهَّاب. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى
آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا، أَبَدًا دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ؛ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا
بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ ذَكَرْتُ فِيهِ أَنِّي قَرَأْتُهُ بِمَضْر
الْمَخْرُوسَةِ بِاللَّهِ، عَلَى الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ سَيِّدِي عَلِيِّ الْأَجْهَوْرِيِّ الْمَالِكِيِّ، وَأَنِّي بَعْدَ
أَنْ جِئْتُ إِلَى مَدِينَةِ تُونِسَ - حَرَسَهَا اللَّهُ - وَجَدْتُ فِيهَا الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبَ الشَّيْخُ
الْفَقِيهِ الْأَكْنِيحَلُ الْأَنْدَلُسِيُّ - كَانَ فِي مَدِينَةِ غَرْنَاطَةِ شَيْخِ التَّرْجَمَةِ بِالْإِجَازَةِ -
وَقَرَأْتُ عَلَيْهِ هُنَالِكَ وَعَرَفْتُ خَطُّهُ الْعَجْمِي وَالْعَرَبِي. وَبَعْدَ أَنْ تَوَفَّيَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
بَقِيَ الْكِتَابُ بِيَدِ الْفَقِيهِ يُوسُفَ قَلْبُ الْأَنْدَلُسِيِّ، وَاتَى بِهِ إِلَى مَدِينَةِ تُونِسَ وَمَاتَ
فِيهَا، وَبَقِيَ الْكِتَابُ بِيَدِ وَاحِدٍ مِنْ إِخْوَانِنَا الْأَنْدَلُسِيِّ وَكَتَمَهُ عَنْ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ بَغَضَ
الْأَنْدَلُسَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ كَانُوا يَطْلُبُونَ عَلَيْهِ. وَأَنَا كُنْتُ نَتَمَتَّى نَرَاهُ؛ فَأَعْطَاهُ لِي
الَّذِي كَانَ بِيَدِهِ جَزَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِّي خَيْرًا كَثِيرًا؛ حَتَّى تَوَفَّيْتُ النَّظَرَ فِيهِ وَزِدْتُ مِنْهُ
فِي كِتَابِي «نَاصِرِ الدِّينِ» فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ «عَقِيدَةُ تَصَفِّيُونَ بَنَ الْعَطَّارِ فِي التَّوْحِيدِ»؛
وَبَعْضَ الْمَسَائِلِ مِمَّا ذَكَرْتُ عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي وَجَدْتُ تَحْتَ الْأَرْضِ، مَكْتُوبَةً
بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْ عَهْدِ الصَّالِحَةِ مَرْيَمَ عَلَى أَمْرِهَا.

وَأَيْضًا وَجَدْتُ فِي تُونِسَ كِتَابًا كَبِيرًا مَكْتُوبًا بِالْقَالِبِ بِالْعَجْمِيَّةِ مَتْرَجَمٌ مِنْ
بَالِرِ الْإِسْبِيلِيِّ؛ مِثْلَ الَّذِي قَرَأْتُ بِفَرَنْصَةِ فِيهِ جَمِيعَ كُتُبِ التَّوْرَةِ وَالزَّبُورِ
وَالْإِنْجِيلِ، وَزِدْتُ مِنْهُ فِي كِتَابِي قِصَّةَ بُخْتِ نَصْرٍ وَمَا فَسَّرَ النَّبِيُّ ذَانِيَالُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ وَغَيْرَ ذَلِكَ زِدْتُ مِنَ التَّوْرَةِ فِي الْبَابِ الْعَاشِرِ.

وَأَيْضًا كَتَبْتُ فِي الْكِتَابِ تَرْجَمَةَ الْبِرَاءَةِ الَّتِي كَتَبَ سُلْطَانُ إِسْبَانِيَّةَ - وَهِيَ
بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ - وَأَمَرَ بِخُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا. وَذَكَرَ الْأَسْبَابَ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى

إِخْرَاجِهِمْ. جَاءَتْ نُسخَةُ مِنَ الْبَرَاءَةِ إِلَى مَرَاكُشَ وَتَرْجَمْتُهَا لِلسُّلْطَانِ مَوْلَايَ زَيْدَانَ رَحِمَهُ اللهُ وَالتَّرْجَمَةُ فِي آخِرِ الْبَابِ الْحَادِي عَشَرَ مِنَ الْكِتَابِ.

فِي الْبَابِ الثَّانِي عَشَرَ ذَكَرْتُ بَرَاءَةَ الرَّاهِبِ وَمَا جَاوَبْتُهُ فِيهَا، وَالْفَتْوَى الَّتِي اسْتَفْتَيْتُهُ فِي دِينِهِ لِمَا عَلِمْتُ مِنْ سُوءِ اعْتِقَادِهِمْ، وَكَانَ فِي مَرَاكُشَ.

وَفِي الْبَابِ الثَّالِثِ عَشَرَ: ذَكَرْتُ الشُّمَيْسِيَّةَ مِنَ الذَّهَبِ الَّتِي وَجَدْتُ فِي بَيْتِي؛ وَمَا ذَكَرَ سَيِّدِي أَحْمَدُ بَابَ السُّودَانِي فِي ذِكْرِ اللهِ أَكْبَرَ عِنْدَ تَمَامِ الْكِتَابِ، انْتَهَى.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

كتب فيها دعوة الأعوان الأربعة

وعزائم الجن مما لا علاقة لها بالكتاب، فأثرنا تركها

[كتاب مواهب الثواب]

بسم الله الرحمن الرحيم وصَلَّى الله على سَيِّدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

يقول العبد الفقير أحمد بن قاسم الأندلسي مؤلف الكتاب المسمَّى بـ «ناصر الدين على القوم الكافرين»: بعد الحمد لله والصلاة والسلام على سَيِّدنا محمد وآله وصحبه والتَّابعين له في الدين.

أما الكتب التي ذكرنا أنها وُجِدَتْ في خندق الجنة بقرب غرناطة تحت الأرض؛ فباشرت بيدي بعض ورقها وقراءتها وترجمتها. فكانت كل ورقة قدر كفِّ اليد مستديرة من رصاص، وبعضها أصغر، منقوشة على خطوط مثل هذا: بسم الله الرحمن الرحيم، ومثل الخاتم الذي كتبنا في الباب الأول.

ثم إني طالعت في تونس كتاب الأَكْنِحل الأندلسي رحمه الله الذي قال: إن جميع الكتب كانت اثنين وعشرين كتابًا. وإن الصالحة مريم عليها السلام نزل عليها جبريل عليه السلام بسبعة ألواح من الزبرجد الأخضر؛ وقال لها أن تكتب نسخة منها بيدها وتبعثها مع سائر الكتب التي كتب الحواريون؛ بعد أن عرج سَيِّدنا عيسى عليه السلام إلى السماء؛ إلى إشبانية وهي بلاد الأندلس.

فَكَتَبَتْ نسخة من الكتاب، وهو المسمى بـ «حقيقة الإنجيل» الذي تقدَّم الكلام عليه، في هذا الكتاب عند الخاتم، وبعثها مع سائر الكتب مع جماعة من الحواريين وهم: شَتْنَاغُ وَتَصْفِيُونُ وأخوه سِيسْلِيُوهُ، الذي كتب الرِّقَّ الذي

تكلّمنا عليه؛ وهما اللذان كتبّا الكتب - وكانوا عربًا - وخمسة من الحواريين معهم؛ وجميعهم أحرقهم المجوس الروم في الغار الذي وجدوا الكتب، وكل واحد بستر من رصاص في قلب حجر معقود عليه، بعد ألف وست مائة سنة. وورق كتاب «حقيقة الإنجيل» أغلظ من سائر ورق الكتب، في غلظ ريال كبير وأغلظ. وفيه سرٌّ للكتب لأن بعد قراته تكون الناس على دين واحد، انتهى.

انظر هل يكون ذلك في زمن الفاطمي؟ لأنه صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال^(١): «يملأ الدنيا قسطنًا وعدلاً كما يجدها ملئت جورًا وظلمًا».

وكتبت نسخة من كتاب «مواهب الثواب»؛ وهو من جملة الكتب التي ساق من غرناطة لتونس الفقيه يوسف قلبُ الأندلسي المذكور رحمه الله وهي هذه النسخة:

بسم الله الرحمن الرحيم...

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا...

نسخة من أحد الكتب التي وجدت تحت الأرض في خندق الجنة بقرب غرناطة، مكتوبة في ورق الرصاص، من عهد الصالحة مريم عليها السلام، بعد أن عرج سيدنا عيسى عليه السلام، المسمى بـ «كتاب مواهب الثواب لعباد الله المؤمنين في حقيقة الإنجيل» والأمر بها في التاريخ لآخر الزمن، واللغة بعكسها للمعاكسين إليها. فيه ثمان مسائل لبذرّه مع جمهور الحواريين للصالحة العذرة مريم وجوابها إليه. لم يقدر أحد على فهم معاني تواريخ الحقيقة كما^(٢) دونه ليعقوب بن شامخ الحوري؛ عاقبة الدين مكتوب على يدي تلميذه وكاتبه تَصَفِّي بن العطار الأعرابي.

قال يعقوب الحوري: جماعة جمهورنا الحواريين الاثني عشر كُتِّبَ مع الصالحة مريم في بيتها بعد نزول «حقيقة الإنجيل» عليها، ووصفها للأمر فيه إلينا؛ فخاطبتنا بقول قد أسحرت به عقولنا، وطابت أنفسنا، وسكّنت قلوبنا، وخشعت لما يجب الخشوع إليه، من أحسن الذكر، والعمل الصالح، والطاعة لله. ثم خطبتنا بأسرار عظيمة لم يجب ذكرها في كتابي هذا ولكن أقول إن

(١) أبو داود: مهدي ١. ابن ماجه: فتن ٣٤. ابن حنبل: ٣، ٢٧، ٢٨، ٣٦، ٣٧.

(٢) في الأصل: تما.

خطابها يوقف الملائكة في السماء، والإنس في الثرى، تعظيمًا لله ووعظًا ومعجزة منه للسامعين. وما رأيت أبدًا أطيّب نفسًا من نفسها، ولا أفصح لسانًا من لسانها، ولا أكبر علمًا من علمها، بعد سيدنا يسوع. وذلك الوصف كله، كان في خواص «حقيقة الإنجيل» العزيز؛ شكرًا لله على تلك النعم. وأطلب من مجدك وفضلك أن تقصص عليها ثماني مسائل في مواهب ثوابها؛ وعن المتوكلين للأمر بها التابعين إليها بالإيمان؛ وعن ثوابهم الموصوفين في وصفك بالتواريخ للعباد في آخر الزمن؛ وما ينبغي بالعكس للمعاكسين إليها من اللعنة والعذاب؛ ليكتسب جمهورنا والعباد من بعدنا في آخر الزمان.

فقلت: يا بدرة! صف أولاهن^(١)؟ قال: أخبرينا^(٢) عن حقيقة الإنجيل وعن ثوابه يا مولاتنا؛ فقلت: حقيقة الإنجيل هي روح الإنجيل، وهي كنز من كنوز العرش فلاح للمؤمنين ما من عبد يؤمن حق الإيمان بإخلاص ونية لم يخالطهما شيء من الشك، ومات على ذلك إلا يكتب الله له براءة من النار، ويغفر له جميع ذنوبه، ولو كانت لم تُحص في العدد. وما من عبد مؤمن يأتي لها على علم بعد شرحها للعباد يرفعه الله في الجنة درجة عالية. والعامل بالعكس لا شفاعة فيه؛ يلعنه الله وملائكته ألف مرة في كل يوم؛ وتحت سخط الله ويخلده في نار جهنم إلا أن يرجع من ذلك كله حق الرجوع لله.

ثم قالت: يا بدرة! صف لي الثانية؛ قال: أخبرينا عن فضل العرب، أنصار الدين في آخر الزمن، وعن ثوابهم، وعن فضل لسانهم على الألسن يا مولاتنا؛ فقلت: العرب أنصار الدين في آخر الزمن، وفضل لسانهم على الألسن مثل فضل الشمس على دراري السماء؛ اختارهم الله لذلك الأمر وأيدهم بنصره؛ وفضل المؤمنين عند الله كبير وثوابهم جسيم. فما من عبد مؤمن يدعو لهم بالنصر والتأييد - بعد أن يشهر الله حقيقة الإنجيل في الموضع المقدس الذي يراه فيه - إلا وينصره الله النصر المبين، ويكتبه الله حقًا عبده تابعًا لمرضاته، ومُئيّبًا لنصر دينه الرشيد، ومن يردّهم بسوء يلعنه الله وملائكته ألف مرة في كل يوم، وهو تحت سخطه إلى أن يرجع عن ذلك كله حق الرجوع لله.

(١) في الأصل: أولاً منهن.

(٢) في الأصل: أخبرنا.

ثم قالت: صف الثالثة، يا بدره! قال: أخبرينا عن صالح الفقه الذي يشهر الله الحقيقة على يديه وعن ثوابه يا مولاتنا. فقالت: إنما صالح الفقه حقًا؛ المؤمنون بما وضع الله في الوجود من كلماته الثمّة بالإنجيل العزيز؛ على من فيه روح يصوع بالحقيقة؛ روحه من بعده ما دون الشكوك والظن، وذلك جمهور المسجد المؤمن الصالح العالم المنور بنور الإيمان والرحمة، والخليفة اليسوعية^(١) الموكلة عليه بقدرة النهاية؛ والأمر والحلّ والربط لأن تلك الحقيقة برنامج حقها ونورها فلاح للمؤمنين. لا نور لهم دونها ولا لأحد من العالمين.

فما من عبد يؤمن بذلك كله حق الإيمان، بنية وإخلاص لطاعة الله، لم يخالطهما شيء من الشك؛ ويحثّ نفسه على تسهيل الأمر بالحقيقة للمجتمع الأكبر بجزيرة السبر بمشارك البندقية؛ وشرحها يدخل بها في دين الله، إلا ويكتب عبده صالح الفقه حقًا وعصبة متصلة من ذلك الجمهور وصلوحيته ويسيل سلسلة ربقته في عنقه وينظرها بعين عنايتها وكفله بكنف رحمته، وإن ينفق لذلك الأمر درهمًا طيبًا من ماله في سبيل الله، يغفر الله له جميع ذنوبه ويحشره تحت رضائه، ويعطيه في الجنة أجر المصدقة التي بنت مسجد نبي الله سليمان بن داود؛ لأنه معيّنًا استبناء المسجد للمؤمنين بالله واليوم الآخر بذلك الصدقة المقبولة منه، وبالعكس ما من عبد يصل تورixها بيديه وخواص الأمر بها في علمها، ويشكّ فيها ويريد طول الأمل بها؛ ويرضى بكتمانها وكتمان تورixها، وكتاب هذا أدنى حينًا من الدهر من ذلك الجمهور ومن الخليفة اليسوعية ومن العرب الأنصار ومن الناصر الساكن في المشرق، ومن ملوك الأرض ومن عباد الله ليتبعوا موديته، ولينالوا من ثواب الحقيقة الموهوبة لهم من فضله، إلا ويرفضه الله من ذلك الجمهور وصلوحيته، ويقطع منه عصابته ويخلع سلسلة ربقته من عنقه ويكتب في غيبه عدوًا له، معاكسًا لمرضاته ويلعنه الله وملائكته ألف لعنة تلزم في الحين لكل من يبلغ قول هذا وتورix الأمر بالحقيقة عنده كان من كان، ويجعله كمشكاة دون مصباح؛ ويعقده في نار جهنم ملومًا مدحورًا خالدًا في عذابها ما دام ملكه؛ إلا أن يرجع من ذلك كله حق الرجوع إلى الله، ويغفر عنه.

ثم قالت: صف لي الرابعة يا بدره! قال: أخبرينا عن الناصر الساكن في المشرق، وعن ثوابه يا مولاتنا فقالت: الناصر ملك من ملوك العرب، وليس بأعرابي، ساكن في المشرق بأرض الأنانيين، عدواً بالغاً للأجناس العجم ولملتهم ومذهبهم واختلافهم في الدين، يكون له نمائة جميلة لطاعة الله ولنصر دينه الرشيد؛ أيده الله بنصره وألقى نصر حقيقة الإنجيل العزيز في حكمه؛ ويوقف لواء الدين بيده؛ وأيده بالنصر والتمكين في الوجود على سائر الأجناس في ذلك الزمن؛ وله نور وعلم لطاعته في ذلك الأمر؛ وهو في غفلة من قول هذا إلى وقت يبلغ الأمر بالحقيقة المكفولة عنده. وذلك كله سابقة في سابق علم الله سبحانه ليهب فضله من شاء، حاشاً أن يكون في ملكه ما لا يريد إلا مسترضي لأمره؛ له عند الله ثواب كبير ودرجة عالية.

فما من عبد مؤمن بالله بالنصر والتأييد ويعينه بنفسه أو ماله لذلك الأمر ومات على ذلك إلا يغفر الله له جميع ذنوبه ويعطيه في الجنة أجر الشهداء الذين يستشهدون على الدين؛ ومن يأتيه بالعكس يلعنه الله وملائكته ألف مرة في كل يوم؛ ويرفضه من رحمته إلا أن يرجع عن ذلك كله.

ثم قالت: صف لي الخامسة، أبدره! قال: أخبريني عن المتألفين قلوبهم للمجتمع الأكبر؛ وعن ثوابهم يا مولاتنا، فقالت: إنما المتألفين قلوبهم للمجتمع الأكبر الذين تميل وتخضع قلوبهم لله، واستئذنانهم للإنجيل العزيز ولحقيقته وللمؤمنين بما تجمع إليه الحقيقة؛ كانوا من كانوا من جميع الأجناس؛ وأيضاً الذين يهبون الصدقة ويحثون نفوسهم والعباد إلى الحضور فيه بقدر الاستطاع وبالنية؛ فما من عبد من عباد الله يفعل به ويهب نيته وصدقته الطيبة إليها بنية وإخلاص في سبيل الله لذلك الأمر؛ ومات على الإيمان إلا ويغفر الله له جميع ذنوبه، ولو كانت لم تحص في العدد ويكتبه من المتألفين قلوبهم إليه وإن حضر فيه؛ ويؤمن بالمجموع عليه، إلا ويكتب الله له براءة من النار ويعطيه أجر الشهداء المستشهدين على الدين؛ والمعاكس لذلك والمانع للعباد من الحضور فيه لا شك في خلوده في نار جهنم وعذابه الأكبر؛ إلا أن يرجع من ذلك كله حق الرجوع لله.

ثم قالت: صف لي السادسة، أبدره! قال: أخبرينا عن المترجمين المفسرين وعلى ثوابهم يا مولاتنا؛ فقالت: إنما المترجمون حقاً مترجمون

للكتاب الذي بحقيقة الإنجيل، بعد شرحها للعباد في المجتمع الأكبر، يبعثهم في ذلك الزمن مصابيح بين أجناس الوجود؛ يتلألؤون نوراً بنور العلم، والفقه الموهوب، ويدخلون في أرض السّبر، يزيدهم قوة من فضله في العلم ولغة الألسن للترجمة المذكورة والتفسير؛ ليستفهموا بعضهم من بعض، وقولهم في القوام لشرح دينه الرشيد والاستقامة فيه لسعته. ولكن يكون عندهم قليل ثم قليل بين الأجناس لبرهان معجزة الله في العالمين. ورأسهم أضعف خلقه؛ شارحاً الحقيقة طائعاً لله ولخليفته المسجد^(١) المؤمن بالله واليوم الآخر، ومؤمناً بذلك الإيمان وعصابة متصلة من جمهوره يبعثه الله في ذلك الزمن بنور العلم والفقه والرحمة لذلك الأمر كما وصفت لكم؛ وكلهم ألقاهم الله في كفالة الملوك والمترّبين؛ والله يحب أهل العلم الصالحين، ويكره أهل الفسق الجاهلين. وجزاء المؤمنين منهم عند الله كبير، وثوابهم جسيم ولهم درجة عالية في الجنة، وما من ملك أو مشرف أو عبد من عباد الله المؤمنين يُحسّن إليهم ويهيئ أمورهم للمجموع الأكبر المذكور، وشرح الحقيقة إلا يغفر الله له جميع ذنوبه، ويكتبه عنده من الشهداء، الذين يستشهدون على الدين، ويرفع لهم بكل درهم طيب ينفق لذلك الأمر من ماله درجة في الجنة. ومن يردّهم بسوء أو معاكسة يلعنه الله وملائكته ألف مرة في كل يوم، ويرفضه من رحمته؛ إلا أن يرجع عن ذلك كله حق الرجوع لله.

ثم قالت: صف السابعة، أبدرة! قال: أخبرينا عن أضعف خلق الله، شارح حقيقة الإنجيل، في المجتمع الأكبر، وعن ثوابه يا مولاتنا. فقالت: الله يخص برحمته تأويل العلم من يشاء من عباده؛ وذلك العبد من المخصوصين المكتوبين في علم غيبه، مواهبه ومننه عليه كبيرة، ورحمته ومعجزته ظاهرة فيه للعباد المخلصين، الذين يشاء الله يطالعهم عليه من فضله، ولكن يكون عددهم قليلاً في العالمين، عنصره طيب ذكي أعرابي؛ لأن النصر لا ينبغي لغير العرب؛ والناصر في ذلك الزمن هو مظهر من جميع العلوم - كما كان ابني يصوع - ولا يعدم فهم جواب السائلين؛ منور بنور الإحسان والرحمة، خالص بالنية، وله علم كثير موهوب من الله، ليس يوصف به بين

العباد، له نشأة معتدلة، وبشاشة في وجهه مشتملة، وفصاحة في اللسان بلفظ قصير، وعلم كثير، وإتقان يبعثه الله في تكبيرة [...] لكلمة واحدة لسبل الأرض، وفيها يعلمه الذكر، ليكون أضعف خلقه في الوجود، ويضع تهم^(١) الضالين والمرتدين الفاسقين المنافقين المختلفين من جميع الأجناس في الإنجيل العزيز، وبالحقيقة بالشهود المنقوب، من مراتب منزلة الصبر، صبوراً على ذي الفقر والآفات، رافضاً الفخر والكبر، ويكون له إنبات الأهفة كبيرة لتعظيم الأجر وطاعة الله؛ مجتنباً من المحارم والعيوب، صادق القول والوعد؛ حافظ الأمان والميمنة؛ خالف الميسرة. لم يغفل عن ذكر الله وخشيته بقلبه، وتذكره طرفة عين؛ وإن تلحقه معصية يسبقها بالندم ويرتجي من الله العفو والغفران، وثوابه عند الله كبير وأجره جسيم على قدر نيته وإيمانه وعلمه وطاعته إليه. ويزيده من فضله، إن الله لا يضيع أجر المحسنين، يهب الله له شرح حقيقة الإنجيل العزيز المقفولة؛ وألقى علمها على قلبه وفهمه، وشرحها في محفوظه، ونور قلبه بإيمانه. وذلك سابقة في علم غيبه. شارح الحقيقة إذا يشاء الله بشرحها في ذلك المجتمع لطاعته ولا بنظارة العباد، ولكن الله يُنبئهم بالحقيقة؛ وألقى فيهما من كل حكمة ما يليق بذلك المقام ما دون اختلاف وينذر عباده بها إلى يوم كان وعده مفعولاً تَعْيِه العقول فيه. ما من عبد مؤمن يدعى إليه يقول: اللهم ربّ احرس بعين عنايتك لأضعف خلقك شارح حقيقة الإنجيل العزيز في المجتمع الأكبر وهيء أمره إليه واجعلني بما أشرح فيها مؤمناً من الحق؛ ويسر عليّ حفظها وعامل بما أمرت فيها من الحق مؤمناً، وفي الإنجيل العزيز من الطاعة [...] إنك على كل شيء قدير، إلا وينظره الله بعين رحمته، ويحرسه من جميع الآفات. ومن يردّه بالعكس يلعنه الله وملائكته ألف مرة في كل يوم إلا أن يرجع عن ذلك كله حق الرجوع لله.

قالت: صف الثامنة، أبدرة! قال: أخبرينا عن بركة الموضع الذي يرام الحقيقة عن ثواب زيارة العباد، يا مولاتنا؟ فقالت: دليل على بركة الموضع المقدس الذي ترامى الحقيقة؛ والكتب فيه اخترته لذلك الأمر وكتبت بذلك؛ فما من عبد مؤمن طاهر نقي يزوره بنية وإخلاص، لم يخلط شيء من الشك في الإنجيل العزيز، وفي الحقيقة روحه وحق الكتب التي معها؛ ويدعو الله بعد

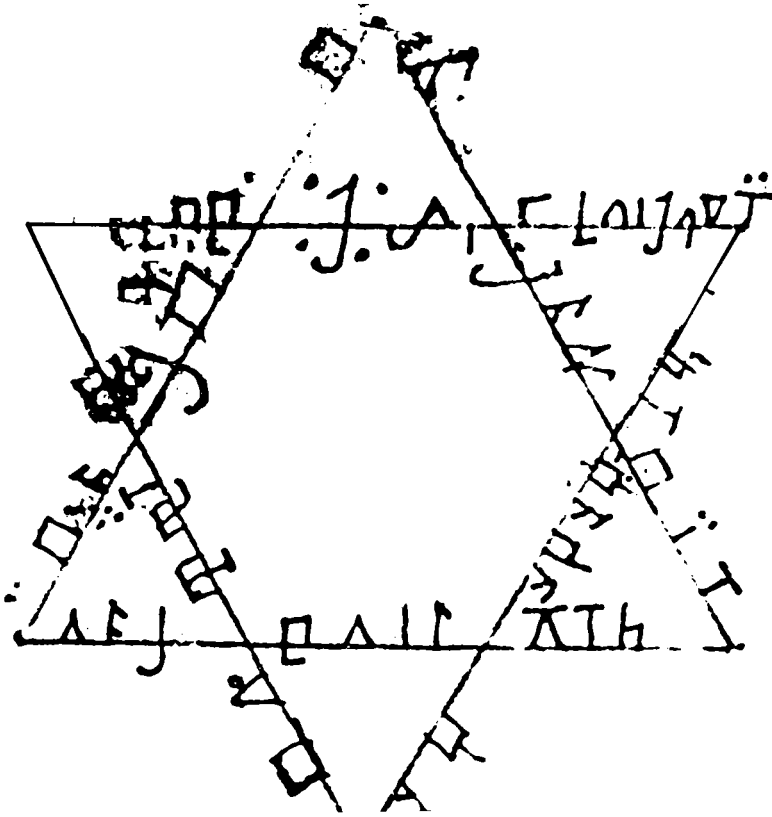
(١) في الأصل: تهام.

إشهارها فيه، ويقول: اللَّهُمَّ رَبِّ آمَنْتُ حَقَّ الْإِيمَانِ بِكَلِمَاتِكَ التَّامَّاتِ الَّتِي أَرْسَلْتَ بِهَا سَيِّدَنَا يَسُوعَ رُوحَكَ وَبِحَقِيقَةِ إِنْجِيلِكَ الْعَزِيزِ الَّتِي شَرَحْتَ نَسَخَتَهَا فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ الْمُقَدَّسِ، وَالْكِتَابِ الثَّابِتِ الصَّحِيحِ الَّتِي مَعَهَا، أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ الْأَعْظَمِ، وَبِمَجْدِكَ وَفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ عَلَى عِبَادِكَ، أَنْ تَرْفَعَ بِهَا وَبِهِ لُؤَاءَ دِينِكَ الرَّشِيدِ عَلَى الْأَدْيَانِ كُلِّهَا، وَأَنْ تُؤَيِّدَ بِهَا وَبِهِ مَسْجِدَكَ الْمُؤْمِنَ الْمُقَدَّسَ وَزَكِي جَمْهُورِهِ الصَّالِحِ، وَأَنْ تَدْخُلَ بِهَا وَبِهِ عِبَادَكَ الْمُؤْمِنِينَ فِي كَنْفِ رَحْمَتِكَ، وَأَنْ تَهْتِكَ بِهَا وَبِهِ سِتْرَ الْمَعَاكِسِينَ إِلَيْهَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ إِلَّا وَيَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ ذُنُوبِهِ وَلَوْ كَانَتْ لَمْ تَحْصَ فِي الْعَدَدِ. وَإِنْ تَصَدَّقْ إِنَّ اللَّهَ يَزِيدُ دَرَجَتَهُ فِي الْجَنَّةِ عَلَى قَدَرِ نِيَّتِهِ، وَعَلَى كُلِّ دَرَاهِمٍ طَيِّبٍ أَعْطَاهُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ لَتَهِيئَةِ الْأَمْرِ الْمَذْكُورِ. وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنْ ذَلِكَ فِي طَاعَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ؛ وَمَا كَانَ لِلَّهِ حَاشَا أَنْ يَضَيِّعَ أَبَدًا لِعِبَادِهِ، إِنَّهُ يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الطَّائِعِينَ إِلَيْهِ، وَلَا خَوْفَ مِنَ الْأَعْدَاءِ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، وَيَنْزِلُ السَّكِينَةَ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالرَّحْمَةَ عَلَى عِبَادِهِ أَجْمَعِينَ؛ لِيَسْتَذْنُوا لشرح الحقيقة والإيمان بها، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ.

فلما فرغت من ذلك القول إذا قايلاً بالنداء من قبل الحق: يَا مَنْ لَهُ الْخَلِيفَةُ الْمَوْهُوبَةُ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى مَنْ سَبَقَتْ عَلَيْهِ الْفَضَائِلُ، وَمَوَاهِبُ الثَّوَابِ الْمَوْصُوفَةُ، عَلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَةَ، فِي جَوَانِبِ الثَّمَانِيَةِ مَسَائِلِ، وَأَوْثَقُ كَلِمَةِ اللَّعْنَةِ وَالرَّفْضِ مِنْ جَمْهُورِ الْمَسْجِدِ الْمُؤْمِنِ الْمُقَدَّسِ، وَصَلُوحِيَّتِهِ عَلَى مَنْ سَبَقَتْ عَلَيْهِ الرَّفْضُ فِي وَصْفِهَا، وَثَوَابًا وَفَضْلًا لَا يَنْفَدُ أَبَدًا؛ وَلَعْنَةً لَا يَنْبَغِي نَقْضُهَا لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِكَ أَوْ حَلِّهَا، إِلَّا بِحَقِّ الرَّجُوعِ لِلَّهِ عَنِ الْمَحَارِمِ.

قال الخليفة: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، أَشْهَدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْحَوَارِيِّينَ بِمَوْلَاتِنَا مَرْيَمَ الْعَذْرَةَ - وَهِيَ وَأَنْتُمْ مَعَهَا خَيْرُ الشَّاهِدِينَ - عَلَى الْحَقِّ؛ أَنَا أَوْثَقُ كَلِمَةِ الْإِتْقَانِ بِقُدْرَةِ الْخَلِيفَةِ الْيَسُوعِيَّةِ، لِلَّذِي سَبَقَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْإِتْقَانِ الْفَضَائِلِ، وَثَوَابِ الْمَوَاهِبِ كَمَا وَصَفْتُهَا فِي جَوَابِ الْمَسَائِلِ الثَّمَانِيَةِ؛ ثَوَابًا وَفَضْلًا لَا يَنْفَدُ أَبَدًا مِنْ بَعْدِي؛ وَأَوْثَقُ بِالْعَكْسِ كَلِمَةَ الْإِتْقَانِ اللَّعْنَةِ وَالرَّفْضِ مِنْ جَمْهُورِ الْمَسْجِدِ الْمُؤْمِنِ الصَّالِحِ الْمُقَدَّسِ، عَلَى مَنْ سَبَقَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ اللَّعْنَةِ وَالرَّفْضِ فِي جَوَابِهَا فِي الثَّمَانِيَةِ مَسَائِلِ الْمَذْكُورَةِ [...] لَا يَنْبَغِي نَقْضُهَا لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِلَّا بِحَقِّ الرَّجُوعِ لِلَّهِ مِنَ الْحَرَامِ.

فلما فرغت من ذلك [...] انفتح فرشه الأعلى وخرج منه [...] وكتب
على جدول خاتم سليمان [...] في جدار وسطه هذه الستة أسطر [...] مضي عن جمهورنا وتد [...].



فعند ذلك التفتت إليّ الصالحة مريم، وقالت: يا يعقوب! عقيبة الدين
أسطر الوصف كله، والكتب [...] الجدول واحفظه مع الحقيقة في الموضع
المقدس [...] يأتي الحق والقول الثابت الصحيح لطاعة [...] قلبي فيهم
ويستفدوا من فضائل [...] حقيقة الإنجيل الموصوفة في [...] في آخر
الزمن.

ثم سألتها بدرة [...] يا مولاتنا ما يعني الكتب على جدول [...]
بالتقوى لا ينبغي في وقت [...] ولكن آخره الله لشارح حقيقة [الإنجيل] [...]
آخر الزمن.

قال: زدنا على التوريف إما يكون [...] شهادة الحقيقة وما يأتي بعده، يا
[مولاتنا]؟

قالت: إذا يتعلم الناس لغير عمل صالح، ويتولّون المقاليد والرتب لغير طاعة الله، وليأكلوا عرق العباد بهنّ ظلماً بغير حق، ويعتمدون على حيالهم لا على الله؛ ويكون عيش النساء في كبر واتباع الرجال بالزنا، وقَلّة الحياء، ويطغى اللباس من الحرير الأسود، ويكثر الحديث بالكذب والخداع، وتتلّى على العبد كلمة الله ولم تتأثر إليها قلوبهم، ويرفع الله بركته من الأرض، ويطفىء نور الصالح [بين العا] لمين في المساجد، في وقت هذا يشد [مهر... الله....] والكتب في الموضوع المقدس [...] على شرحها في المجتمع الأكبر [...] يعود يصوع روح الله [...] المحمود إلى الوجود [...] المسيح الدجال، والمسيح الدجال دليل في طلوع الشمس من المغرب. كمل الكتاب على يد الأعرابي.

وأقول: الذي قال في «مواهب الثواب» عن حقيقة الإنجيل، فهو ظاهر أنه مخالف للإنجيل الذي بأيديهم الآن، ولما تعتقده النصارى من الكفر، والتثليث في الألوهية [...] فيكون موافقاً [...] القرآن العزيز، وبه أغنى الله تبارك وتعالى [...] الإنجيل وعن كتاب حقيقة [...] السماوية، ونفع كتاب حقيقة [...] الذين قال الله تعالى فيهم [...] اهدنا الصراط المستقيم [...] وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

هذا آخر كلامنا في الكتاب

تمّت هذه النسخة المباركة في اليوم العشرين من رجب
من سنة إحدى وخمسين وألف على يد المؤلف للكتاب
كتبه بمدينة تونس المحروسة بالله والحمد لله على توفيقه
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد وآله وصحبه
وسلم تسليمًا كثيرًا أثيرًا والحمد لله رب العالمين

فهرس محتويات
ناصر الدين
على القوم الكافرين

فهرس المحتويات

٣	 مقدمة
٥	 مقدمة المؤلف
	الباب الأول: في ذكر ما وَقَعَ لي بمدينة عَرَناطة مَعَ الْقَيسِيسِ الْكَبِيرِ فِي شَأْنِ قِرَاءَةِ الرِّقِّ الَّذِي وُجِدَ فِي الصَّوْمَعَةِ؛ وَأَيْضًا بَعْضِ مَا صَحَّ عِنْدِي مِنَ الْكُتُبِ الْمَكْتُوبَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ فِي وَرَقِ الرِّصَاصِ. وَهَذَا الْبَابُ هُوَ فِي الرِّحْلَةِ
١١	 فِي الْبَابِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْهَا
	البَابُ الثَّانِي: فِي قُدُومِنَا إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا اتَّفَقَ لَنَا عِنْدَ خُرُوجِنَا مِنْ عِنْدِ
٢٦	 النَّصَارَى
	البَابُ الثَّالِثُ: فِي بُلُوغِنَا إِلَى مَدِينَةِ مَرَاكُشَ وَمَا كَانَ السَّبَبُ حَتَّى مَشَيْتُ إِلَى
٣٤	 بِلَادِ الْفَرَنْجِ
٣٦	 البَابُ الرَّابِعُ: فِي قُدُومِنَا إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ
٤٠	 البَابُ الْخَامِسُ: فِي قُدُومِنَا إِلَى بَرْنِشَ
٤٩	 البَابُ السَّادِسُ: فِي قُدُومِنَا إِلَى قَاضِي الْأَنْدَلُسِ بِفَرَنْجَةِ بَكْتَابِ السُّلْطَانِ
٥٨	 البَابُ السَّابِعُ: فِي رُجُوعِنَا إِلَى مَدِينَةِ بَرْنِشَ وَمَا اتَّفَقَ لَنَا فِيهَا
٦٦	 البَابُ الثَّامِنُ: فِي قُدُومِنَا إِلَى أُولُونَةِ ثُمَّ إِلَى مَدِينَةِ بُرْضِيُوشَ
٧٦	 البَابُ التَّاسِعُ: فِي قُدُومِنَا إِلَى مَدِينَةِ بُرْضِيُوشَ وَمَا وَقَعَ لِي فِيهَا مِنَ الْمُنَاطَرَاتِ
٩٠	 البَابُ الْعَاشِرُ: فِي مُنَاطَرَاتِ الْيَهُودِ بِبِلَادِ فَرَنْجَةِ وَفَلَنْضِيسَ
١١٣	 البَابُ الْحَادِي عَشَرَ: فِي ذِكْرِ بِلَادِ فَلَنْضِيسَ
	البَابُ الثَّانِي عَشَرَ: فِيْمَا اتَّفَقَ لَنَا فِي مِضَرٍ مَعَ رَاهِبٍ عَالِمٍ كَانَ بِالْعَا فِي قُنُونِ الْعِلْمِ وَيَقْرَأُ بِالْعَرَبِيَّةِ. وَأَيْضًا مَا وَقَعَ لِي مِنَ الْمَكَاتِبَةِ لِزَاهِبٍ مِنْ أَكَابِرِ
١٢٥	 عُلَمَاءِ النَّصَارَى بِمَرَاكُشَ

	البَابُ الثَّالِثُ عَشَرَ: فِي ذِكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ مِنْ فَضْلِهِ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ
١٣٨	وَعَظِيمُهَا مِنَ الْبِلَادِ
١٥٣	[كتاب مواهب الشواب]